معارج المقربين

للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم.

مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة

ومشيخة الطريقة العزمية

السيدة زينب : تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع بورسعيد

تليفون المكتبة/

002 022 3901030

بسم اللّه الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب

الحمد لله ذى الفضل العظيم، الذي أكرم أمة حبيبه ﴿ﷺ وآله﴾ بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ آل عمران: ١١٠ والصلاة والسلام على خاتم رسل الله، الذي أكرمه الله تعالى بالمعجزات الباهرات بدءا وختما فلا تزال تتجدد في كل زمان ومكان، وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته أجمعين. ورضي الله تبارك وتعالى عن إمامنا ومرشدنا السيد محمد ماضي أبي العزائم مجدد القرن الرابع عشر الهجري، وأنار الله روضة خليفته الأول مولانا السيد أحمد ماضي أبي العزائم آمين.

وبعد: فتقدم دار الكتاب الصوفي الطبعة الثالثة من كتاب: (معارج المقربين) لجدي الإمام السيد محمد ماضى أبي العزائم الذي سبق أن قام بنشر طبعته الأولى سنة ١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م والدي العارف بالله السيد أحمد ماضي أبو العزائم رضي الله عنه .

و لقد تناول الإمام أبو العزائم في الباب الأول الاعتصام بالكتاب والسنة، وهما الدعامتان اللتان نهضت على أساسهما الدعوة الإسلامية، وأخذت سبيلها إلى القلوب.

كما تحدث الإمام في الباب الثاني عن العلم والإيمان، هذان التوأمان اللذان يؤيد بعضهما البعض، بحيث تفسر الحقائق القرآنية بالحقائق العلمية الثابتة التي استقر عليها العلم وأيدها الإيمان بالبرهان، فالقرآن الكريم صالح لكل المستويات الفكرية والمفاهيم المختلفة، صالح لكل عصر وزمان، لأنه أنزل تبيانا للناس وتثبيتاً للمؤمنين.

وفي الباب الثالث عرف الإمام الطريق إلى الله وبيّن أنه جامعة القرآن ومدرسة النبوة والمعهد الذي ينجب للدنيا الصورة المثالية للإنسان العالي السامي.

وفي الباب الرابع يُفصل الإمام أركان الإيمان التي هى: العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق.

وفي الباب الخامس يوضح الإمام حقيقة العارف بالله باعتباره التفسير الحي لآيات القــرآن، والصورة التي ترمز وتوحي إلى الجلال والكمال المحمدي.

إن مشيخة السادة العزمية – القائمة على دعوة الإمام أبي العزائم – لتعطي تراثه العلمــي من الرعاية ما هو جدير به، وإسهاما منها في نشر هذا التراث، تقدم الطبعة الثالثــة مــن كتاب:(معارج المقربين)

والله أسأل أن يرزقنا الاقتداء بالإمام أبي العزائم، والاهتداء بــهديه، لنحشر يوم القيامة في زمرته (يوم ندعو كل أناس بإمامهم) إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

الخليفة الثاني

السيد عز الدين ماضي أبو العزائم

بسم الله الرحمن الرحيم

التماس الطبعة الأولى

الحمد لواهب المنن، والشكر لمانح الفطن، والثناء على معطي الحكمة، والمتفضل بالنور سبحانه، يداه مبسوطتان بالعطاء، جعل لمن يشاء من عباده نورا هداهم به لصراطه المستقيم، وبين لهم به طرق الوصول إليه، ومنحهم به حقيقة التوكل عليه والمعرفة به، ألهمهم التقوى وزكى أنفسهم وطهر أخلاقهم وأقامهم حججا قائمة له سبحانه على خلقه، وسرجا منيرة للمخلصين من عباده، سر قوله ﴿ ﷺ وآله﴾: « لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » ودعوة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: « اللهم لا تُخلِ الأرض من قائم لك بحجة إما ظاهرا مشهوراً أو باطناً مغمورا حتى لا تبطل حجج الله وبيناته ». والصلاة والسلام على نور الله وحجته القائمة الحريص على المؤمنين الرءوف الرحيم بهم، مَن خُلقه القرآن الشفيع الأكبر والوسيلة العظمى وآله وورثته .

وبعد، فيقول العبد المسكين أحمد ماضي أبو العزائم: إني بعد أن أملى عليَّ والدي الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبو العزائم عليه السلام كتاب: (أصول الوصول لمعية الرســـول ﴿ ﷺ وآله﴾ الجامع لكل ما يلزم المريد من علوم الدين عقيدة وعبادة ومعاملة، وتفصيل علـــوم القلوب ومواجيد أهل اليقين. وكتاب: (شراب الأرواح) الجـــامع لمواضـــيع شـــتى في الأخلاق والنفوس وعلوم التوحيد والسير والسلوك، وغير تلك الكتب من مجموعة الأدعية والاستغاثات والصلوات والحكم، وظهر لي أن الله تعالى نفع بتلك الكتب واستقبلها أهـــل الفضل والعلم والصلاح وغيرهم ممن اطلع عليها بقبول حسن، حتى استحسنت طبعها مرة ثانية لتعميم النفع، ولكني أدركت أنه لابد من كتاب يجمع حقيقة الطريـــق إلى الله تعـــالى وأصوله التي يجب التمسك بها، يبين لنا العلم والإيمان وخصال المؤمنين التي يكون بها المؤمن مؤمنا، ويعرف لنا النفس وطرق تزكيتها والأخلاق الفاضلة الشرعية وأضدادها، ويشـــرح

لنا الأمراض النفسية وعلاجاتها، وطرق الدعوة إلى الله تعالى وصفات المرشدين، ويبين لنا أسباب الاختلاف في الطريق، ويشرح لنا الأمر الجامع الذي يحصل به التوفيق بين أهل الآراء المختلفة، ويبين لنا بيانا شافيا في حقيقة الأخوة والإخوان وآدابهم ومعاملاتهم، في مجتمعاتهم وفي خلواتهم بما يفتح الله سبحانه وتعالى عليه به من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، وما يمنحه الله من الفقه في بيان ذلك خدمة للطريق وأهله، ورغبة إلى الله تعالى في نوال رضوانه الأكبر، وحفظا لما منحه الله للإمام عليه السلام من العلوم النافعة التي بحفظها ينتفع بها المسلمون بعدنا، لذلك بادرت أنا ومن استحسنوا رأيي هذا من خواص الإمام والتمسنا جميعا منه هذا الأمر فأجاب ملتمسنا مسرورا وسأل الله المعونة والتوفيق.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لك الحمد يا من وسعت رحمتك كل شيء، ولك الشكر والثناء يا واسع المغفرة وقابل التوب، ولك المجد والكبرياء والعزة يا من أكملت النعمة على خلقك ببعثة رسلك عليهم الصلاة والسلام، لك الثناء الحسن الجميل كما أثنيت على نفسك فإنه لا يقدر قدرك إلا أنت، خلقت الخلق وأمددهم بسابغ فضلك وعميم كرمك وهاطل برك وجودك، ثم تفضلت فبينت لهم سبل الهدى وطرق النجاة، ووفقت من أحببتهم بمعونتك وعنايتك لما تحب من الاعتقاد والأعمال والأحوال والمعاملات، وجعلت لهم نورا في قلوبهم فقهوا به أسرار تتزيلك وحكمة أحكامك، وحصنتهم بحصون حبك لهم من أن يخالفوا هدى حبيبك المصطفى أو يبتدعوا بدعة مضلة سر قولك سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ البقرة: ٢٥٧ وقولك تقدست وتعاليت: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ الكهف: ١٧ وقولك سبحانك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ الأنعام: ٨٢ وقولك جل جلالك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ الأنبياء: ١٠١. سبحانك أنت ذو الفضل العظيم.

وأبرأ إليك اللهم من شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب بالرأي، ومن أن أقول برأيي في كتابك أو في سنة رسولك ﴿ﷺ وآله﴾، وأعوذ بوجهك العظيم من زلل لساني وعجلة جناني، ومن عمد الخطأ وقصد الزلل، وأسألك العصمة – يا ولي المؤمنين فإنك أنت العاصم لا عاصم إلا أنت – وفقها في دينك وعلما نافعا بأسرار مرادك سبحانك، وحسن نية عن إخلاص لذاتك، وصدقا في معاملتك يارب العالمين، ليكون ما وفقتني له من القول والعمل والبيان خالصا لوجهك الكريم، مقبولا لديك يارب العالمين، نافعا لي ولأولادي ولجميع إخوتي المؤمنين إنك مجيب الدعاء.

وأسألك كما شرحت صدري لهذا الكتاب أن تمدني بروح منك يــاذا الفضــل العظــيم والصلاة والسلام على الشمس الممدة لسراج القلوب ومصابيح النفوس وأنجــم الهــدى وأقمار البيان.

هذا وإني أنا العبد المنكسر القلب المسكين الذليل **محمد ماضى أبو العزائم** أعتقد أن ما وفقني الله له من الحق والهدى، ومتابعة السنة والكتاب، هو من الله تعالى بتوفيقه ومعونتــه وفتحه وهباته ومننه وإمداداته الربانية، ومن نظرات وود حضرة رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، وما حصل مني من العجلة والنسيان، فمن نفسي اللقسة وطبعي البشري، أسأل الله تعــالى أن يغفر لي زللي وعجلتي التي هي طبعي، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ الإسراء: ١١ وقال سبحانه: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ الأنبياء: ٣٧ وقال تعــالى: ﴿ ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ طه: ١١٥ ، وهذا نبي كريم فكيف بمسكين يســأل الله أن يتولاه ؟ !

على أنيأرجو من يطلع عليه فيجد فيه ما يظن أنه يخالف، أن يتروى ولا يتعجل، فعسى أن يظهر له وجه التأويل، أو ينسب ذلك إلى تسرعي وعجلتي، ويسأل الله لي المغفرة قــال ﴿ ﷺ وآله﴾: « اتقوا زلة العالم وانتظروا فيئته » والله أسأل المعونة والتوفيق .

موضوع البحث و تنبيهاته

موضوع البحث:

لما كان الغرض من وضع هذا الكتاب – بعد كتاب أصول الوصول – إنما هو تنبيه السالكين والمرشدين إلى ما به صفاء جوهر النفس حتى تفقه القلوب أسرار الشريعة، ويظهر لها أن نيل الخير كله في الدنيا والآخرة باتباع السنة، وأن نوال السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة بفهم روح الكتاب والسنة، وتعليم العلوم النافعة التي بها يكون كل فرد من أفراد المسلمين قائما بما وجب عليه لنفسه وعشيرته الأقربين، من والدين وأولاد وزوجة وأرحام وجيران فجميع المسلمين، حتى يكون المسلم مسلما حقا على ما كان عليه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه رضوان الله عنهم.

ولما كان هذا الغرض العظيم والمقصد الجليل لا يتسنى للإنسان إلا بعد تزكية نفسه، حتى يتحقق بالإيمان بيوم الحساب، وتنكشف له حقيقة الدنيا أنها دار ربح واكتساب، وتجمل بفضائل ومعارف وعلوم، ينال بها السعادة بعد أوبته إلى دار البقاء، وأنها سوق للتجارة في الفضائل، وموسم للزراعة في الأعمال الصالحة، والجاهل من جهل أنه مسافر فترك الاستعداد بالزاد والراحلة والرفقة، حتى انتقل إلى الدار الآخرة بلا زاد ولا رفيق ولا شفيع، فندم ولات حين مندم، لذلك استحسنت أن أفتتح كتابي هذا بما ورد من الآيات القرآنية في الاعتصام باتباع سيدنا ومولانا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وما ورد من الأحاديث في الاعتصام بالسنة .

تنبيهات البحث:

١- على أني أنبه المطلّع - إن كان ممن زكت نفسه - أن يحمل عملي هذا على أجمل المحامل كما هو شأن كل مسلم لأخيه، ويتأول ما لا تظهر له معانيه من العبارات بما يناسب المراد من وضع الكتاب .

وإن كان المطلع عليه ممن لم تتزك نفسه بالرياضة والمجاهدة، ولا بمطالعة سير السلف الصالح ولا بتلقي أسرارهم، فأرجو منه أن لا يتسرع بسوء الظن، ولا يشيع السوء بين الناس، وليأخذ ما صفا ويترك ما عكر، فإني أطمع بحسن ظن في الله تعالى أن يغفر لي زللي، وأنه سبحانه وتعالى لا يؤاخذني إن نسيت أو أخطأت.

وقد تسرع بعض من تعلموا العلم ليستظهروا على أولياء الله عداوة للحق وبغضا لأهله - كما قال أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام عندما وصف العلماء لكميل وقمبر رضي الله عنهما - فإن هذا المتسرع رماني بأني أكتب كتابة لا تفهم لأخدع بها الناس، حتى اجتمعوا عليَّ وأنكروا في كتابي: (أصول الوصول) ما لا ينكره صغار المبتدئين، وأني استغفر الله لي ولهم، وأسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعا ممن يتعاونون على البر والتقوى، ويعيذنا سبحانه من التعاون على الإثم والعدوان.

٢- وأنبه القارئ إلى ما لابد منه؛ وهو أن التكلم في العلوم الإلهية وما يتصل بها من علوم النفس والإيمان بالغيب وسر القضاء والقدر، علوم لا تفهم إلا لذي نفس زكية وقلب فقيه، فإنها ليست كالعلوم العقلية وذلك مثال علم الحساب وعلم الجبر، فإن علم الحساب مثال للعلوم العقلية لأنه يؤول إلى الحس وبراهينه عقلية، وعلم الجبر مثال لعلم النفس، فمن لم يطهر نفسه بالمجاهدة والرياضة ينكر كل الإنكار علم الجبر ولا يتصور معادلاته، وكيف يتصور العاقل الذي لم يطهر نفسه معادلة جبرية مثل: حـ + ء + س - ب = ا + ب - حـ + س

ما الذي يفهمه العاقل إذا رأى تلك الرموز؟! إلا أنه يتصور أنه سحر أو طلسمات، ومن جهل شيئا عاداه.

فأرجو المطلع على كتاب: (شراب الأرواح) وقسم علوم اليقين من كتاب (أصول الوصول) وقسم علوم النفس من كتاب (معارج المقربين) وقسم الاصطلاحات وتزكية النفس من كتاب: (تذكرة المرشدين والمسترشدين) أن يسلم حتى يمنَّ الله عليه بفهم تلك العلوم، أو يبتدئ بتزكية نفسه كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ الأعلى: ١٤ - ١٥

٣_ ربما أنكر بعض المطلعين على هذه الكتب لتركي ذكر أسانيد الحديث، وذكر أسماء الكتب والرجال الذين أخذت عنهم، ولكني والحمد لله على يقين أن العلم أمانة وأن كل الأحاديث التي وضعتها كلها في كتبي هذه هي مما أوردها الأئمة في كتبهم، وضعتها في كتبي هذه لتكون لإخواني أهل الطريق نوراً من نور السنة المحمدية، وعونا لهم بعد كتاب الله تعالى على ما يقرب إلى الله تعالى وإلى رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، وكلها إما أن تكون مما أخرجه الشيخان، سيدنا الإمام البخاري والإمام مسلم في جامعيهما أو أحدهما، أو أورده أبو داود والترمذي وغيرهما من الأئمة في تصانيفهم رحمهم الله، وهي صحاح على شرط البخاري لأنها بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، إلاأنها لم تبلغ غاية شرط الشيخين في علو الدرجة، وقد حذفت الأسانيد لعدم الإطالة حتى يسهل على المريد أخذ الأحكام الشرعية .

على أني لا أبرئ نفسي من الزلل والخطأ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ يوسف: ٥٣. فلكل أخ ظهر له زلل فكل في كتبي هذه فإنما أنا إنسان مسكين تحريت بقدر ما في وسعي كما قال الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ الجن: ١٤ فما كان من الزلل والخطأ فإني أعوذ بالله أن يكون عن قصد مني، أو تغيير لسنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، أو انتهاج على غير طريق المؤمنين، أعوذ بالله من مخالفة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾،

كيف يرضى المؤمن بأن يكون من أهل جهنم بأن يتبع غير سبيل المؤمنين ؟! قال الله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ النساء: ١١٥.

اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم، وباسمك العظيم، وبكلماتك التامات، من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن عمل لا يرفع، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الأول

الاعتصام بالكتاب والسنة

الآيات الواردة في الاعتصام بالكتاب والسنة:

قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ آل عمران: ٣١ وقال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾ النساء: ٨٠ وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ ﴾ المائدة: ٩٢ الآية . وقال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾ آل عمران: ١٠٣ الآية وقال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ النور: ٥٦. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ ﴾ النور: ٦٢. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ ﴾ النور: ٢١. وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ﴾ الأنعام: ١٥٣. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ الأنفال: ٢٠ الآية. وقال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ الأنفال: ١. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ الأحزاب: ٧٠ - ٧١.

الأحاديث الواردة في الاعتصام بالكتاب والسنة:

عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدّ » .

وعن جابر ﷺ عن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: « أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة » وقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: « أبغض الناس إلى الله ثلاثة، ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ مسلم بغير حق ليهريق دمه » رواه ابن عباس رضي الله عنهما وقال: « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبي » رواه أبو هريرة ﷺ .

وعن جابر ﷺ قال: « جاءت ملائكة إلى النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو نائم فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلا فاضربوا له مثلا، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدُبة، وبعث داعيا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، فقالوا:

أولوها له يفقهها، قال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد، فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس». وعن أنس ﷺ قال: « جاء ثلاثة رهط إلى أزواج النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ ليسألوا عن عبادة النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال الآخر: أنا أصوم النهار ولا أفطر، وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم من الله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: « ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » وقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾:

« أنتم أعلم بأمر دنياكم فإذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به » رواه رافع بن خديج .

عن أبي موسى الأشعرى ﷺ عن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: « إنما مثلي ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوما فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به من الحق ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق » .

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: « إنما مثلي كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها، قال: فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني تقحمون فيها » وقال النبي ﴿ ﷺ وآله﴾:« مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به فعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » رواه أبو موسى الأشعرى ﷺ .

وقالت عائشة رضي الله عنها: تلا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ آل عمران: ٧ قالت: قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: « فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم » . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: « هجرت إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فسمع صوت رجلين اختلفا في آية فخرج يعرف في وجهه الغضب فقال: إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب » . وقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: « ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان

قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » رواه أبو هريرة ﷺ. وقال: « إن أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته » رواه سعد بن أبي وقاص ﷺ.

وقال: « يكون في آخر الزمان دجالون كذابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم » رواه أبو هريرة ﷺ عن ثوبان ﷺ قال : قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ :« لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» رواه مسلم، وقال: « لا يزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة » رواه جابر ﷺ .

وقال: « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» وقال: « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء » وقال: « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى حجرها » روى هذه الأحاديث الثلاثة أبو هريرة ﷺ.

عن أبي رافع ﷺ أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » .

عن المقدام بن معد يكرب ﷺ قال: قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: « ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإنما حرَّم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كما حرَّم الله، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه ﷺ. وقال: « لا

تصدقوا أهل الكتاب ولا تكـــذبوهم وقولـــوا: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ ﴾ البقـرة: ١٣٦ الآية، رواه أبو هريرة ﷺ ، وقال« كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع » رواه أبو هريرة ﷺ . وقال« ما من نبي بعثه الله في أمته قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » رواه ابن مسعود فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه » .

عن العرباض بن سارية ﷺ قال: قام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال: « أيحســـب أحـــدكم متكئا على أريكته يظن أن الله لم يحرم شيئا إلا ما في هذا القرآن، ألا وإني والله قد أمـــرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر، وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيـــوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوكم الذي فرض عليهم » .

وعن العرباض بن سارية ﷺ قال: وعظنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنها موعظة مودّع فأوصنا، فقال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن كان عبدا حبشيا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضـــوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: « خط لنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ خطا ثم قال: هـــذا سبيل الله، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله: وقال: هذه سبل على كـــل ســـبيل منـــها شيطان يدعو إليه، وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ ﴾ الأنعام: ١٥٣ .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » وقال: « من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي فإن له من الأجر مثل أجور من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه من الإثم مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً» رواه بلال بن الحرث المزني وقال: « إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحيـــة إلى جحرها وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأودية من رأس الجبل » وقال: « إن الدين بـــدأ غريبا ويرجع غريبا، فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من ســـنتي » رواه كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف بن زيد بن ملحة عن أبيه عن جده .

وقال ﴿ ﷺ وآله﴾: « ليأتين على أمتي كما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلـــك » « وإن بـــني إســـرائيل تفرقت على أثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملـــة واحدة قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي » رواه عبد الله بـــن عمـــر رضي الله عنهما، وفي رواية أبو داود: « وواحدة في الجنة وهي الجماعة، وأنه ســـيخرج في أمتي قوم تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منـــه عـــرق ولا مفصل إلا دخله » وقال: « لا تجتمع هذه الأمة – أو قال: أمة محمد – على ضلالة » « ويد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار » رواه ابن عمر وأنس، ويروي عن ابن عمر عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه قال: «اتبعوا السواد الأعظم فإنه من شذ شذ في النار» .

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: « يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل، ثم قال: يا بني وذلك من سنتى ومن أحب ســـنتي فقـــد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة » وقال: « من تمسك بسنتى عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد» رواه أبو هريرة .

وعن جابر ﷺ عن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ حين أتاه عمر ﷺ فقال: « إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال: أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي » .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: « من أكل طيبا، وعمل في سنة، وأمن الناس بوائقه، دخل الجنة، فقال رجل: يا رسول الله إن هذا اليوم في الناس لكثير، قال: وسيكون في قرون بعدي » .

وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ قال: « إنكم في زمان من ترك منكم عُشَر ما أمر به هلك، ثم يأتي زمان من عمل منهم بعُشر ما أمر به نجا » .

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: « نزل القرآن على خمسة وجوه، حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال. فأحلوا الحلال، وحرِّموا الحرام، واعملوا بالمحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال » .

وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: « الأمر ثلاثة، أمر بيِّن رشده فاتبعه، وأمر بيِّن غيه فاجتنبه، وأمر اختلف فيه، فكله إلى الله عز وجل » .

عن أنس ﷺ أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كان يقول: « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عيهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديار رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » .

الباب الثاني

العلم والإيمان

الفصل الأول

العلم

تعريف العلم:

العلم: هو تصور النفس رسوم المعلوم في ذاتها، بعد صفاء جوهرها بالتهذيب والتصديق والتسليم. ومن البديهي الجلي، أن العلوم كلها شريفة سواء كانت نظرية أو عملية، وفيها عز وشرف في الدنيا والآخرة. وأشرفها وأجلها وأنفعها ما به نيل السعادتين وخير النشأتين، وهو علم معرفة الإنسان نفسه وحقيقة جوهره وما تتصرف به الأمور حالا بعد حال، إلى أن يبلغ إلى قصارى غايته التي هي متمناه، وهي أن يلقى ربه في الدنيا بعين اليقين قبل الموت القهري بالموت الإرادي، الذي هو كمال تزكية النفس وعلم حقيقة التوحيد، وأما في الآخرة بعد فراق الدنيا، قال ﴿ ﷺ وآله﴾: « من عرف نفسه عرف ربه » وقال عليه الصلاة والسلام: « إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا » وقال الله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر: ٩ وقال سبحانه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ آل عمران: ٧ وقال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ الأنعام: ١٢٢.

واعلم أيها السالك المسترشد أن هذا الباب من العلم، هو طهور ذوي الألباب، ومعراج الوصول، وعنصر الحكمة، ونور المعرفة، فجاهد نفسك واجتهد في طلبه من العارفين به، فإنك به تنال شرف الدنيا وسعادة الآخرة. وقد بين القرآن الكريم والسنة المطهرة شرف هذا العلم، وقد شرحت جملا منه في كتاب: (شراب الأرواح) خصوصا في تهذيب

النفوس، وبيان كيفية ما يتصرف به الإنسان من الأمور حالا بعد حال، وما يصير إليه الإنسان بعد مفارقتة الدنيا إلى يوم البعث مما ورد في الكتاب العزيز وفي السنة .

واعلم أيها السالك أن أشرف الأمور التي ينالها الإنسان في الدنيا، وأعلى مرتبة يبلغ إليها بجسمه قبل الموت، هي سرير الملك والعز والسلطان على أجساد أبناء جنسه، والقهر والغلبة بالقوة الغضبية، وهذا– لا شك– يفنى ويزول، ويكون له الحسنى إن أحسن، والمغفرة أو العذاب إن أساء.

ولكن الإنسان قد يبلغ بنفسه من المراتب العلية والدرجات الرفيعة أن يخصه الله تعالى ويصطفيه بالفضل المحض وسابقة الحسنى، بأن يجعله رسولا منه إلى عباده يفضله بالوحي، وهو فضل عظيم من الله تعالى لا تبلغه النفوس بمجاهدة ولا تناله برياضة ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الحديد: ٢١ هذا هو الشرف الحقيقي والمجد الحقيقي والعز الحقيقي والسعادة الحقيقية، وقد تبلغ النفس بكمال تزكيتها وصفاء جوهرها إلى كمال التصديق بالرسول ﴿ﷺ وآله﴾ وبما جاء به والاقتداء بهديه فتبلغ السعادتين، وتكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء، هذا كله لأن الإنسان إنما هو جملة مجموعة من جسد جسماني في أحسن الصور، ومن نفس روحانية من أفضل النفوس، ولكل من جسمه وروحه غاية إليها ينتهي، ونهاية إليها يرتقي، ولا يتسنى للإنسان أن يرتقي إلى معارج القرب، ويحظى بمشاهدة الرب سبحانه وبفهم أسراره وبكشف آياته، إلا بالعلم الذي به يعرف نفسه كما قررت لك، والله ولي التوفيق .

علم للوصال وعلم للأعمال:

العلم إدراك المعلوم على ما هو عليه، أو بوجه ما، وهو علم إدراك الكونيات من خواص الأشياء مفردة ومركبة واستخدام تلك الخواص فيما خلقت له الأشياء، ويلزمه العلم بمقدمات العلوم العقلية .

ومن العلم علم هو الفهم، وهو علم الأحكام الشرعية والعرفية من عبادات ومعاملات وأخلاق وعادات، ومن العلم علم هو إدراك عجز المتعلم عن إدراك المعلوم، بعد اليقين بعلم آياته وآثاره القائمة مقام الحجة القاطعة على كمالاته العلية وهو العلم بالله .

١- العلم الذي هو للوصال:

إذا تقرر هذا فالعلم الذي هو للوصال العلم بالله من طرقه الموصلة، وطرقه الموصلة أخبار الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾، وكلام الله تعالى بتسليم وانقياد، ثم العمل بما أمر به الرسول ﴿ﷺوآله﴾ مع الإخلاص الكامل، ثم الاقتداء بعالم عامل متمكن من علوم التوحيد واليقين وأسرار السنة وعلم السير وأعمال الأئمة، ويكون الاقتداء بأكمل وجوهه وأتم شروطه حتى لا يخرج عن أوامره ولا يتحول عن إرشاده ولا يخالف إشاراته، ويكون له كالطفل الصغير مع والده، يطيعه فيما يعلم سره وما لا يعلم سره إطاعة عن اطمئنان قلب وإخلاص ضمير وسلامة نية .

فإذا توفرت تلك الأساسات الثلاثة التي هي سماع الأخبار والعمل والاقتداء بالإمام المرشد، وأشرقت عليه أنوار العلم بالله، فيعلم ما لم يكن يعلم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ﴾ البقرة: ٢٨٢ ويرفعه الله درجات في المشاهدات، ويكاشفه بأسرار الغيوب الملكوتية، حتى يترقى إلى مقامات العزة ومنازلات الجبروت، فتجلى له حقائق صادقة، وتلوح له أنوار قدسية بها يعلم العلم الذي لا جهل بعده ولا جهل فيه، علم العجز عن الإدراك وهو الإدراك، وهذا هو العلم الموصل، وطرقه المتقدمة بيان أساساتها وشرح مقدماتها يحتاج إلى أسفار، وإن شاء الله تعالى سأكتب رسالة تبين مجمل هذا.

٢- العلم الذي هو للأعمال :

أما العلم الذي هو للعمل فهو علم الأحكام الشرعية والعلم بالعلوم الضرورية للعمـــران، ويعبر عنه بالحكمة العملية التي لابد فيها من العمل، ومنه علم الأخلاق وتزكية النفـــوس، وعلم المعاملات، ومعرفة الآداب العرفية والعوائد، فمن تعلم العلم الخاص بالعمل ولم يعمل فليس بعالم، ولكنه كالشمعة يضيء لغيره ويحرق نفسه، ومن لم يتعلم العلم الموصل قبل كل شيء، فإيمانه ناقص وإن صلى وصام وزكى وحج .

فعلى المريد أن يبدأ بما أوجبه الله تعالى أولا، وهو العلم بالله والتمكن من معرفة الواجب له سبحانه، والمستحيل عليه سبحانه، ويجتهد في تلقي علوم اليقين وأسرار التوحيد ومواجيـــد أهل الحب وأحوال أهل القرب لينال الفوز، ثم يتعلم الأحكام بعد معرفة الحاكم ســبحانه ليعمل بخشية ومراقبة لجلاله ورهبة من عظمته ورغبة في جماله، وبذلك يكون عبدا مســـلما مؤمنا محسنا موقنا، والله سبحانه يمنحنا حقيقة الإيمان بجاه المصطفى ﴿ ﷺ وآله﴾ .

الوصول :

الوصول وجدان باعث الوله إلى التخلق بأخلاق الربوبية، بعظيم المجاهدة في التخلي عـــن الفطر والأخلاق الحيوانية والإبليسية، مع اللذة بالآلام والطرب عند فوات ما يلائم تلـــك القوى – مما حرصت على نيله – وبذله عند نواله فرحا بمفارقته مسرورا بما استعاضة عنه، حتى تنمو المشاهة، وتتم الفطرة على ألفة ما ينافره، والرغبة فيما يؤلمه، مع وجدان الباعث على طلبه، والداعي له من توفر الشهوة، ووجود القدرة على تنجيز ما يلائم ولـــو كـــان ضروريا، فيكون مع الرغبة فيه راغبا عنه، ومع الاحتياج إليه غنيا عنه، وبهذا يكون قائمـــا بمعاني القرآن بالمشاهة، محفوظا بالمجاهدة، وهو وصول السالكين، فيكون جهادهم الـــتحفظ بسور الحفظ عن تعدي حدود المكانة لا حدود الأحكام، لأنهم محفوظون من تعدي حـــدود الأحكام بنص قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ الحجر: ٤٢ ، وهو بداية للمقربين الذين كوشفوا بتلك المعاني في أنفسهم وفي السموات والأرض، أشـــرقت أنـــوار لطائف سريرهم على الجوارح العاملة فسلبت ظلال الوهم، وأفياء الهوى والحظ، فجهادهم

عن مشاهدة التوحيد بالتوحيد، فهم بعيون السريرة غرقوا في عين الوحـــدة، وبأبصـــارهم شهدوا سر الحكمة، وبينهما برزخ لا يبغيان، فلا عباب مشاهد التوحيد يبغى على بـــرزخ الحكمة فيفنى حقيقة العبودة، ولا مكفوف موج الحكمة يبغي على مسجور القدرة فيحجب أنوار التحقيق، وهو الجهاد الأكبر، لأنه في ذات الله تعالى، وإن الفضل بيد الله يؤتيه مـــن يشاء والله ذو الفضل العظيم .

الحكمة:

الحكمة هي استكمال النفس الإنسانية بتحصيل ما عليه الوجود في نفســه، ومـــا عليـــه الواجب مما ينبغي أن يعمل من الأعمال ومما لا ينبغي، لتصير كاملة مضاهية للعالم الروحاني، وتفوز بذلك بالسعادة القصوى الأخروية بحسب الطاقة البشرية.

وهي تنقسم بالقسمة الأولى إلى قسمين:

(أ) لأنها إن تعلقت بالأمور التي لنا أن نعلمها وليس لنا أن نعملها سميت حكمة نظرية.

(ب) وإن تعلقت بالأمور التي لنا أن نعلمها ونعملها سميت حكمة عملية.

وكل من الحكمتين منحصر في أقسام ثلاثة:

أما النظرية فلأن ما لا يتعلق بأعمالنا إما أن لا تكون مخالطة المادة شرطا لوجوده أو تكون، وحينئذ إما أن لا تكون تلك المخالطة شرطا لتعقله أو تكون.

والأول: وهو ما لا تكون مخالطة المادة شرطا لوجوده، وهو العلم الإلهي وهو العلم الأعلى.

والثاني: وهو أن تكون المخالطة شرطا لوجوده دون تعقله، هو العلم الرياضي وهو العلـــم الأوسط.

والثالث: وهو أن تكون المخالطة شرطا لوجوده وتعقله وهـــو الطبعـــي، كعلـــم المعـــادن والنباتات والحيوانات والطب والنجوم والصنائع وهو العلم الأسفل.

وأما العملية فلأن ما يتعلق بأعمالنا إن كان علما بالتدبير الذي يختص بالشخص الواحد فهو علم الأخلاق، وإلا فهو علم تدبير المنزل إن كان علما بما لا يتم إلا بالاجتماع المنزلي، وعلم السياسة إن كان علما بما لا يتم إلا بالاجتماع المدني.

ومبادئ هذه الثلاثة من جهة الشريعة الإلهية وفائدة الحكمة الخلقية أن يعلم الفضائل وكيفية اقتنائها لتتزكى بها النفس، وأن يعلم الرذائل وكيفية الوقاية منها لتطهر منها النفس، وفائدة المنزلية أن يعلم المشاركة التي ينبغي أن تكون بين أهل منزل واحد لتنتظم بها المصلحة المنزلية التي تتم بين زوج وزوجة، ووالد ومولود، ومالك ومملوك، وفائدة المدنية أن يعلم كيفية المشاركة التي تقع بين أشخاص الناس ليتعاونوا على مصالح الأبدان ومصالح بقاء نوع الإنسان.

والمدنية قد قسمت إلى قسمين: إلى ما يتعلق بالملك والسلطنة ويسمى علم السياسة، وإلى ما يتعلق بالنبوة والشريعة ويسمى علم النواميس. لهذا جعل بعضهم أقسام الحكمة العملية أربعة، وليس ذلك بمناقض لمن جعلها ثلاثة لدخول قسمين منها تحت قسم واحد، ومنهم من جعل أقسام النظرية أيضا أربعة بحسب انقسام المعلومات، فإن المعلوم إما أن يفتقر إلى مقارنة المادة الجسمية في الوجود العيني أولا، والأول إن لم يتجرد عنها في الذهن فهو الطبيعي وإلا فهو الرياضي، والثاني إن لم يقارنها البتة كذات الحق سبحانه وأسمائه وصفاته سبحانه فهو الإلهي، وإلا فهو العلم الكلي.

والحكمة الأولى كالعلم بالوحدة والكثرة والسبب والمسبب وأمثالها، مما يعرض للمجردات تارة وللأجسام أخرى ولكن بالعَرض لا بالذات، إذ لو افتقر بالذات إلى المادة الجسمية لما انفكت عنها ولما وصفت المجردات بها، ولا منافاة بين التقسيمين كما عرفت، فهذه جملة أقسام الحكمة، ومن استكمل نفسه بها فقد أوتي خيرا كثيرا.

عين اليقين وحق اليقين:

هاتان المرتبتان فيض فضل بلا كسب بعد الرياضات وتزكية النفس.

عين اليقين:

هي أن تصير النفس بحيث تشاهد في المقارن المعاني الروحانية التي تدركها العقول بالبراهين الحقيقية رؤية هي نفس اليقين وخالصه.

حق اليقين:

وهي أن تصير النفس بحيث تتصل بالمفارق اتصالا روحانيا، وتلاقي ذاتها ذاته تلاقيا روحانيا، حتى تصير النفس نفسا ملكية تسبح في فسيح الملكوت الأعلى.

فالمراد من الوصول إلى كمال المعرفة: الوصول إلى إحدى هاتين المرتبتين، ومرتبة حق اليقين مرتبة الأنبياء قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ الأنعام: ٧٥ والمراد بالمفارق ما عدا عالم الملك وهو عالم الملكوت والعزة والجبروت

الفكر في آلاء الله لا في ذات الله:

معلوم أن أكمل الأعمال هي أعمال القلوب، وأن أعمال الجوارح المجردة عن أعمال القلوب مختلف في قبولها بنص قوله ﴿ﷺ وآله﴾: « إنما الأعمال بالنيات » وبما ورد في محكم الآيات القرآنية من الحث على الإخلاص والصدق والتفكر، حتى كانت كل دلائل التوحيد وبراهين الوحدانية الواردة في القرآن الشريف كلها من طريق الفكر والنظر في الآثار الكونية والآيات الربانية الظاهرة فيها كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ البقرة: ١٦٤، إلى ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ في البقرة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ آل عمران: ١٩١ في آل عمران وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يونس: ١٠١ وما تغني الآيات الآية في يونس، وقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ فصلت: ٥٣ في فصلت، وإلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ

كَيۡفَ خُلِقَتۡ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴾ الغاشية: ١٧ - ١٨.... الخ في سورة الغاشية وآيات لا تحصى من المحكمات.

فأقام الله سبحانه وتعالى الدلائل على أنه سبحانه وتعالى تفضل بالعناية الكبرى بالإنسان، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعا منه ليتفكر فيما أحاط به وفيما في نفسه، حتى تحصل له الطمأنينة بأنه الله سبحانه وتعالى هو المبدع لكل ذلك الذي أنشأه من العدم، فيطمئن قلبه بربه سبحانه وتسكن نفسه إليه سبحانه وتعالى كامل الإيمان بحقيقة التوحيد، مصدقا بالغيب الذي أخبر الله تعالى عنه من كمالاته الذاتية وأسمائه وصفاته، وما أعده لعباده الصالحين من النعيم المقيم وما أعده للكافرين الظالمين من العذاب الأليم .

الفكر في آلاء الله موصل إلى السعادة الأبدية فإن الفكر في تلك الآثار الكونية يدل على أنها مبدعة محدثة، خصوصا إذا فكر في تلك الأجرام السماوية العظام وإبداع صنعتها، وفي نفسه وما أحاط به وما فيها من غرائب الحكمة وبدائع القدرة مما تكل الأفهام عن إدراك بعض عجائبه، تحقق عظمة شأن الصانع وكبرياء سلطانه، لأن أكمل فكر وأصفى عقل يعجز عن إدراك أسرار الآيات الظاهرة ويندهش العقل عند ظهور بعض حكمها، وما هي عليه من كمال النظام والترتيب العجيب، فسبحان من لا يعلم قدره غيره ولا يبلغ الواصفون صفته .

فإذا كان الفكر في الآلاء عجز عن كشف أسرارها وعن نسب مراتبها، فكيف يتسنى للفكر أن يتفكر في حقيقة الصانع البديع الخلاق العظيم؟! عن النبي ﴿ﷺ وآله﴾: « بينا رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال: أشهد أن لك رباً وخالقاً، اللهم أغفر لي، فنظر الله إليه فغفر له » وقال عليه الصلاة والسلام: « لا عبادة كالتفكر » هذا والفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية، وما جليت القلوب بمثل الأحزان ولا استنارت بمثل الفكر، قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾:« تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذات الله» .

ولما كان لابد لمن يريد أن يتفكر في آلاء الله من أن يعرف ما أحاط به من الكائنات،فاستحسنت أن أعرِّف ما لابد للتفكر منه بقدر ما يناسب عقل المسترشد، وقبل التعاريف أذكر تلك الآبيات الحاثة على الفكر في آلاء الله، والمبينة لما اختص به الإنسان من حيث هو إنسان ذكرى لمن كان له قلب :

زجَّ بالفكرِ في شئون المعاني ... بيقين محصنٍ بالأمان
تتجلى من الشئون شموس ... مشرقات بنورها الرباني
لا تجاوز تلك الشئون بفكر ... فالمعاني جلت عن الإمكان
ورياض التفكير تلك المرائى ... وهو كنز طِلَّسْمُه بالمبانى
ودع القلب للمقلب يجلى ... فيه ما شاء من شهود بيان
وإلى الله فِرَّ بالحول منه ... بسكونٍ لا حيرة وافتتان
ودع الحول للمحول واسكن ... مطمئنا بالواحد الصمدانى
فمعاني الصفاتِ غيبٌ عليٌّ ... لا تراه القلوب والعينان
عد عن فكرك المقيد وارحل ... عن موازين عقلك الإنسانى
وبنورِ اليقينِ فاسكن إلى الله ... بصدق تفُزْ بالرَّوْحِ والريحان
ما توهَمته بميزان كسب ... فهو مهواة حاطبٍ حيران
نَزِّه الذاتَ والمعاني عن الفكر ... وجُلْ في سائر الأركان
جلت الذاتُ والمعاني تعالت ... هي غيبٌ والكونُ أى البيان
من يمت يحي باقيا بحياة ... وبقاء منعما بالعيان
يحيى بالله سامعا وبصيرا ... يَبْقَ بالله في مقام التدانى
ذاك سرٌّ عن دركه كل عقل ... مبعد بالحدود والإمكان
وشهودي معاى محوٌ وجودي ... بانبلاج المعنى وحجب المبانى
عندها الظاهرُ القريبُ تعالى ... بالتجلي منزهٌ عن ثان
أنا أفقُ الأنوارِ سرُّ التجلي ... فِيَّ آي من الجمال المصان
في أضاءت ولي تراءت بنفسي ... وبعجزي علمي به إيقانى

تعاريف تلزم لمن ذاق حلاوة الفكر في الآيات:

السالك طريق الله تعالى عليه أن يحصل على ما لابد له منه مما أوجبه الله تعالى عليه، من معرفته سبحانه، ومعرفة رسله وملائكته وكتبه وما أخبر عنه، ومعرفة آياته الدالة على بديع صنعه وعجيب قدرته ولطيف حكمته، حتى يكون سالكا على منهج سيدنا ومولانا رسول الله ﴿ﷺوآله﴾، ويعرف ما أوجبه عليه من الأعمال والأخلاق والمعاملات ليكمل كمالا يجعله باقيا أبدا مع النبيين والصديقين والشهداء، محفوظا من النقص المؤدي إلى عذاب الله ومقته وسخطه. ولما كانت تلك الواجبات كلها أتى بها القرآن الكريم وبينها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بيانا اطمأنت به النفوس الزكية وثلجت به القلوب السليمة، وكانت الآيات الحاثة على الفكر قد وردت في الكتاب العزيز مفصلة ومجملة في مواضيع كثيرة خصوصا التفكر في النفس وفيما في السموات والأرض وفي الأفلاك والسحب والهواء والحيوانات والنباتات والجبال وأنواعها، كان ولابد للسالك أن يحيط علما بتعريف كل نوع حتى يمكن أن يجول بنفسه المفكرة في أسراره المنطوية فيه وآياته الظاهرة، ليعلم من قدرة ربه تعالى ما يجعله موحداً، ومن حكمته سبحانه ما يجعله مسلما، ولما كان الرسول ﴿ﷺ وآله﴾ هو شمس تلك الأسرار المضيئة على القلوب والأبدان، والشراب الطهور للنفوس والأرواح، والنور المبين سبل الحق ومناهجه، لزم لطالب النجاة أن يعتصم بهديه ﴿ﷺ وآله﴾ ويتحصن بسنته صلوات الله وسلامه عليه، والعلماء ورثته ﴿ﷺ وآله﴾ لكل منهم قسط من أنواره، والحكماء أكمل الناس في التجمل بحلل الوراثة، والحكيم هو الذي يوجد فيه سبع خصال محمودة: أحدها أن تكون أفعاله محكمة، وصنائعه متقنة، وأقاويله صادقه، وأخلاقه جميلة، وآراؤه صحيحة، وأعماله زكية، وعلومه حقيقية.

قاعدة لمعرفة الكائنات المحيطة بنا:

معلوم أن معرفة حقيقة الأشياء هي معرفة حدودها ورسومها وذلك أن الأشياء كلها نوعان : مركبات وبسائط .

فأما المركبات فتعرف حقائقها إذا عرفت الأشياء التي هي مركبة منها، والبسائط تعرف حقائقها إذا عرفت الصفات التي تخصها.

مثال ذلك: إذا قيل لك: ما حقيقته (الطين)؟ فيقال: ماء وتراب مختلطان (والسكنجبين) فيقال: عسل وخل ممزوجان، (والسرير) خشب وصورة مركبان، (والكلام) ألفاظ ومعان مؤلفان، (واللحن) نغمات حادة وغليظة متحدان، (والحيوان) نفس وجسد مقرونان.

وعلى هذا القياس تجيب إذا سئلت عن هذه الأشياء المركبة، إذاً لابد من ذكر تلك الأشياء التي هي مركبة ومؤلفة منها، فأما الأشياء البسيطة فتعرف حقائقها إذا عرفت الصفات التي تخصها .

مثال ذلك: إذا قيل لك: ما (الجسم المطلق) فيقال: جوهر بسيط قابل للصورة، فإن قيل: ما (الصورة)؟ فيقال: ماهية الشيء وله الاسم والعقل والقيمة، فإن قيل: فما (الجوهر)؟ فيقال: هو القائم بنفسه القابل للصفات، فإن قيل: فما (الصفة)؟ فيقال: عرض حال في الجوهر لا كالجزء منه، فإن قيل: ما (الشيء)؟ فيقال: هو المعنى الذي يعلم ويخبر عنه، فإن قيل: ما (الموجود)؟ قيل: هو الذي وجده أحد الحواس أو تصوره العقل أو دل عليه الدليل. فإن قيل: ما (المعدوم)؟ فيقال: ما قابل هذه الأشياء المذكورة في الوجود، فإن قيل: ما (المحدث)؟ فيقال: ما كونه غيره، فإن قيل: ما (الإحداث)؟ فيقال: تكوين المكون، فإن قيل: ما (العالم)؟ فيقال: هو المتصور للشيء على حقيقته، فإن قيل ما (العلم)؟ فيقال: صورة المعلوم في نفس العالم، فإن قيل: ما (الحي)؟ فيقال: المتحرك بذاته .

فإن قيل: ما (القادر)؟ فيقال: هو الذى لا يتعذر عليه الفعل متى شاء، فإن قيل: ما (الفعل)؟ فيقال: أثر من مؤثر في مؤثر فيه، فإن قيل: ما معنى (الباري تعالى)؟ فيقال: مبدع المبدعات ومخترع الكائنات ومتقنها ومتممها ومكملها ومبلغها إلى أقصى مدى غاياتها ومنتهي نهاياتها بحسب ما يتأتى في كل واحد منها .

فإن قيل: ما (القدرة)؟ فيقال: إمكان إيجاد الفعل، فإن قيل: ما (الصنعة)؟ فيقال: هو إخراج الصانع من فكره ووضعه في الجسم، فإن قيل: ما (المصنوع)؟ فيقال: مركب من جسم وصورة.

فإن قيل: ما (العقل الأول)؟ فيقال: هو أول مبدع أبدعه الله تعالى وهو جوهر نورانى، وقد ورد في حديث: (أول ما خلق الله تعالى العقل) وورد (أول ما خلق الله نور نبيك من نوره) فيظهر أن العقل الأول هو نور رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾.

(النفس) هي جوهرة روحانية حية علامة فعالة بإذن الله تعالى. (الإرادة) هي إشارة بالوهم إلى تكوين أمر ممكن كونه وكون خلافه لتخصيص أحدهما. (العقل الإنساني) هو التمييز الذي يخص كل واحد من أشخاصه دون سائر الحيوانات.

(الجنس) هي صفة جماعة مختلفة الصور يعمها معنى واحد. (النوع) هي صفة جماعة متفقة بالصورة يعمها معنى واحد. (الشخص) هو كل جملة يشار إليها دون غيرها مميزة من غيرها بالأفعال والصور. (الخاصة) هي صفة مخصوصة بطيئة التحول. (النور) هو جوهر مرئي يضيء من ذاته ويرى به غيره. (الظلمة) هي عدم النور عن الذات القابلة للنور .

(النهار) هو ضوء الشمس. (الليل) هو ظل الأرض. (الحرارة) غليان أجزاء المادة. (البرودة) جمود أجزاء الجسم المادي . (الرطوبة) سيلان أجزاء المادة.

(اليبوسة) تماسك أجزائها. (اللون) بروق شعاعات الأجسام. (الرائحة) أبخرة ذوات كيفيات تحلل من الأجزاء المركبة. (الصوت) قرع في الهواء من تصادم الأجسام. (الكون) قبول الجسم صورته وخروجه من حيز العدم. (الزيـــادة) تباعـــد نهايـــات الشـــيء و (النقصان) تقاربها. (التغير) تبدل الصفات على الموصوف.

(والنقلة) خروج من مكان إلى مكان. (المكان) كل موضع تمكن فيـــه المـــتمكن وهـــو نهايات الجسم. (الزمان) عدد حركات الفلك وتكرار الليل والنهار. (الفلك) هو جسم شفاف كروي محيط بالعالم. (العالم) جميع الموجودات المتكونات التي يحويهـــا الفلـــك. (الكواكب) هي أجسام منيرة مستديرة. (الجسم) هو ماله طول وعرض وعمق. (الجسم الشفاف) هو كل جسم يرى ما وراءه .

(النار) هي نير حار يبدد الأشياء ويفرق أجزاءها ويردها إلى ذاتها البسيطة. (الهواء) هو جسم لطيف خفيف سيال شفاف سريع الحركة إلى الجهات الست.(الجهات الست) هي فوق وتحت وغرب وشمال وجنوب وشرق. (الماء) هو جسم سيال قـــد أحـــاط حـــول الأرض.

(الأرض) هي جسم غليظ أغلظ ما يكون من الأجسام وتواقعت في مركز العالم. (الزبد) هو ماء وهواء. (الرياح) هو تموج الهواء وسيلانه إلى إحدى الجهات. (الأثـــير) هـــو الهواء الحار الذي يليه فلك القمر. (النسيم) هو الهواء المعتدل الذي يلي وجه الأرض. (الزمهرير) هو الهواء الذي فوق كرة النسيم ودون الأثير وهو بـــارد مفـــرط الـــبرودة. (الشعاع) هو نور الشمس والقمر والكواكب السيارة في الهـــواء نحـــو مركـــز الأرض. (إنعكاس الشعاع) هو رجوع تلك الأنوار من سطح الأرض والبحار والأنهار والجبـــال في الهواء. (البخار) هو أجزاء مائية رطبة ترتفع عند غليان الماء فتتحرك به الآلات والأدوات لنفع العالم. (الدخان) هو أجزاء أرضية لطيفة ترتفع في الهواء مع الحرارة.

(الغيم والسحاب) هما الأجزاء المائية إذا كثرت في الهواء وتراكمت. الغيم منها هو الرقيق والسحاب هو المتراكم. (المطر) هو تلك الأجزاء المائية إذا التأم بعضها مع بعض وبردت

وثقلت ورجعت نحو الأرض. (الرياح) هي تلك الأجزاء الأرضية إذا بردت ورجعت نحو مركزها. (البرق) هو النار تنقدح من احتكاك تلك الأجزاء الدخانية في جوف السحاب. (الرعد) هو الصوت الذي يدور في جوف السحاب ويطلب الخروج. (الصاعقة) هي صوت يحدث من خروج تلك الرياح دفعة واحدة مع تلك البروق من اتحاد الكهربائية الجوية. (الصوت) هو قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجسام بعضها مع بعض. (الضباب) هو البخار الرطب يثور من وجه الأرض يعقب الأمطار. (الهالة) هي دائرة تحدث فوق سطح الغيم من انعكاس شعاع الشمس والقمر والكواكب. (قوس قزح) هو نصف محيط تلك الدائرة إذا حدثت في كرة النسيم ملونة بألوان متناهية في أعلاها الحمرة والصفرة دونها، والخضرة دون الاصفرار والزرقة دون الخضرة.

(الثلوج) قطر صغار تجمد في خلل الغيم تنزل برفق. (البرد) هو قطر تجمد في الهواء بعد خروجها من سمك السحاب. (السيول) هي مياه أودية تجري من كثرة الأمطار. (زيادة الأنهار) هي من ماء العيون الذى ينزل من أصول الجبال فينصب ويجري في بطون الأودية، وزيادتها من كثرة السيول.

(الزلزال) هي حركة بعض بقاع الأرض من أبخرة ناتجة عن انفعالات في جوف الأرض محبوسة، تلك الأبخرة تريد الصعود. (الجبال) هي أوتاد الأرض وبها تتغير مجاري الرياح وتمد الأنهار بالمياه التي تستودع فيها من الأمطار وتجمد على رؤوسها ثم تجري سيولا. (الجزائر) هي بقاع من الأرض في وسط البحار. (البرارى) هي بقاع من الأرض ليس فيها نبات ولا بناء. (الآجام والبطائح) هي بقاع فيها مياه ونبات. (الغدران) هي مواضع يجتمع فيها مياه الأمطار.

(الأرض) هي جسم كروي الشكل وقفت في الهواء بإذن الله تعالى بجميع ما عليها من الجبال والبحار. (الهواء) هو محيط بالأرض من جميع الجهات. (الفلك) هو محيط بالهواء مثل ذلك. (مركز الأرض) هي نقطة في وسط عمقها ومن تلك النقطة إلى ظاهر سطح

الأرض ثلاثة ونصف من اثنين وعشرين من المحيط ٣,٥ من ٢٢ من المحيط. (البحار) هي مستنقعات على وجه الأرض حاجزة للمياه المجتمعة فيها .

(زيادة البحر) هي انصباب مياه الأنهار والأودية فيها، فإن قيل: ما العلة في مد بحر فارس وجزره في اليوم والليلة؟ يقال: علة كون المد عند طلوع القمر فإنه يؤثر في غليان أجزاء المياه في قعره وثوران انتفاخها ورجوع تلك الأنهار المنصبة إلى خلف فيظهر المد فعله، كون الجزر هي عند مغيب القمر ورجوع تلك الأجزاء إلى قرارها ويؤثر بإزالة الغليان والفوران والانتفاخ السكوب فيظهر الجزر. العلة في أن مياه البحار كلها مالحة مرة غليظة ومياه الأمطار وأكثر الآبار عذبة لطيفة، لأن الحكمة الإلهية اقتضت حفظ الماء من التغير والتعفن فمزجته بالملح ليكون خزانة يصرف منه على عباده في كل سنة القدر الذي أراده بالأمطار ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ الحجر: ٢١ ولولا ذلك لتعفن الماء وأهلك العالم كله.

(الطبائع الأربعة) هي البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة. (الأركان الأربعة) هي النار والهواء والماء والأرض. (الأخلاط الأربعة) هي الصفراء والسوداء والدم والبلغم.

(المولدات الكائنة) هي المعادن والنباتات والحيوان. (المعادن) هي ما يكون في عمق الأرض من الجواهر وغيرها مما يجري مجرى الموات. (النبات) هو الظاهر على وجه الأرض من نبات الأشجار. (الحيوان) هو كل جسم متحرك حساس مؤلف من نفس حيوانية وبدن موات. وتقويمها على ضربين فمنها ما يتكون ويتولد في الرحم، ومنها ما تخرجه البيض، ومنها ما يتولد من أشياء، ومنها ما يجتمع من الطرفين يتوالد ويتولد.

(الإرادة) هي إشارة بالوهم إلى تكوّن شيء ما يمكن كون ذلك ويمكن كون غيره. (القدرة) هي إمكان شيء من الأفعال اختيارا. (الاختيار) هو قبول أحد الأمرين بالوهم من ذوات الباطن وذوات الظاهر بالحس.

(الجهل) هو تصور الشيء بغير صورته. (الاعتقاد) هو عقد الاحتمال على تحقيق شيء. (الوهم) هو قوة من قوى النفس الحيوانية متخيلة بها الأشياء .

(الإيمان) هو التصديق بما يخبر به المخبر. (الإسلام) هو التسليم بلا اعتراض. (الطاعة) هي من جماعة لرئيس ينتظر منه نيل الجزاء. (الكفر) هو الغطاء. (الشرك) إثبات ربوبية اثنين. (الجحود) هو إنكار الحق. (المعصية) هو الخروج عن الطاعة. (الطاعة) هي الانقياد لأمر الآمر ونهي الناهي .

(الميعاد) هو رجوع الخلق إلى النعيم أو إلى العذاب. (الثواب) هو ما يجعل لكل نفس من السعادة والراحة واللذة والسرور والفرح بعد الموت. (العقاب) هو ما ينال الإنسان من الحزن والآلام والخوف بعد الموت وكل إنسان بحسب ما اكتسب من الخير والشر والله غفور رحيم.

(المعروف) هو كل فعل لم تنه عنه الشريعة والسنة وجرت به العادة. (المنكر) ما نهت عنه الشريعة ولم تجر به السنة ولا العادة. (أجرة الأجير) هو جزاء لما يستحق كل عامل بما يعمله. (الشكل) صورة جسمانية. (اللون) صورة روحانية. (النبات) هو كل جسم يتغذى وينمو.(والحيوان) كل جسم متحرك حساس. (والإنسان) حي ناطق، وهو جملة مركبة من نفس ناطقة وبدن مائت. (والجسم) جوهر لطيف طويل عريض عميق. (اللفظ) كل صوت له هجاء. (والكلام) كل لفظ يدل على معنى.

(الصدق) هو إيجاب صفة لموصوف هي له أو سلب صفة عن موصوف ليست له. (الكذب) هو عكس ذلك، ويقال أيضاً: الصدق والكذب في الأقاويل، والصواب والخطأ في الضمائر، والخير والشر في الأفعال، والحق والباطل في الأحكام، والضر والنفع في الأشياء المحسوسة.

(الدنيا) هي مدة بقاء النفس مع الجسد إلى وقت افتراقها الذي يسمى الموت. (المـــوت) هو ترك النفس استعمال البدن. (الآخرة) هي نشأة ثانية بعد الموت، ويقال أيضاً: الموت هو بقاء النفس بعد مفارقة الجسد وخلوها عنه في عالمها. (الجنة) هي عالم المتقين. (جهنم) عالم الكفار والفجار. (الجنة) هي المرتبة العليا. (جهنم) هي المرتبة السفلى. (البعث) هو رجوع الأرواح للأشباح وانتباهها للقيامة. (النوم) هو اشتغال النفس عـــن الجســـد بغيره مع شمول عنايتها به. (القيامة) هي قيام النفس والجسد من دور البرزخ. (الحشر) هو جمع الخلق للحساب والجزاء. (الحساب) هو عرض الأعمال على العمال أمام الحق. (الصراط) هو طريق مستقيم قاصد إلى الله تعالى، وهو المـــبين في الكتـــاب والســـنة وفى الآخرة طريق على متـــن جهنم يمر عليه الناس.

(الألوان المفردة) هي البياض والسواد والحمرة والصفرة والخضرة والزرقـــة والمكـــدرة. (الطعوم) تسعة أنواع وهى: العفوصة، والقبوضة، والحموضـــة، والحـــلاوة، والملوحـــة، والمرارة، والحرافة، والمزوزة، والدسومة.

الفصل الثاني

الإيمان

الفرق بين العلم والإيمان:

إن الله تعالى قد أكثر ذكر المؤمنين في القرآن بالمدح والثناء الجميل عليهم ووعدهم الثواب الجزيل في الدنيا والآخرة جميعا، وهكذا أيضا قد أكثر ذكر الكافرين بسوء الثناء عليهم والزجر والتهديد والوعيد في الدنيا والآخرة جميعا. فنريد أن نبين من المؤمن حقا ومن الكافر حقا؟ إذ كان هذا أمراً قد التبس على كثير من أهل العلم، حتى صار يكفِّر بعضهم بعضا، ويلعن بعضهم بعضا بغير علم ولا بيان. لكن من أجل أن كثيرا من أهل العلم لا يعرفون الفرق بين العلم والإيمان، احتجنا أن نبين ما الفرق بينهما؟ وذلك أن كثيرا من المتكلمين يسمون الإيمان علما، ويقولون هو علم من طريق السمع وما يعلم بالقياس فهو علم من طريق العقل. فأريد أن أبين حقيقة العلم.

لما كان المعلوم لا يكون علما للنفس إلا إذا تصورت النفس رسوم هذا المعلوم في ذاتها، فالعلم هو تصور النفس رسوم المعلوم في ذاتها.

ولما كانت أخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام عن الله تعالى، بما يجب على الناس أن يصدقوا به من معاني الكمالات الإلهية وتنزيه ذاته عز وجل وما وصف به نفسه سبحانه وتعالى، لا يمكن للنفوس أن تتصور رسومه وتتبين معانيه قبل الإقرار والتصديق وتزكية النفس وتطهيرها من كثافة الجهل وظلمات العقائد الباطلة، والآراء الفاسدة والآمال المبعدة، والحظوظ والأهواء، كان الإيمان هو الإقرار والتصديق بدون تصور رسوم المعلوم في ذات النفس.

وبذلك يظهر التفاوت بين العلم والإيمان. ومن أجل هذا دعت الأنبياء أممهم إلى الإقرار أولا، ثم طالبوهم بالتصديق بعد البيان، ثم حثوهم على طلب المعارف الحقيقية بدليل قول

الله تعالى عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ البقـرة: ٣ ولم يقل: يؤمنون بالشهود، ثم حثهم على طلب العلم بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ المائـدة: ١٠٠و ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ الحشـر: ٢ثم مدح فقال: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ المجادلة: ١١. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ الروم: ٥٦ وكفى بهذا فرقا بين العلم والإيمان .

فيجب أن أبين شرائط الإيمان وصفات المؤمنين ليعلم كل إنسان هل هو مؤمن حقا أو شاك مرتاب؟ لأن المؤمنين هم ورثة الأنبياء وتلاميذهم، وأن الأنبياء لم يورثوا دراهم ودنانير بـل ورثوا هديا وعلما وعبادة، فمن أخذ بـهـا فقد نال حظا جزيلا كما ذكر الله جل ثنـاؤه: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ فـاطر: ٣٢. وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الجمعة: ٤.

حقيقة العلم والإيمان :

أريد أن أبين حقيقة العلم والإيمان فأقول: إن العلم هو صورة المعلوم في نفس العالم، والإيمان هو التصديق لمن هو أعلم منك بما يخبرك عما لا تعلم. واعلم أنه رُب صورة في نفس العالم ليس لها وجود في الكون المحسوس، فنحتاج أن ننظر في هذا الباب نظرا شافيا، فإن الشك يدخل الشبه على العلماء من هذا الباب.

وأما الإيمان فهو التصديق للمخبر فيما قال وأخبر عنه، ولكن رُب مخبر بخلاف ما في نفسه فيكون كذابا إن كان قاصدا لذلك، ورب مصدق أيضا لكاذب، وهذا أيضا يحتاج إلى نظر شاف، لأن الشبهة تدخل على القائلين والمستمعين في هذا الباب.

نتائج الإيمان:

اعلم أيها السالك المسترشد أن الإيمان يورث العلم، لأنه متقدم الوجود على العلم، ومن أجل هذا دعت الأنبياء عليهم السلام الأمم إلى الإقرار بما أخبرتهم، والتصديق بما كان غائبا عنهم عن إدراك حواسهم وتصور أوهامهم، فإذا أقروا بألسنتهم سموهم عند ذلك المؤمنين، ثم طالبوهم بتصديق القلب كما ذكر الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ التغابن: ١١ فإذا وقع التصديق بالقلب سموهم الصديقين، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الزمر: ٣٣.

أول الإيمان:

هو تصديق الأنبياء للملائكة فيما يخبرونهم عنه مما هو فوق إدراك النفوس البشرية الزكية قبل أن تخبرهم الملائكة، فالتصديق بأخبار الملائكة من الرسل عليهم الصلاة والسلام أول الإيمان، وذلك قبل أن تخبرهم الملائكة، فالتصديق سابق عن الخبر كما قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ البقرة: ٢٨٥ الخ .

واعلم أن الملائكة محتاجون إلى الإيمان فهم متفاوتون في درجات العلوم، كما أخبر الله تعالى عنهم فقال: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الصافات: ١٦٤ لأن أشرف الملائكة حملة العرش الذين هم في أعلى المقامات في العلوم، وهم أيضا محتاجون إلى الإيمان كما أخبر عنهم سبحانه فقال جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ غافر: ٧.

وأنت أيها الراغب في السعادة محتاج إلى الإيمان والتصديق بقول المخبر لك الذي هو فوقك في العلم وأعلى منك في المعارف، لأنك إن لم تؤمن بما يخبرك به حرمت أشرف العلوم وأجل المعارف، وأعلم أنه ليس لك طريق إلى تصديق المخبر لك في أول الأمر إلا حسن الظن

بصدقه، ثم على مر الأزمان تظهر لك حقيقة ذلك، فلا تطالبه بالبرهان في أوله، ولكن سلم له وذق من لطيف عبارته وجميل إشارته وعليِّ أحواله وشريف أعماله، ما به تتروح روحك وتزكو نفسك، وينكشف لبصيرتك صدق ما يقول وحقيقة ما يفعله، والله الموفق لك.

تفاوت المؤمنين:

إن القرآن الكريم بيَّن أن المؤمنين درجات، وأن أهل العلم درجات، لأن الإنسان لا يبلغ درجة في العلم إلا ويلوح له فوقها درجات لم يبلغها بعد كما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يوسف: ٧٦ فهو من أجل هذا يحتاج إلى الإقرار به والتصديق بقول من هو أعرف وأعلم منه، وإذ قد بان لك فضل العالم والمؤمن، والعلم والإيمان، لزم لنا أن نبين أنواع الناس بالنسبة للعلم والإيمان.

أنواع الناس:

أنواع الناس بالنسبة للمعارف أربعة:

١- نوع رزق العلم ولم يرزق الإيمان.

٢- ونوع رزق الإيمان ولم يرزق العلم.

٣- وفريق قد وفر حظه منهما جميعا فضلا من الله تعالى.

٤- وفريق حرم العلم والإيمان.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الروم: ٥٦ فأخبر سبحانه بهذا عن أشرفهم في المعارف، إذ كان علم البعث والقيامة من أشرف العلوم.

وأما الذين أوتوا الإيمان ولم يرزقوا العلم فهم المقرُّون بما في كتب الأنبياء عليهم السلام من أخبار البعث وأمر المبدأ والمعاد، وأحوال الملائكة ومقاماتهم، وحديث البعث والقيامة، والحشر والنشر والحساب والميزان والصراط، وجزاء الأعمال في النشأة الآخرة، ونعيم

الجنان وما شاكلها من الأمور الغائبة عن الحواس، البعيدة من تصور الأوهام. وهم مع قلة عملهم ساكنة نفوسهم لما أخبرت به الأنبياء، وما أشاروا به من الثواب في الميعاد ونعيم الجنان. ومصدقون لهم في السر والإعلان، راغبون فيها طالبون لها عاملون من أجلها، ولكنهم تاركون البحث عنها والتشوف لها والنظر في حقائقها، كيف وأين ومتى ولم ؟؟ وإليهم أشار بقوله: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ الواقعة: ٩١ لهم الأمن واليمن والأمان والإيمان.

وأما الذين رزقوا حظا من العلم ولم يرزقوا الإيمان، فهم طائفة من الناس نظروا في كتب الفلاسفة والحكماء وبحثوا عنها وارتاضوا بما فيها من الهندسة والتنجيم والطب والمنطق والجدل والطبيعيات وما شاكلها، فأعجبوا بها وتركوا النظر في كتب القرآن الشريف والسنة، والبحث عن أسرار الحكم والأحكام الشرعية والكشف عن خفيات مرموزات الآيات القرآنية والإشارات النبوية، فعميت عليهم الأنباء وانطمست بصيرتهم، فهم شاكون في حقائقها، ومتحيرون في معرفة معانيها، جاهلون بلطيف أسرارها، غافلون عن عظيم شأنها، وإليهم أشار بقوله تعالى: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ غافر: ٨٣.

وأما الذين حرموا العلم والإيمان جميعا من طائفة من الذين أترفوا في هذه الحياة الدنيا، وهم مشغولون الليل والنهار في طلب شهواتها، مغرورون بعاجل حلاوات لذات نعيمها، تاركون لطلب الآداب معرضون عن العلم وأهله، غافلون عن أمر الديانات وأحكام الشرائع ومفروضات السنن، التي الغرض منها نجاة النفس وطلب الآخرة، وإليهم أشار بقوله تعالى:

﴿وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ المؤمنون: ٣٣ وقال سبحانه وتعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ الحجر: ٣. وقال تعالى: ﴿وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ محمد: ١٢.

فأما الذين أوتوا من العلم والإيمان حظا جزيلا، فهم إخواننا المتقون الذين يخشون الله، والذين إليهم أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ المجادلة: ١١ وقد بيّنا عن مذهبهم وأخلاقهم وآرائهم فيما كتبناه من العقائد والأخلاق والمعاملات، فانظروا فيها أيها الراغبون نوال الحظوة، فلعلكم بفهم معانيها والعمل بها – بمعونة الله وحسن التوفيق وبروح منه – تكونون من أهل المشاهد القدسية والدرجات العلية، وتهتدون لطريق ملكوت السماء وتنظرون إلى الملأ الأعلى، وتساقون إلى الجنة زمرا.

شروط الإيمان وخصال المؤمنين

إذا علم الإنسان شرائط الإيمان وخصال المؤمنين، علم ما الإيمان ويعرف من المؤمن بالحقيقة.

الإيمان مقول على نوعين: ظاهر وباطن.

الإيمان الظاهر: هو الإقرار باللسان بستة أشياء:

(أ) الإقرار بأن للعالم صانعا واحدا، حيا قادراً، حكيماً أحدا، صمداً عالما، مريداً مدبراً، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، غنيا بذاته عن المكان والزمان، منزها عن الكم والكيف والنظير والند والضد، عليا عن الإدراك إذ لا يعلم حقيقته إلا هو وحده سبحانه، وهو الله خالق الخلق كلهم ومدبرهم لا شريك له في ذلك .

(ب) الإقرار بأن له ملائكة صفوة الله من خلقه، أقامهم لعبادته وطاعته وجعلهم حفظة لخلقه، ووكل كل طائفة بالقيام بشأن مما قدره ودبره وأراده من شئونه، التي يبديها في خلقه ولا يبتديها في عالم سماواته وأرضه ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ التحريم: ٦.

(جـ) الإقرار بأنه قد اصطفى صفوة من بني آدم، وهم رسله وأمناؤه الذين يبلغون الناس كلامه سبحانه المنزل عليهم، ويدعونهم إلى توحيده سبحانه والعمل بما أمر.

(ء) الإقرار بأن هذه الأشياء التي جاءت بها الأنبياء عليهم السلام من الوصايا والأنباء باللغات المختلفة، منزلة معانيها من الله سبحانه وتعالى وحيا أوحى الله به إليهم بطرق الوحى المعلومة شرعا وثبتت عقلا.

(هـ) الإقرار بأن القيامة لا محالة كائنة وهي النشأة الآخرة، وأن الخلق كلهم يبعثون ويحشرون ويحاسبون ويثابون بما عملوا من خير ومعروف، ويجازون بما عملوا من شر ومنكر، أو يغفر الله وهو الغفور الرحيم، وذلك قول الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ البقرة: ٢٨٥. وقال: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ البقرة: ٦٢.

(و) ويكمل الإيمان الظاهر بأن يقر المؤمن بأن سيدنا ومولانا محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ خاتم الرسل وخيرهم، وأن كتابه مهيمن على جميع الكتب، وأن الدلائل والبراهين التي أقامها الله تعالى في القرآن تكفي لمن سلم قلبه من العناد وطهرت نفسه من الخبث، أن يتحقق أنه رسول الله، وأن القرآن كلام الله، وأن من لم يؤمن به ﴿ﷺ وآله﴾ كافر، وأن القضاء والقدر خيره وشره من الله تقديرا وإرادة وإيجادا، وأن التكلم فيه بدون علم وتسليم ربما أدى إلى سلب الإيمان، ولا يكمل الإيمان الظاهر إلا بالعمل على قدر الاستطاعة بما أمر الله به، والنهي مطلقا عما نهي الله عنه إلا لضرورة شرعية.

ومجموع هذا هو الإيمان الظاهر الذي دعت الأنبياء عليهم السلام الأمم المنكرة لهذه الأشياء إلى الإقرار بها، وهو يؤخذ تلقينا كما يتلقن الصغار من الكبار والجهال من العلماء.

الإيمان الباطن:

عقد القلب على اليقين الحق بما أقر به لسانه فهذا هو حقيقة الإيمان، بحيث يكـــون عقـــد القلب كعقد قلب من شهد بعينيي رأسه عقدا لا يعتريه شك ولا ريب.

المؤمن ظاهرا:

هو المقر بـــهذه الأشياء بلسانه، المتميز من اليهود ومن النصارى والصابئين والمجوس والذين أشركوا، وبـــهذا الإقرار يجرى عليه أحكام المسلمين من الصلاة والزكاة والحج والصوم وما شاكلها من مفروضات شريعة الإسلام وسنة المؤمنين.

المؤمن ظاهرا وباطنا:

أما الذين مدحهم الله في كتبه ووعدهم الجنة، فهم الذين يتيقنون بضمائر قلوبـــهم حقائق هذه الأشياء المقر بـــها، وأما الطريق إليه سبحانه فهو بالتفكر والاعتبار والقيام بشـــرائطها وواجب حقها كما قال الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ البقرة: ٢١٤.

أولا: التوكل على الله

منها التوكل على الله كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ المائدة: ٢٣ وقال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ الفرقان: ٥٨ وأريد أن أبين ما التوكل ومن المتوكل على الله بالحقيقة ؟؟ .

اعلم يا أخي أن التوكل هو الاعتماد على الغير عند الحاجة بأن ينوب عنك فيها، واعلم أنه إذا كان المتوكلّ عليه ثقة يكون قلب المتوكِّل عليه ساكنا ونفسه مطمئنة، وإذا كان غير ثقة يكون قلب المتوكل عليه غير ساكن ونفسه غير مطمئنة.

واعلم يا أخي أن الناس كلهم متوكلون ولكن أكثر توكلهم على غير الله، من ذلك توكل الصبيان على آبائهم فيما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس وغيرها من الحاجات، فهم طول النهار مشغولون باللعب لا يفكرون في أمر المعاش ولا يهمهم طلبه لاتكالهم على آبائهم وقلوبهم ساكنة ونفوسهم هادئة ليقينهم بآبائهم، وهكذا العبيد مشتغلون بخدمة مواليهم لا يفكرون في طلب المعاش اتكالا على مواليهم فيما يحتاجون إليه، وهكذا جنود السلطان وخدمه لا يفكرون في طلب المعاش اتكالا على السلطان في أرزاقهم المفروضة لهم، فهم مشتغلون في خدمة سلطانهم.

وأما غير هؤلاء من الناس فهم طائفتان: الأغنياء والفقراء، فأما الأغنياء فاتكالهم على ذخائرهم وأموالهم وقلوبهم ساكنة ونفوسهم هادئة، ولكن الحرص والرغبة والطمع في الزيادة تحثهم على الطلب، وهم في الطلب متوكلون على رأس أموالهم وحرفهم وحذقهم بالبيع والشراء في طلب الربح، وأما الفقراء فهم الصناع الذين يعملون بأبدانهم واتكالهم على صناعتهم وقوة أبدانهم، وأما الكذابون فاتكالهم على الناس في مواساتهم من فضل ما في أيديهم.

فبهذا الاعتبار لا تجد أحدا متوكلا على الله حسن التوكل إلا الأنبياء وصالح المؤمنين، وذلك أن الأنبياء قبل أن يوحى إليهم يكونون كأحد أبناء الدنيا في طلب المعيشة، حتى إذا جاءهم الوحي والنبوة تركوا طلب المعاش واشتغلوا بتبليغ الرسالة، ويتكلون على الله فيما يحتاجون إليه من عرض الدنيا، ويتيقنون به عز وجل وتطمئن به نفوسهم، لأنهم يعلمون ويتيقنون بأن مرسلهم يكفيهم ما يحتاجون إليه في طاعتهم إذا اشتغلوا في خدمته، كما أن الملوك يكفون جنودهم ما يحتاجون إليه في طاعتهم، هكذا المؤمنون المحققون الذين هم ورثة الأنبياء يقتدون بهم ويسلكون مسلكهم فيما دلهم الله عليه، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الأحزاب: ٢١ فالتوكل إذن أحد الخصال التي يتبين بها من المؤمن حقا .

ثانياً: الإخلاص في العمل والدعاء:

من أكمل البراهين على أن المؤمن كامل الإيمان ذائق حلاوة الإخلاص في العمل والدعاء لما أمر الله تعالى بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ غافر: ١٤ وقال تعالى: ﴿لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ البينة: ٥.

١- فالإخلاص في العمل: هو أن لا يطلب بما يعمل جزاءاً ولا شكوراً من أحد من خلق الله، مثل إخلاص الوالدين في تربيتهما الأولاد، فإنهما لا يطلبان جزاءاً ولا شكوراً لأنهما قد علما بأنها واجبة في الجبلة، ومثل إخلاص العبيد الصالحين الذين يخدمون مواليهم من غير خوف من الضرب ولا طلب للعوض، لأنهم قد علموا بأن خدمتهم هي شيء تقتضيها الحكمة، فالعبد الذي يخدم مولاه خوفا من الضرب أو طلبا للعوض عبد سوء، وهكذا من لا يطيع ربه إلا خوفا من النار أو رغبة في الأكل والشرب والجماع في الجنة فهو أيضا عبد سوء، والعبد السوء لا يكون مخلصا في الدعاء ولا في العمل .

٢- الإخلاص في الدعاء: لا يكون المؤمن مخلصا في دعائه حقيقة الإخلاص ما دام له تدبير وحول وقوة في دفع ما يدعو لكشفه، حتى يتحقق بالعجز عن دفعه بحوله وقوته وماله

وأهله والناس أجمعين، مثال ذلك ما يحصل لأهل السفينة فإنهم يدعون الله تعالى مع اعتمادهم على الربان (رئيس النواتية) وعلى الملاحين (النواتية) فإذا علاهم موج كالظلل وجزع الربان والملاحون ودهشوا عند ذلك يخلص الكل الدعاء لله، كما قال سبحانه وتعالى:

﴿ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ لقمان: ٣٢.

وقد يحصل الإخلاص الحقيقي في الدعاء للأفراد الذين كوشفوا بحقيقة التوحيد وتحققوا أن الضار والنافع هو الله، فإنهم لخشيتهم من الله لا يتحققون بنفع الأشياء النافعة ولا بضرر الأشياء الضارة، فهم يدعون الله مخلصين أن يدفع عنهم الضر ويمنحهم النفع، ولا تخلو الأحوال التي تصيب بني آدم في أبدانهم وأموالهم وأهليهم من الحكم الربانية فيفزعون إلى الله تعالى ويسألون العارف أن يدعو الله لهم فيكشف الله عنهم ما ألم بهم، فإن دعاء العارف يتلقنه الجاهل ويهدي النفوس إلى معرفته سبحانه، فيعلمون عند ذلك بنظرهم التجاء العقلاء في دعائهم وتضرعهم إلى الله تعالى، ليكشف عنهم ما هم فيه، أن لهم إلها جبارا عالما قادرا يسمع دعاءهم ويعلم ما هم فيه، وهو قادر على نجاتهم، يراهم وإن كانوا لا يرونه، ولا يدرون أين هو.

وعلى هذا القياس كل ما يصيب الناس من الجهد والبلاء، فيضطرهم ذلك إلى الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل، مثل الغلاء والوباء وآلام الأطفال ومصائب الأخيار وما شاكلها من الأمور السماوية التي لا سبيل لأحد في دفعها عنهم إلا الله تعالى، فيكون ذلك دلالة لهم على الله عز وجل، وهداية إليه كما قال سبحانه: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ النمل: ٦٢.

ثالثاً: الصبر

الصبر هو الصفة التي يتجمل بـها من عرف الله، ويتحلى بها من يرجو ثوابه وهي علامة اليقين وحصن المتقين، كما قيل: (الصبر رأس الإيمان) وقال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ النحل: ١٢٧. وقال للمؤمنين: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾ آل عمران: ٢٠٠ الآية.

واعلم يا أخي أن الصبر هو الثبات في حال الشدائد بلا جزع لما يرجى من محمود العاقبة، والصبر مشتق من مرارة الصبر.

واعلم يا أخي أن الناس أكثرهم يصبرون في الشدائد ولا يكون صبرهم بالله ولا لله، لأنهم يجزعون ويضطربون ويشكون ويظنون بالله ظن السوء كما قال الله تعالى في قصة المنافقين: ﴿وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴾ الفتح: ١٢ وذلك أن منهم من ظن أن تلك الشدائد التي أصابتهم جور منه إذ قضاها عليهم، ومن ظن أنه ليس من قضائه وحكمه، ومنهم من ظن أنه ليس يعلم ما هم عليه من الجهد والبلوى، ومنهم من يعلم أنه يعلمه ولكنه يظن أنه لا يفكر فيهم ولا يهمه أمرهم، ومنهم من يظن أنه قاسي القلب قليل الرحمة وما شاكلها من ظنون السوء.

فأما الأنبياء والمؤمنون فإنهم يصبرون في الشدائد والبلوى ويكون صبرهم بالله ولله، وذلك لأنهم يرون ويعتقدون أن الشدائد التي تصيب الخلق فيها ضروب من المصلحة لهم وإن كان يخفى على كثير من العقلاء ما تلك المصلحة والحكمة، كما بينا في باب الدعاء والإخلاص عند الشدائد، ومن حكمه في آلام النفوس الحيوانية دون غيرها من نفوس النباتات والجمادات، حكمة ذلك أن آلام نفوس الحيوانات رحمة من الله تعالى بها لتسارع إلى دفع الأمراض المسببة للألم لتحافظ على سلامة أجسادها من التلف والفساد.

رابعاً: الرضا بالقضاء والقدر

هو طيب النفس بما يجرى على الإنسان من المقادير، وجريان المقادير بالقضاء هو علم الله السابق بما رتبته القدرة وخصصته الإرادة فيما كان وما يكون، وإبراز ذلك في زمانه ومكانه، والرضا بالقضاء والقدر صفة الرسل عليهم الصلاة والسلام وورثتهم من الصديقين والشهداء وقليل ما هم، لأنه عن التحقق بحقيقة التوحيد ومكاشفة حق اليقين، قال الله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ﴾ البينة: ٨ وقال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ البينة: ٨ والحقيقة أنه لا يرضى بمرارة ما يجري به القضاء بطيب نفس إلا العارفون بالله تعالى، وفي رضاء هابيل بالقضاء حتى قتل ولم يمد يده، ورضاء السحرة بالقضاء حتى صلبهم فرعون، ورضاء سيدنا الخليل بإلقائه في النار وقتل ولده طيبة بذلك نفسه، ورضاء سيدنا ومولانا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بكسر رباعيته وبالأذيات، كل ذلك هو الرضاء حقيقة عن حق اليقين، ورضاء الصحابة رضوان الله عليهم طيبة نفوسهم بالقتل في حب الله تعالى وحب رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ .

علامة المؤمنين المتحققين:

أن لا يخافوا ولا يرجوا غير الله تعالى لكمال توحيدهم وصدق يقينهم، كما أن الأولاد لا يخافون ولا يرجون إلا الآباء والأمهات، وهكذا الصبيان لا يخافون إلا من المؤدب، والتلامذة لا يخافون إلا من الأساتذة، وهكذا الجند لا يخافون إلا من صاحب الجيش، والناس كلهم لا يخافون إلا من سلطانهم القادر على أنفسهم، وكما حكى عن الملائكة فقال: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ النحل: ٥٠ فالملائكة لا يخافون إلا من ربهم وهكذا العلماء، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ فاطر: ٢٨ الذين يشاهدونه ويرونه كما قال تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ الحديد: ١٩ وكما قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حين سأله الأعرابي ما الإحسان؟ فقال: « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » فهذه الرؤية والمشاهدة بعين الحقيقة وهي أن لا ترى في الدارين أحداً غيره، والتباعد عما نهي .

أفضل خصال المؤمن:

العمل بسنة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ واتباع ما يأمر به صلوات الله وسلامه عليه من الطاعات والنهي عما نهي عنه من المعاصي، وهو السمع منه والطاعة له، وذلك أن أشرف أعمال البشرية وألذ أفعال الإنسانية، وأعلى رتبة ينالها المصطفون، الوحي من الله تعالى لمن اصطفاهم بأحكام الدين، هذا ومثل الأنبياء مع أتباعهم وما يستمعون منهم من العلوم، وما يأتمرون به من سنن الشرائع، كمثل السماء وأمطارها والأرض ونباتها، وذلك أن كلام الرسل عليهم الصلاة والسلام وأقاويلهم كالأمطار، واستماع أتباعهم كالأرض، وما ينتج بينهما من فوائد العلوم من الآراء والأعمال كالنبات والحيوان والمعادن، وإلى هذه المعاني أشار بقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني القرآن ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ يعني حفظتها القلوب بمقاديرها من القلة والكثرة ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ﴾ الرعد: ١٧ يعني ما تحتمله ألفاظه وظاهره من معان متشابهات حفظتها قلوب المنافقين الزائغة الشاكين المتحيرين ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ مثل آخر يعني الجواهر المعدنية لها زبدة عند السبك كزبد السيل ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾ الرعد: ١٧ يعني أمثال الحقائق والأباطيل ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾ الرعد: ١٧ يعني الأباطيل والشبهات تذهب، فلا ينتفع بها ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الرعد: ١٧ يعني ألفاظ التنزيل تثبت في قلوب المؤمنين المصدقين وتثمر الحكمة كما ذكر، فقال عز وجل: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إبراهيم: ٢٤.

ومن المتحقق أن الشريعة لا تتم إلا بالأوامر والنواهي، والأمر والنهي لا ينفذان إلا بالوعد والوعيد، والوعد والوعيد لا يكونان إلا بالترغيب والترهيب، والترغيب والترهيب لا ينجعان إلا فيمن يخاف ويرجو، والخوف والرجاء لا يظهران ولا يعرفان إلا عند اتباع الأمر والنهي، فمن لا يخاف شيئا ولا يرجو أملاً فهو لا يرغب ولا يرهب ولا ينجع فيه الوعد والوعيد، ولا يجتمع فيه الأمر والنهي، ومن لم يقم بأمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ولا ينتهي

عن نواهيه ﴿صلى الله عليه وسلم وآله﴾ لا يكون له نصيب من السعادة والعلم بالله تعالى وآياته وأسراره وحكمه.

ما يخاف عاقبته الإنسان وما يرجو عاقبته:

نوعان اثنان أحدهما دنيوى والثاني أخروى:

١- الدنيوى: مثل الرياسة وحسن الثناء والعز والمال ومتاع الدنيا مادامت النفس مقرونة مع الجسد، وما يبقى من الأثر في الذرية والأعقاب بعد الممات.

٢- الأخروي: مثل نجاة النفس من الظلومية والجهولية، والخروج من هاوية البعد والقطيعة، والفوز بالصعود إلى ملكوت السماء، والدخول في زمر الملائكة، والسياحة في روضات الجنان وسعة السموات، والتنسم من ذلك الروح والريحان المذكور في القرآن الذي يقصر الوصف عنها إلا مختصراً، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ السجدة: ١٧ الخ الآية.

بغية المؤمن العالم العامل :

الفوز ببلوغ الوصول إلى حضرة الحق، والتجمل بالكمالات التي بها يحبه الحق، فيعمل الخير ويجتنب الزور والبهتان، لأن الحق هو غاية ليس وراءها نهاية، ولكن الطريق الموصل إليه خفي دونها أمور متشابهة مشكلة، ومعلوم أن الألفاظ محتملة للمعاني والأوهام تذهب في طلبها كل مذهب، فينبغي لك إذا سمعت لفظة محتملة للمعانى لا تحكم عليها حكما دون أن تبين بعقلك كل المعاني التي تحتملها تلك اللفظة، لعلك تفهم الغرض الأقصى الذي هو الصواب، وتبلغ الغاية القصوى التي هي الحق.

المؤمن مطيع لله في الشدة والرخاء:

الإنسان لا يخلو من حالتي شدة ورخاء، والمؤمن في كلتى حالتيه لا يعرض عن طاعة الله، وذلك أنه إذا كان صحيح الجسم قوي البنية غني المال عريض الجاه كامل الآداب قادرا على ما يشاء ممكنا مما يريد، فهو مع هذه الحالات كلها يكون متكلا على الله مستندا مستعينا به متبرئا من حوله وقوته إلا بالله كما قال سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ النمل: ٤٠ وأما الكافر فهو في هذه الحالات كلها يكون راجعا إلى نفسه وحوله وقوته ومشيئته وإرادته واجتهاده وحيلته، متكلا على أسبابه معرضا عن ربه ناسيا ذكره كما قال قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ القصص: ٧٨. وأما حال الشدة والبلوى فالمؤمن يكون فيها صابرا على قضاء الله، راضيا بحكم الله مقبلا عليه حامدا له، حسن الظن به راجيا لرحمته سائلا عفوه مستسلما لأحكامه، كما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ البقرة: ١٥٦.

وأما الكافر فإنه يكون سيئ الظن بالله، ضجور النفس جزعا من الشدائد، ساخطا على المقادير ذاما لأسبابه، آيسا من روح الله قنوطا من رحمة الله، كما ذكر الله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ الحج: ١١ الآية.

الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة :

من أكمل شرائط الإيمان وخصال المؤمنين كما رغب الله تعالى نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ فقال:

﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ الضحى: ٤ وقال: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ الأعلى: ١٦ - ١٧ وآيات كثيرة في القرآن في التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة.

واعلم يا أخي أن الإنسان مطبوع على أن لا يترك النفع الحاضر العاجل ويزهد فيه، ويطلب الغائب الآجل ويرغب فيه، إلا بعد ما يتبين له فضل الآجل على العاجل.

واعلم بأن المؤمنين والحكماء والأنبياء إنما زهدوا في الدنيا وتركوا عاجل شهواتها، ورغبوا في الآخرة وطلبوا آجل نعيمها على نعيم الدنيا، وشاهدوها بعيون قلوبهم ونور عقولهم كما شاهد أبناء الدنيا أمورها بحواسهم.

واعلم يا أخي بأن الطريق إلى معرفة حقيقة الآخرة ومشاهدة أحوالها، بالاعتبار والتفكر في أمور الدنيا والمقارنة بينها وبين أمور الآخرة بالعقول السليمة من الآراء الفاسدة، والنفوس الصافية من الأخلاق الرديئة، ونتائج المقدمات الصحيحة الضرورية، بيان ذلك أن العاقل اللبيب إذا فكر في قول الجمهور من الناس، وتسميتهم هذه الدار التي نشأوا فيها باسم الدنيا وذمهم نعيمها، يدل على الدار الآخرة وشرفها، لأن لفظة الدنيا تدل على الآخرة، كما أن لفظة الآخرة تدل على الأولى، لأنهما من جنس المضاف.

ووجه آخر إذا اعتبرت أحوال الناس في الدنيا وجدتهم كلهم طائفتين: أخياراً، وأشراراً، فأما الأخيار فهم الذين يعملون من الأعمال مارسم لهم من الشريعة الإلهية، ولا يطلبون على ذلك عوضاً من جر منفعة إلى أجسادهم أو دفع مضرة عنها فعند ذلك يقال لهم أخيار على الإطلاق وأنهم من أبناء الآخرة.

وأما الذين يطلبون العوض فيما يعملون من الخير والشر من جر المنفعة إلى أنفسهم أو دفع المضرة عنها، ولا يفكرون في المعاد ولا يرجون في الآخرة الخير، ولا يخافون العقاب ولا يهمهم أمر النفس ولا النظر في حالها بعد الموت، فيقال عند ذلك إنهم أشرار وإنهم من أبناء الدنيا.

ومن وجه آخر إذا اعتبر أحوال هؤلاء الأخيار الذين تقدم ذكرهم، وأنهم قد أفنوا أعمارهم كلها فيما وصفنا من أعمال الخير، ثم ماتوا ولم يحصل لهم عوض على ما عملوه

قبل الموت، فتعلم العقول وتقضي بالحق، لأن ذلك لا يضيع عند الله شيئاً، فيصح بهذا الاعتبار أنه بعد الممات الذي هو مفارقة النفس الجسد حالة أخرى يجازي فيها الأخيار، وهي التي تسمى الدار الآخرة، وهكذا إذا اعتبر حال الأشرار الذين سعوا في الأرض بالفساد طول أعمارهم ثم ماتوا ولم يعاقبوا على ما فعلوا، فتعلم العقول وتقضي بأن هؤلاء لم يفوزوا، وأن حالهم بعد الممات ليس كحال أولئك الأخيار، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ الجاثية: ٢١.

هذا وإذ قد ذكرنا طرفا من خصال المؤمنين وشرائط الإيمان وخصال الكافرين وماهية الكفر، فنريد أن نذكر طرفا من علم المؤمنين الراسخين، وخصال العارفين المستبصرين، الذين هم ورثة النبيين وأنصار المرسلين وإخوان الصديقين المتألهين الربانيين، الذين هم في أعلى رتبة الإنسانية أعلى عليين، ونذكر أيضا طرفا من صفة إخوان الشياطين الضالين المضلين الذين هم في أدنى رتبة الإنسانية مما يلي رتبة البهيمية أسفل السافلين، ونبين كل ذلك في مذكرة السالكين التي سنشرح فيها بمشيئة الله تعالى الطريقة المستقيمة واصطلاحات أهلها وآدابهم وأحوالهم، وإن سبق لي أني تكلمت في قسم علوم اليقين من كتاب: (أصول الوصول) على بعض علوم أهل اليقين، إلا أنيسأوضح ما يتعلق بالطريق في كتاب: (التذكرة) بمشيئة الله تعالى وعنايته وحسن توفيقه. والله تعالى أسأل أن يمن عليّ، وعلى جميع إخوتي المؤمنين، بمنن التوبة والإنابة والإخلاص والصدق والمحبة والمعرفة والسعادة في الدنيا والآخرة إنه مجيب الدعاء.

استفت قلبك ولو أفتاك وأفتوك المفتون:

لا يكون الإنسان إنسانا له قلب إلا بعد معرفة نفسه مبدأ ونهاية، وبقدر ما ينكشف له من الكمالات والفضائل التي تأهل للتجمل بها، والتكمل بمعانيها، والترقي لمراتبها، تكون معرفته للفضائل والرذائل عن كشف وعيان، وتتفاوت مراتب المعرفة، فقد تكون فضائل رتبة رذائل أخرى بالنسبة لمبلغ العلم بالنفس واستعداداتها، وبالنسبة للمقادير التي

اكتسبها العقل من التجارب والنظر، لأن للعقل وسائط يستمد بها الحكم على الأشياء بيقين أو بظن وحدس تخمين تكون كالمقدمات المنتجة، وبقدر يقين تلك المقدمات تكون النتائج، فكلما كانت المعلومات والتجريبات أكثر، كلما كان للقلب طمأنينة بالحكم وسكون، وهذا في حيطة المعقولات.

فإذا زكت النفس واستعد الخيال للتمثيل، واجه القلب حضرة الملكوت الأعلى، بعد معرفته بكمالات الملك الأدنى، وفطرته على الأجمل من لوازمه والأكمل من أموره، وبمواجهة القلب للملكوت الأعلى لا يحتاج إلى العقل، لأنه صار عقلا يعقل عن الملكوت، ويمد الخيال بصور الكمالات الملكوتية، وبديع الجمالات الروحانية، فتكون تلك الصور منطبعة في لوح الخيال أمام النفس المدركة التي قام بها الإنسان، فترى الإنسان يحاول أن يتجمل بتلك الفضائل والكمالات، ويتحلى بحلل تلك المعاني الجميلة، وتحصل المواجهة بين الصورة الملكوتية، وبين صورته الإنسانية، فيرى نفسه في حاجة إلى تكميله، وتتميم حقيقته بتلك الجمالات، ولذلك فإنك ترى أهل النفوس الزكية يرون أنفسهم دائما مسيئين لمواجهتهم للملكوت، وانتزاع الخيال لتلك الصور العلية الجميلة، التي تتعشقها النفس، فتشتاق أن تتشبه بها ويكون القلب في هذا الحال بالنسبة للأحكام الشرعية هو الحاكم حقيقة، لأن الأحكام الشرعية حدود الله، التي من تعداها أو داناها هلك أو كاد.

فإذا اقتضى الوقت حكما من أحكام الشريعة، وعرضه على قلبه فربما لا يطمئن القلب إليه، لأنه متحقق أنه الحد، ويجب أن يجعل له حيطة، خشية من أن يداني الحد، فيقع بين حكم المفتي وحكم قلبه، فيكون الترجيح لحكم القلب، لأنه إنما يطالب بالأكمل والأجمل والأحوط، ويكون تلقيه عن القلب، لأنه تلقى عن الحق، وعمله به عمل بالحكم الشرعي لمقامه ورتبته.

وتزكية النفس هو الجهاد الأكبر، لأن الإنسان مسكين بين جاذب ودافع، إن كان له قلب فقلبه يدفعه عن حظه وهواه العاجل إلى حظه وهواه الآجل، ونفسه الحيوانية وأعضاؤه العاملة وما في فطرته من الاحتياج، وما جبل عليه من الأمل تجذبه إلى ما يلائمه ويلذذه

ويعظمه أمام الخلق إلى المنافسة وإلى التكاثر، وهي أمور محسوسات سريعة الإنتاج، تشغل القلب والجوارح، وكثيرا ما يكون السالك على المنهج القويم مخلصا في العزم، صادقا في القصد، مفطورا على الخير، فيناله من عمله وحاله إقبال الناس ومواساتهم بما يلائمه وما يسد الضرورة والكماليات فتبتهج نفسه، وتأنس جوارحه، ويطيب بما نال، فيتناسى المقصد الأول والعزم، ويغيب عن الحضور والمراقبة، ويعمل عمل المعتاد بدون استحضار، وربما – والعياذ بالله تعالى – انحط إلى أن صار العمل لقصد هذا النوال الدنيء وبلوغ هذا المتاع القليل.

كل تلك العقبات تجعل الرجل دائم المجاهدة، كثير المفاكرة، طويل المحاسبة لنفسه، حتى يتمكن الخيال من أن يمثل الصورة الكاملة الملكوتية مثالا لا يحجب عنها، حتى إذا حصل السهو أو النسيان تذكرت فأبصرت تلك الصورة فحنت وجاهدت ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ الأعراف: ٢٠١ وفي هذه المنزلة يكون الإنسان فرحا بالقليل من الدنيا، مطمئنا بالله تعالى، وإذا سخر الله له الدنيا قام بها هكذا وهكذا، رغبة فيما عند الله وخوفا من أن تلابس قلبه أو تتجمل له فيألف أو يكاد فهو لا يسأل الناس لأنه تقي، ولا يرد لأنه موحد، وهو مع الله في حاليه إن كان لا يملك قوت يوم، أو كان يملك الأرض وما فيها، فلا العدم يشغل قلبه لثقته بوعد الرزاق الكريم، ولا ادخار الكنوز ينسيه حقيقة اضطراره وفقره إلى الولي المختار المريد، فهو في احتياجه لقوت يوم غني بربه، وفي ادخاره للكنوز شديد في احتياجه إلى الله تعالى، وجماله الفقر في الحالين وكماله الاضطرار في المشهدين، حتى إذا كملت تزكية النفس قلب القلب مقلبه، والبصر مبصره من الملكوت إلى العزة فصح نزل العبودية، وكمل الخوف من مقام الربوبية ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ الشمس: ٩.

جمال به الإنسان صورة مولاه   وأفق لتشرق فيه شمس علاه
وبيت عليٌّ عامر بجماله   يشاهد أنواراً أضاءت بمجلاه

واتقوا الله ويعلمكم الله:

إن الله جلت قدرته وتقدست صفاته، خلق الإنسان على أكمل صورة، وأتم معنى، وجعل خلقه الجميل محلا للتجمل بالخُلق الجميل وهداه النجدين، وأبدع له من الآيات، ما قامت به الحجة وثبتت به المحجة وظهر به البرهان، ووضح به البيان على قدرة القادر البديع بداهة، بأول جولة للنظر فيما في السموات والأرض، وفيما هو في نفس الإنسان، حتى أشعر قلبه بأنه سبحانه هو الموجد البديع بدلائل حسية، قامت واضحة البرهان، أقرها إليه احتياجه لما حوله واحتياج ما حوله إليه، وتغير الكل في اللحظة من حال إلى حال، حتى برهن الكل أنه صنعة قادر حكم مدبر بديع ولي وهاب، ثم مَنَّ سبحانه على الإنسان ببعثة الرسل صلوات الله تعالى عليهم وسلامه يدعون الخلق إلى الحق الذي شعرت به قلوبهم، وقامت الأشياء كلها دالة على وحدانيته وكمال قدرته ومشيئته، فأقاموا الحجج الناصعة على أنهم رسل ربنا بالأدلة الواضحة، وعمل المعجزات الباهرة، التي هي في قوة (صدق عبدي في كل ما يبلغ عني فاتبعوه) .

بينوا لنا ما يجب أن نعقد عليه القلب من عقائد التوحيد، وما يلزم أن نعلمه من كمال التتريه، وما نطالب به من التسليم لأوامره وأحكامه، وما لابد لنا من التصديق به من أحوال المرجع إليه سبحانه، ومواهبه اللدنية التي منَّ بها على المصطفين من خيرة عباده، وتفضل سبحانه فكلفنا بما يسره لنا، ويسرنا له، بدون فادح كلفة ولا عظيم مشقة، من المعتقدات الحقة، التي تعترف بها العقول السليمة، والأخلاق الطاهرة التي تتعشقها النفوس الطيبة، والعبادات التي تشعر بوجوبها الفكرة الصائبة، شكراً لذاته العلية، على منن ومواهب وإحسانات عمت الكل فرداً فرداً، بل شملت كل كائن. ثم أطلق لنا العنان في الفكر في بدائع الكائنات، والبحث عن أسرار الآثار، مما ينكشف بظهوره حجاب الغفلة، ويفتح قفل الشك، ويزيل الوسواس، كل ذلك سعيا وراء معرفة بدائع صنعه، وحكم مكوناته، ودلائل قدرته وبراهين وحدانيته، لنزداد إيمانا على إيماننا، وهو المنهج المستقيم والصراط القويم، الموصل لحضرة الحق جل جلاله.

ثم وفق سبحانه من اجتباهم لهذا النهج، فتلقوا تعاليم الرسل بقلوب مبتهجة بما تلقت، قـــد فقهت الأحكام والحكم، وأبدان هينة لينة للسمع والطاعة، مسارعة في تأدية ما أمرت بـــه، وعمل ما كلفت بعمله، بإخلاص في النية، وإتقان في العمل، وصدق في المعاملـــة، وإقبـــال بالكلية على الوهاب الذي عمهم بفضله وشملهم بكرمه، وألزمهم بما عمهم بـــه بشـــكره شعورا بالقلوب وحساً

بالجوارح، وحكما بالعقل وبيانا من الشرع. فلما وفقهم للقيام بما أمر كاشفهم بعلم أسرار الأحكام، وحقيقة الحكم، فاطمأنت قلوبهم، وقوي يقينهم، وانشرحت صدورهم بما شرحه لهم من العلم المكنون والسر المصون .

علَّمهم ما لم يكونوا يعلمون وأشهدهم ما لم يكونوا يشهدون، حتي صـــاروا راســـخين في العلم، فانكشف عنهم الحجاب، وانمحي البين من البين، حتي علموا حق الـــيقين، وغـــاب الوهم الحاجب والوسواس المشكك والجدل القاطع والبحث بالعقول والأفكار الســـخيفة، تارة بقياس الغائب علي الشاهد، وتارة بتأويل كلام الله تعالي، بظلمة فكره وقصر رأيـــه، معجبا برأيه متبعا هواه، مغروراً بما مَنَّ الله عليه من العافية والمال والعلم حتي يكون علـــي غير الصراط المستقيم، ويحسب أنه يحسن العمل، ويتجاوز الأدب مع الحق ومع رسله صلي الله عليهم، وعلي أهل العلم بالله تعالي، وربما ظن لقصر عقله وظلمة بصيرته، أن رأيه هـــو الحق وما سواه هو الباطل، ويرمي من خالفه بالكفر أو بالضلال، ولو أنه عمل بما علمه من الدين، بأن اعتقد العقيدة التي قررها القرآن الكريم بالحجة الواضحة، وبينها سيدنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وقام بأركان الدين بإخلاص وتسليم، وترك الجدل والبحـــث، لأن الله سبحانه أغنـــي عباده بكلامه الذي هو تفصيل لكل شيء، وأغنانا سبحانه ببيـــان ســـيدنا ومولانا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، الذي جعل الله سبحانه بيانه هو عين بيانه سبحانه وتعالي .

حكمة بعثة الرسل :

لما لم يكن الإنسان بحيث يستقل وحده بأمر نفسه إلا بمشاركة آخر من بني جنسه، وبمعاوضة ومعارضة تجريان بينهما، يفرغ كل واحد منهما لصاحبه عن مهم لو تولاه بنفسه لازدحم علي الواحد كثير، وكان مما يتعسر إن أمكن، وجب أن يكون بين الناس معاملة وعدل يحفظه شرع يفرضه شارع، متميز باستحقاق الطاعة لاختصاصه بآيات تدل علي أنها من عند ربه، ووجب أن يكون للمحسن والمسيء جزاء من عند القدير الخبير، فوجب معرفة المجازي والشارع، ومع المعرفة سبب حافظ للمعرفة، ففرضت عليهم العبادة المذكرة للمعبود، وكررت عليهم ليستحفظ التذكير بالتكرير، حتي استمرت الدعوة إلى العدل المقيم لحياة النوع، ثم زيد لمستعمليها بعد النفع العظيم في الدنيا، الأجر الجزيل في الآخرة، ثم زيد للعارفين من مستعمليها المنفعة التي خصوا بها فيما هم مولون وجوههم شطره .

فانظر إلى الحكمة ثم الرحمة والنعمة تلحظ جنابا تبهرك عجائبه، ثم أقم واستقم وتحقق أن الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ هو النعمة العظمي علي العالم بأجمعه، وأن اتباعه علي الوجه الأكمل هو السعادة الحقيقية، والفوز بمقعد صدق عند مليك مقتدر، ونيل محبة الله التي ينال من فاز بها المجد الأبدي، والبقاء السرمدي، في مواجهة قدس الجبروت الأعلي مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ آل عمران: ٣١، ولما كان اتباعه ﴿ ﷺ وآله﴾ علي الوجه الأكمل، يجعلك يا أخي علي ما كان عليه ﴿ﷺوآله﴾ هو وأصحابه فتكون من الفرقة الناجية الذين هم أهل معية رسول الله ﴿ﷺوآله﴾، وخاصة أولياء الله تعالي من العلماء الراسخين، والمخلصين الروحانيين، أسأل الله تعالي أن يشهدنا مشاهد أهل محبته، ويناولنا من طهور المقربين، إنه مجيب الدعاء، وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم.

حكمة أحكام الشريعة:

حكمة أحكام الشريعة، والمراد للشارع سبحانه من كلامه خفي جداً بعيد الغور، لا ينكشف لك في أول وهلة إلا بفضل عظيم من الله تعالي، أو إحسان سابق لك من استعداد

للنظر والفكر والفطنة والفطرة علي الذكاء، وتهذيب نفسك وتزكيتها، هذا فيما يتعلق بالعقائد والعبادات، فأما في الأحكام الشرعية فإن أحكام الشريعة لا يدرك حكمها الإنسان من أول وهلة إلا بعد البحث، وعلم المراد من النفع العام لجميع العباد، ومساواة الأفراد في الخيرات، وإن ظهر للإنسان أن الأحكام علي غير ذلك في أول نظرة، ولكنه بعد الرياضة يعلم حق العلم أن أحكام الشرع هي القسطاس المستقيم، وما عداها باطل وإن ظهر حسنه في أول نظرة.

مثال لذلك: ضرب العلماء الربانيون مثلا، فقالوا: إنه كان رجلان اصطحبا في طريق علي سفر، فلما انتهيا إلى شاطيء نهر قعدا للغذاء فأخرج كل واحد زاده، فكان مع أحدهما رغيفان ومع الآخر ثلاثة أرغفة، فكسراها في موضع واحد ليأكلاها، إذ مر بهما مجتاز، فدعواه إلى طعامهما فأجاب وجلس وأكل معهما، فلما فرغوا قام ورمي بين يديهما خمسة دراهم، وقال: اقسموها بينكما بالسوية، ومضي هو لسبيله، فقال صاحب الرغيفين لصاحبه: لك النصف ولي النصف الباقي، لأنه قال بالسوية، وقال صاحب الثلاثة الأرغفة: بل العدل أن يكون لي ثلاثة دراهم ولك درهمان، لأنه قال بالسوية بحسب الرغيفان، فتنازعا وتخاصما وتحاكما إلى قاض من حكام الشريعة، فحكم بينهما أن لصاحب الرغيفين درهماً واحداً، ولصاحب الثلاثة أربعة، وكان هذا الحكم هو الحق وغاية الصواب، فتفكر يا أخي فيه، فإن فهمت معناه، وتوجه لك الصواب، فأنت فقيه في أحكام الشريعة، وإن ذهب عليك فيه وجه الصواب وغاية الحقيقة، فاذهب إلى حاكم الشريعة ليعرفك وجه الصواب، وحقيقة المعنى.

هذا وبعض من لم يتفضل الله عليهم بنور المعرفة من بعض العقلاء الذين يطالعون في كتب الفلاسفة والمعقولات، إذا فكروا بعقولهم في أحكام الشريعة وقاسوها بآرائهم وتمييزهم وفهمهم يؤديهم اجتهادهم وقياساتهم إلى أن يروا ويعتقدوا في كثير من أحكام الناموس، أن العدل والحق والصواب في مخالفة كل ذلك، لقصور فهمهم وقلة تمييزهم وعجز معرفتهم عن كنه أسرار أحكام الشريعة.

مثال ذلك: أهم إذا تفكروا في حكم المواريث أن للذكر مثل حـــظ الأنثـــيين، فـــيرون أن الصواب كان أن يكون للأنثي حظ الذكرين، لأن النساء ضعفاء قلائل الحيلة في اكتساب المال.

ولا يدرون ولا يبصرون أن هذا الحكم الذي حكمت به الشريعة، سيئول الأمر به إلى مـــا أشاروا إليه وأرادوه، وذلك أن الشريعة لما حكمت للذكر مثل حظ الأنثيين حكمت أيضا أن المهر في التزويج والنفقة علي الرجال للنساء، فهذا الحكم يؤول الأمر به إلى أن يحصـــل للأنثي في المال مثل حظ الذكرين وأكثر، والأمثلة ظاهرة.

يثبت من ذلك أن أحكام الشريعة ليست جزئية لنفع البعض فقط، بل هي كلية لنفع العام، والمساواة الحقيقية والصلاح للكل في العاجل والآجل، والخير في الدنيا والآخرة جميعا بالنظر في العواقب، والله أسأل أن يمنحنا الفقه في قلوبنا، ويكاشفنا بمـــراده ســـبحانه وتعـــالي في أحكامه، ويوفقنا لحسن اتباع سيدنا ومولانا محمد ﴿ﷺ وآله﴾.

تذكرة:

أيها المريد الصادق، اعلم أن نعم الله كثيرة علي الخلق لا يحصي عددها، ولكن تذكر طرفا مما يخص الإنسان، وهو نوعان: أحدهما من خارج الجسد، كالمال والقرين والولد ومتـــاع الدنيا أجمع، والآخر من داخله وهو نوعان: أحدهما في الجسد كالصحة وحســـن الخلـــق وحسن الصورة وكمال البنية والقوة والجَلَد، وما شاكلها، والآخر في النفس وهو نوعان: أحدهما حُسن الخَلق، والآخر زكاء النفس وصفاء جوهرها وهي الأصل في جميع المعارف:

بـــين بحـــث العقـــول في الآثـــار ... وشـــــهود القلـــــوب للأنـــــوار
بـــين ســـاع في ظلمـــة ووهـــاد ... ومهنـــــي ببهجـــــة الأســـــفار
مطمـــئن الفـــؤاد منشـــرح الصـــدر ... بمـــــرآي حقيقـــــة الأســـــرار
واجهتـــــه الأنـــــوار فانســـلب ... الفـــيء بنـــور الشـــموس والأقمـــار
نـــوَّر الله قلبـــه بـــــهبات ... فـــرأي الوجـــه مشـــرقا بالفخـــار

وتجلت له المعاني جهارا ... في مرائي حقيقة الآثار
لم يغب طرفه عن الحق لما ... أن تحلى بحلية الأذكار
ذاك نور يعطي بفضل ولي ... ورءوف ومنعم ستار
يرفع الحجب عن عيون مراد ... فيري الحق من ضيا الأبصار
وتلوح الشئون حججا أشارت ... لمعاني الوهاب والغفار
ناطقات بالآي في كل حال ... لمريد في بهجة الأفكار
نظر الكون نظرة بيقين ... فرآه نورا يضيء لسار
نور مولي منزه قد تعالى ... أبدع الكل عن غني واقتدار
عجبا للعقول تبحث عمن ... لاح علناً يري بغير ستار
حجبه قربه وظاهر معناه ... فعجبا لباحث وممار
أنت لوح مجمل بالمعانى ... فيك نطقت بالحسن والأسرار
فاقرأنها بالفكر تشهد نورا ... لا تفكر في حيرة النظار
جهلوا نفسهم وفيهم تجلت ... مشرقات لم يهتدوا في النهار
سلِّم الأمر للولي وفكر ... في بديع الشئون بالاعتبار
ودع العقل يعقل الكون والنفس ... ليسعي إلى جناب البارى
وتحصن بالشرع فهو أمان ... وتجمل بسنة المختار
واجعل العقل باحثا عن إمام ... عرف الحق ظاهر الأنوار
فاتبعه مسلما لتهنى ... بالتحلي بحلية الأخيار
وصلاة على الحبيب المرجى ... قبضة النور مقصد الأبرار

الباب الثالث

الطريق إلى اللّه تعالى

تعريف الطريق إلى الله:

عمارة كل وقت من أوقات السالك فيما اقتضاه الوقت من اللازم الشرعي من عمل قلبي فقط، أو عمل بدنـــي فقط، أو عمل مزدوج منهما، وبذلك ينتقل علي معارج القــرب في كل لمحة ونفس، لأن الزمن هو المراحل التي ينتقل منها إلى حضرة الرب سبحانه وتعــالي، وإنما العمر هو المسافة التي بين العبد وربه: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ العلق: ٨ فكلما مضي مــن عمره نفس انتقل مرحلة إلى ربه، وفي كل نفس له كمالات يتجمل بها إذا عمــر الوقــت بواجبه فإن أهمل خسر الوقت وخسر الربح فيه، وطولب بواجبه، لأن تلك الصحف ترسم فيها صور الأعمال محلاة بنور القبول والثناء من الله أو بظلمة من المعصية والمقت مــن الله، ولا يعد المريد سالكا علي الطريق إذا لم يحط علما بواجب الأوقات وبصحبة من ســلك، وعرف المبدأ والمرجع، وتمكن من معرفة النفوس وعلم أمراضها ودواءها وتكميلها.

علي أنــي لا أحكم أن المريد معصوم عن المعاصي، ولكنــي أري أنه يقع في صغائر الأمور التي تشتبه عليه لأنها خفية، وانتفاؤها عن المريد متعذر، كما يحصل من بعض المريدين مــن المسارعة في عمل النوافل، والتساهل بالواجبات من بر أو صلة أو نجدة أو عيادة أو جهــاد أو اكتساب، فقد يكون واجبا يقتضيه الوقت، فيترك ذلك ويقبل علي الأوراد والصــيام والسهر في القيام، فتكون تلك المعاصي تدخل علي المريد من حيث لا يعلم، وأمثال هــذه كثيرة، نكتفي بما تقدم من المثل، لهذا يجب علي المريد صحبة الكامل.

إذا تحقق هذا من أن العمر هو المسافة، لزم علي كل مريد أن يعلم الحقوق الواجبة عليــه لنفسه ولربه سبحانه وللناس بحسب مراتبهم، ويعلم مواقيت تلك الحقوق وشروطها، فقد يكون الوقت يقتضي الشكر فيصرفه في الذكر، وقد يقتضي السعي علي المعاش فيصرفه في

الصلوات، وإنـــي أحب أن أضع مقدمات للمريد وضوابط، إذا لاحظها يسهل عليه معرفة مقتضي الوقت، ويعلم الأحكام الشرعية التي تجب عليه في نفس الوقت، والله الموفق.

المقدمات والضوابط

المقدمات:

المقدمة الأولى: العلم بالنفس، العلم بالله، العلم بأحكامه، العلم بأيامه.

المقدمة الثانية: إخلاص النية عند العمل. تأدية العمل علي الوجه الشرعي. الفرح به مـــن حيث أنه لله وبتوفيقه، الشكر بعده لله علي عنايته وإقامة العبد مقام عامل له سبحانه. عدم الاعتماد علي العمل. تحققه بالعجز عن حقوق الشكر بعد العمل. جعل كل الأعمـــال لله تعالي ولو كانت من شهواته الحيوانية بتصريفها بحسن النية. مجاهدة نفسه حتي لا يجد سروراً في نفسه بالعمل أمام الناس أو في الخلوة لصحة توجهه إلى الله تعالي، فإن نشط أمام الخلـــق وكسل في الخلوة جاهد نفسه ليكون حاضرا مع الله في الحـــالين، غائبـــا عـــن الخلـــق في المشهدين، كما يحصل للعامل إذا عمل عملا نافعاً لذاته، فإن الأمر يستوي عنده في الخلوة والمجتمع. تلبية قلبه فيما يدعوه إليه، إلا فيما أوقع في ريبة في عين الخلق أو شبهة عنده، فإنه يحفظ الخلق من الوقوع في محرم بشأنه، أو من الوقوع في محرم بالاقتداء به. غض البصـــر عن عورات الناس وعيوبهم ومساويهم ليستريح ويريح، إلا من أمر بمعروف أو نهـــي عـــن منكر بشروطه الشرعية. المسارعة عند النشاط علي القربات بعد الفرائض. قهر النفس عند الكسل علي عمل الواجبات في أوقاتها، ولو بالتكلف.

تسليم ما يجهل من أسرار الحكمة والقدرة للعالم الأكبر سبحانه وتعالي حتي يفتح له بـــاب العلم بها بدون بحث بعقل، ولا تنقيب بفكر، فإنه ولد جاهلا أولا. ترك الجدل مرة واحدة، فإنه باب القطيعة ومهاوي البعد لأنه ترك الظالم أو المبتدع في ضلالته، خير له من أن يجادله ليرده إلى الحق لأن الجدل بدعة مضلة ولا يأتي الخير بالشر ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ الزخـرف: ٥٨ وقال ﴿ﷺ وآله﴾: « إذا غضب الله علي قوم أوتوا الجدل » .

يكون مقصوده الرضا من الله تعالي، وحسن الثناء منه سبحانه الأمر الذي يصغر الخلـــق في عينه فلا يحزنه سخطهم وإدبارهم، ولا يفرحه إقبالهم ورضاهم إلا من وجهة حب الخير لهم وبغض الشر لهم، ورؤية الفضل من الله عليه في الحالين بالشـــكر في الإقبـــال، والابتـــهال والتضرع في الإدبار.

الضوابط:

أيها المنتسب إلى الطريق، والمتزيِّي بزي أهله: مسافة ما بينك وبين وصـــولك بمقصـــودك واتصالك بمحبوبك وفوزك بالفلاح هو مدة عمرك المعدودة لحظاته،المحدودة مسافته، الـــتي لا تزيد ولا تنقص نفسا ولا أقل ولا أكثر، والعمر قصير، والمطلوب عظـــيم، والأنفـــاس معارج، فلو أضعت نفسا في غير عمارته بما يجعله معراجاً لقربك، وكنزا محفوظا لك، وخيرا مدخرا لآجلك أعقبك بعدا عن الحق ونقصا من الأجر وجهلا بما لابد من عملـــه، ولـــو أنفقت النفيس في رجوعه لتعمره لاستحال ذلك .

وبديهي أن تلك الأنفاس مرتبة خصوصياتـــها بعضها علي بعض كما يترتب البيت علـــي أسه، فرب ضياع وقت أدي إلى رد أعمال ما بعده من الأوقات، وإن مفاتيح كنوز مـــا في الأوقات من الأسرار هي القلب والعينان واللسان والشم والـــذوق واللمـــس والـــبطن والفرج، فإذا عطلت تلك المفاتيح بما يشغلها بما جبلت عليه النفس من الحظوظ والأهواء، والطمع والأمل، والغرور وزهرة الدنيا وحب العلو فيها، ونسيان الآخرة، وصرفت تلـــك المفاتيح في فتح أبواب الشر، بجلب حطام الدنيا والعمل لها، والتجمل للخلق وحب الأثرة، فتح المريد علي نفسه أبواب الشر، ووقف عن السير، وبقيت المسافة بينه وبين الوصـــول كما كانت يوم ولادته، وطويت سجلات عمره مسودة بالمساويء والغرور، وهو – لجهله – يظن أنه يحسن عملا، حتي يتنـــزل به داعي الرحيل فيقهر علي مفارقة الـــدنيا آســـفا عليها، حزينا علي ما فارقه، خائفاً مما يلقاه، وليس هذا من أهل طريق أولياء الله.

وولي الله من كان الله تعالي ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأحكام الله وأيام الله غايـــة مقصـــوده، وقصاري آماله، وتحقق أن نوال ذلك لا يكون إلا بالعلم والعمل، فأقبل بكليته علي صرف

الأنفاس فيما يقربه إلى الله ويبلغه رضوانه، وينيله الفوز، فيكون قائما لله تعالي بما أوجبه، ويكون طالبا لله في كل أحواله وشئونه من أحوال نفسه وأحوال أهليه وحسن المعاملة. ويكون ذلك كله عبادة لله، يرتقي السالك بها درجات القرب، ويفوز بطهور الحب، ويتجمل بحلل القبول ومعاني الرضوان. ويكون نومه وأكله وشربه وعمله في الدنيا قربات وطاعات مع أنه في عمل نفسه، ولكن تعلق قلبه بربه جعل أنفاسه وحركاته عبادات.

فتنبه أيها المريد السالك، وكن أبخل الناس بنفائس الأنفاس، وأكرم الناس بما عداها في سبيل عمارتها، لتصل إلى ربك بمضي تلك المسافة، فرحاً بلقائه، لا تخاف من عقوبته، ولا تحزن علي ما خلفته وراءك، فتكون قد فزت بالنعيم المقيم.

الفصل الأول

الأصل الأول للوصول إلى اللّه: صفاء جوهر النفس

إخوانــي – منحكم الله الوصول إلى مقامات القرب – اعلموا أن السلوك في طريــق الله تعالي للوصول إلى جنابه العلي متوقف علي أصلين عظيمين، أولهما: صفاء النفس، والثاني: استقامة الطريق.

صفاء جوهر النفس:

النفس جوهر الإنسان، فإن اسم الإنسان إنما هو موضوع للنفس والبدن، والبدن هو هــذا الجسد المؤلف من اللحم والدم والعظام والعروق والعصب والجلد وغيرها، وهي أجســام أرضية مظلمة متغيرة. وأما النفس فإنها جوهرة سماوية روحانية نورانية إذا لم تتراكم عليهــا الجهالات، ولم تدنسها الأعمال السيئة، ولم تحجبها الأخلاق الفاسدة، ولم تتعوج بالعقائــد الباطلة، فإنها تشاهد الأنوار الملكوتية بلطافتها كما تشاهد المحسوسات بحواسها، فإذا كانت النفس جاهلة وتدنست بالأعمال السيئة، وحجبت بالأخلاق الرديئة، أو اعوجت بالعقائد الفاسدة بقيت محجوبة عن إدراك الحقائق الروحانية بعيدة عن الوصول إلى الله تعالي، وتحرم نعيم الآخرة، قال الله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾ المطففين: ١٥ وحجابهــا جهالتها جوهرها وجهلها بربها وجهلها بمعادها، وتلك الجهالة من سوء أعمالهــا، وقــبح أفعالها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ المطففين: ١٤ وأمــا اعوجاجها فهو من أجل عقائدها الفاسدة، وأخلاقها الرديئة، كما قال الله تعــالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾ الصف: ٥إخواني، منحكم الله القرب والحب، إن النفس ما دامــت علي هذه الصفات لا تبصر ذاتها، ولا تشاهد في حقيقتها المشاهدة القدســية والمعانــــي العلية، كما قال تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ الزخرف: ٧١ وقال ســبحانه وتعــالى: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ السجدة: ١٧.

إخوانـــي – أشهدكم الله الملكوت – ونعمكم بالنظر إلى وجهه الجميـــل – اعلمـــوا أن النفوس لا تشتاق إلى الجناب الإلهي ولا ترغب فيما عنده، ولا تطلب القرب من حظـــائر القدس، ولا تتأله لهذا الجناب العلي إذا لم تشاهد أنوار الملكوت وأسرار اللاهوت، فتبقـــي كأنها عمياء كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحـج: ٤٦ وبعماها تحرص علي الدنيا وتتمنـــي الخلود فيها، وترضي بها وتأنس، ولا تميل إلى الآخرة كما قال الله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ يـونس: ٧ وقال تعالى: ﴿يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ الممتحنة: ١٣ ومالت عـــن الموعظـــة، وتكبرت علي العارفين بالله كما قال تعـــالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ الصـافات: ١٣ فيـــدوم عماها وطغيانها إلى الممات ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾[1] .

تعريف النفس:

وقف العقل الكامل عن إدراك حقيقة النفس، ورسمها بحد، لأنها من أمر ربنا سبحانه وتعالي كما قال سبحانه: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسـراء: ٨٥ ولا يزال الإنسان من لدن نشأته الأولي والنفس محل بحثه ونظره، حـــتي أن أكثـــر الحكمـــاء المتقدمين والحكماء المسلمين، رأوا أنها ليست بجسم ولا بعرض، لأنهم أثبتوا وجودها لما لها من الأفعال الخاصة بها، والأحوال القاصرة عليها، التي تغاير بـــالمرة أعمـــال الأجســـام، وخواص الأعراض، وتضاد أيضاً أجزاء الأجسام وخواصها، حتي لا تشاركه في حال مـــن الأحوال، وتباين الأعراض وتضادها كلها غاية المباينة، من حيث أن الأجســـام أجســـام، والأعراض أعراض، لأنه ثبت أن النفس لا تتحيز ولا تتغير، وتدرك جميع الأشياء بالســـوية بدون أن يلحقها فتور ولا ملل ولا كلال.

---

(١) سورة لقمان آية ٧ .

وشرح ذلك أن أي جسم من الأجسام له صورة فإنه لا يمكن أن يقبل صورة أخري مـــن نوع صورته الأولي، إلا بعد أن يفارق صورته الأولي مفارقة حقيقية، فإنه لـــو فرضـــنا أن جسما ما علي شكل مربع أو مثلث، وأردنا أن نجعله مستطيلا أو أسطوانيا، فلا يمكننا ذلك إلا بعد مفارقته شكله الأول، وكذلك إذا نقش في جسم ما صورة من الصور، فلا يمكن أن ننقش فيه صورة أخري، إلا بعد مفارقة الأولي، حتي لو بقي فيه بعض الصورة الأولي لما قبل الصورة الثانية علي التمام، بل تختلط به الصورتان، والمُثل بيِّنة .

والحال أننا نجد أنفسنا نقبل صور الأشياء كلها علي تباينها وكثرة أنواعها من المحسوسات والمعقولات بغير نقص ولا تفاوت، ولا مفارقة للأولي، ولا تعاقب ولا زوال رسم، بل تبقي الصورة الأولي تامة، وتقبل الرسم الثاني، ثم لا تزال تقبل الصور المختلفة، صورة بعد صورة دائما أبدا، بدون أن تضعف، أو تفتر في وقت من الأوقات عن قبول ما يرد عليها، ويتجدد لها من الصور، بل تزداد بالصورة الأولي قوة علي ما يرد عليها من الصورة الأخري، وهذه خاصة من خواصها تباين بها الأجسام، ولهذه الخاصة يزداد الإنسان فهما كلمـــا ارتـــاض، وتكمل بالعلوم والآداب.

ينتج من هذه المقدمات أن النفس ليست جسما، وتقرر أنها ليست عرضا، لأن العـــرض لا يحمل عرضا، ولأن العرض في نفسه محمول أبداً موجود في غيره، لا قوام له بذاته، وجوهر النفس قابل أبدا حامل ما هو أتم وأكمل من حمل الأجسام للأعراض.

لهذا يظهر أن النفس ليست جسما ولا جزءاً من جسم، ولا عرضا، هذا والطول والعرض والعمق من المعانـــي التي صار الجسم بها جسما، تحصل في قوة النفس الوهمية من غير أن تصير به طويلة عريضة عميقة وتزداد فيها تلك المعانـــي أبدا بلا نهاية، فلا تغيرهـــا عـــن حقيقتها ولا تتغير إذا تصورت كيفيات الجسم من الألوان والطعوم والـــروائح، ولا يمنـــع بعضها قبول بعض من أضدادها كما يمنع في الجسم، وكذلك حالها في المعقـــولات، فإنهـــا تقوي بقبول بعض المعقولات علي قبول غيرها أبدا بلا نهاية، وتلك الخواص في غاية البعـــد عن الأجسام، والجسم لا يعرف العلوم إلا من الحواس، فيشتاق إليها بالملامسة كالشهوات

البدنية ومحبة الانتقام، فإن الجسم يشتاق إلى تلك الأشياء، ويزداد بها قوة ويستفيد منـــها كمالا، ويفرح بها لأنها تتمم وجوده وتمده.

وأما النفس فإنها كلما تباعدت عن الشهوات البدنية وخلت بذاتها، ازدادت قوة وكمـــالا، وتجملت بالعلوم الحقة، والآراء الصحيحة، بذلك يثبت أن طباعها وجوهرها تباين طبـــاع الجسم والبدن، وأنها أكرم جوهر، هذا مع شوقها إلى معرفة حقائق الأمور الكونية، ولهفها لفهم المعانـــي الإلهية وإيثارها لها، ولا يمنع من ذلك أنها أخذت كثيرا من مبادىء العلـــوم عن الحواس، لأن لها من نفسها علوما أخري، وأفعالا لا تأخذها عن الحواس أبدا، وذلـــك ثابت بديهي خصوصا في علوم النظر، وما تكاشف به من أسرار الملكوت والفقه في دين الله تعالي، وهي التي تحكم علي الحس بالصدق أو الكذب فكثيرا ما يشهد الحس الأمور علي غير حقيقتها وهي ترده إلى الحق، كما تري العين الشمس صغيرة، ويري العامود الموضوع في الماء معوجا، ويري الراكب في السفينة أنه ساكن، ويري الأشجار حوله تمشي، كل تلك العلوم من نفسها. وقد يخطيء فيما يراه من بعد أو قرب، وكل الحواس تخطـــيء وتردهـــا النفس، فقد تذوق حاسة الذوق الحلو مرا عند انحراف المزاج، وكل تلك المعلومات ليست من الحس، بل هي من ذات النفس.

من هذا حكموا أن النفس ليست جسما، ولا جزء منه، ولا عرضا، والمـــراد بـــالنفس إذا أطلقت النفس الملكية التي تسمي بالناطقة، وإذا أردت أن أعرِّفها فإنما تعرف بمـــا يقـــرب حقيقتها لا حقيقتها، فأقول: هي جوهرة سماوية روحانية نورانية من أمر ربنا سبحانه وتعالي، ومما قلته فيها:

نفسي هي الكنـــزُ فيهـــا ســـرٌّ معنـــاه   بغـــير كيـــف وفيهـــا نـــورُ مجـــلاه
جهلي بـــها الحجبُ عن علمـــي بمبـــدعِها   وعلمُهـــا كشـــفُ حجـــبي فهـــمُ معنـــاه
نفسي مثـــال تـــراءي لي بـــه وضـــحت   آياتُـــــه وبـــــه أُعِطيـــــتُ جـــــدواه
نفســـي لـــه صـــورةُ تـــنبي مشـــاهدَها   إذا تحقـــــــــقَ أن المبـــــــــدعَ الله
جهلي بـــها اللـــبسُ والتشـــكيكُ أجمعُـــه   وعلمُها الكشـــفُ عـــن غيـــبٍ وأخفـــاه

جهلي بــها التيهُ بل والبعدُ عــن نســب ... بـــــها يلــوح جمــالُ الوجــهِ أجـــلاه
لـــو أنـــــها أشــرقت نفســـاً لعالِمهـــا ... فُكـــت طلاســــــمُه ورقـــي لعليـــاه
يا نفسُ ما أنت؟ نــورُ أنـــت أم عــرضُ؟ ... أم كوكـــبُ مشـــرقُ بضـــياءِ؟ مبنـــاه
وهل بك الجســـم قـــد قامـــت معالمــه؟ ... أو قُمْـــتِ فيـــه فهــذا الســـرُّ أهـــواه
حيرتِ أفكـــارَ أهـــلِ العقـــلِ لم يصلـــوا ... إلي يقـــينٍ وفيـــكِ ضـــلَّ أهـــداه
العقـــلُ يعقـــلُ محسوســـاً ونســـبتَه ... لا يـــدركن رتـــبتي والمـــنعمُ الله
ســـري خفـــي عـــن الألبـــابِ يحجبـــها ... عنـــه نظـــائره فيـــه وأشـــباه
مـــن أمـــر ربي ومـــن يطلبـــه يعرفـــه ... فيعـــرف الله ربَّ العـــرش مـــولاه
ونفخـــةٌ منـــه تجلـــي للمـــراد لـــه ... فتشـــهدُ الوجـــهَ بالتنـــزيهِ عينـــاه
مـــن كـــان يعرفنـــي بالفضـــلِ يعرفـــهُ ... أنـــا المثـــالُ لـــه أفـــقٌ لمـــرآه

النفس واحدة وقواها ثلاث:

قوة تسمي النفس الملكية أو الناطقة، وهي أعلي النفوس وأكملها، وقوة تسمي النفس السبعية أو الغضبية وهي أدني من النفس الملكية، وقوة تسمي النفس البهيمية أو الشهوانية، وهي أدني النفوس. والإنسان لا يكون إنسانا حقيقة كاملا إلا بالنفس الملكية، لأنه بها يشارك الملائكة، وبها يمتاز عن البهائم، فأكمل الناس وأشرفهم من كملت فيه تلك النفس وانصرف إليها، وأما من غلبت عليه إحدي النفسين انحط عن رتبة الإنسانية بقدر غلبتها عليه، فتدبر أيها السالك في نفسك، أين تحب أن تكون من المنازل؟ ومن تحب أن تشارك؟ ومع من تكون؟ ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾ القيامة: ١٤ وشتان بين من يرضي أن يكون بهيميا أو سبعياً، ومن لا يرضي إلا أن يكون ملكا كريما. وبين تلك

المقامات والمنازل مراتب شتي، بقدر أنواع الحيوانات ومقامات الملائكة ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾[1].

وقد نري من الناس من هم أقل من البهائم، ومنهم من تتولي خدمتهم الملائكة، ومنهم من هم شر من إبليس ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[2] ومن زكي نفسه وطهرها، بلغ من المقامات إلى رتبة فيها تسبح نفسه في عوالم الملكوت مشابهة للملائكة، وأن يكون جسمه مجملا بالأخلاق الطاهرة، والأعمال الصالحة.

ومنهم من ينحط حتي تنحصر آمالهم في شهواتهم فحسب، كالمأكول والمشروب والملبوس والوطء، وهؤلاء هم الذين تجذبهم الشهوات لقوة نفوسهم البهيمية، فيرتكبوها ولا يرتدعوا عنها، ولكن تبقي فيهم بقية ضئيلة من النفس الملكية، فيستترون حياءً عند فعل القبائح والرذائل في البيوت، حتي إذا اضمحلت النفس الملكية واختفت في ظلمات طبعهم انتفي الحياء عنهم، فجاهروا بالقبائح كما تفعل البهائم، وتركوا أوامر الله وارتكبوا نواهيه بدون خوف منه سبحانه ولا حياء من خلقه، ولو أنك سألت المعظمين للذة والشهوات الذين يتسترون عند عملها، هل ما تستحسنونه من الملاذ فضيلة أم رذيلة؟ فإن كان فضيلة فلم تتسترون عند عمله؟ وإن كان رذيلة فلم عمله؟ والله سبحانه وتعالي يجملنا بالنفس الملكية إنه مجيب الدعاء .

---

(١) سورة الحديد آية ٢٩ .

(٢) سورة الشمس آية ٩ – ١٠

فضائل النفس ورذائلها:

معلوم أن لكل موجود عملا خاصا به، وكمالا يصل إليه، ومترلة أهله الله تعالي لها، بحيث لو قصر عنها انحط إلى ما دونه، وأن الله تعالي خلق الإنسان وجعل له كمالا خاصا به، وأعمالا خاصة به، وهيأ له ما به يرث الملك الكبير، وأمده بما به يحظي بالنعيم المقيم في الفردوس الأعلي مع النبيين والصديقين والشهداء، فإذا أعانه الله تعالي وصدرت عنه أعماله الخاصة به، ووفقه فتكمل بكمالاته الخاصة، نال السعادتين وفاز بالخير كله، وإذا صدرت عنه الأفعال بعجلة وحظ وشهوة، وميل عن الحنيفية البيضاء والمحجة السمحاء، لأجل الشهوة التي شارك فيها البهائم، والخبث الذي شارك فيه الشياطين، أو الاغترار بزهرة الفانية التي تشغله عن تزكية نفسه التي يبلغ بها منازل الملك الرفيع والسرور الحقيقي، ويرفعه الله بها إلى قرة العين التي قال تعالي فيها: ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[1] ويمنحه الله بها إلى أن يشاهد وجهه الجميل في النعيم المقيم والملاذ التي لم ترها عين، ولا سمعتها أذن، ولا خطرت علي قلب بشر. فمن خدعته شهواته الخبيثة، عن الفوز بتلك المواهب الأبدية الشريفة، وفرح بتلك الخساسات والرذائل التي لا ثبات لها، فقد أعد نفسه للمقت من خالقه عز وجل، وسارع في تعجيل العقوبة له، وإراحة العباد والبلاد منه .

ومعلوم أن الخيرات والشرور من الأفعال الإرادية إما باختيار ما أمر الله به، والعمل به والرضا عنه فيه، أو باختيار ما نهي الله عنه والتلذذ به والغفلة عن التوبة. ولما كانت السعادات الدنيوية، وتحصيل السعادات الأخروية، لا يمكن أن يقوم بها كل واحد بنفسه، لزم أن يقوم بها جماعة كثيرة من الناس، وأن يجتمعوا علي تحصيل تلك السعادة المشتركة، لتكميل كل فرد بمعاونة الباقين له، حتي يكون المسلمون كجسد واحد، كل فرد منهم عضو عامل لخير الجسد كله فتكون الخيرات مشتركة، والسعادة بينهم، حتي يقوم كل واحد منهم بجزء منها، وتحصل للجميع بمعاونة الجميع، ولذلك أوجبت الشريعة علي الناس

---

(١) سورة السجدة آية ١٧ .

أن يحب بعضهم بعضا، وحرمت التباغض والتنافر والعداوة والاعتداء، لأن كل واحد يري كماله عند الآخر، وكمال الإنسان بتمام أعضاء بدنه.

ولما كانت قوي النفس ثلاثة كما تقرر: وهي القوة التي بها الفكر والشوق إلى معرفة الله تعالي، وتحصيل العلوم الحقيقية المسماة (بالملكية أو الناطقة). والقوة التي بها الغضب والنجدة والإقدام علي العظائم، والميل إلى التسلط والترفع، وأنواع الكرامات والسعي فيما يبلغ إلى نوال ذلك وتسمي (بالغضبية أو السبعية). والقوة التي تكون بها الشهوة وطلب الغذاء والحظوظ الجسمانية التي في المأكل والمشرب والمنكح، وتسمي (البهيمية أو الشهوانية) .

ومن المعلوم أن إحدي تلك القوي إذا قويت أضرت بغيرها، أو أبطلت عمل غيرها، كما نري في بعض من قويت نفسه الشهوانية أنه أدني من البهائم لفجوره ومجاهرته، وبعض من قويت نفسه الغضبية أنه أضر من الوحوش لتهوره وظلمه، ومن غلبت عليه نفسه الملكية، فارق نوع الإنسان وصار شبيها بالملائكة في أخلاقه وأعماله الصادرة عنه، وخير الأمور الوسط، وهو الفضيلة التي أمر الله بها، وأمر بها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[2] وكما قال ﴿ ﷺ وآله﴾: « ألا أخبركم بأحبكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة؟ قالوا: بلي يا رسول الله، قال: أحاسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون» وكما قيل: خير الأمور الوسط. وقد تكون تلك القوي – مع التوسط – نفسا واحدة، لأنها تنقاد للنفس الملكية، فلا تختار إلا ما يحبه الله تعالي ورسوله من العقائد والعبادات والآراء والأخلاق والمعاملات.

---

(١) سورة الفرقان آية ٦٧ .

(٢) سورة البقرة آية ١٤٣ .

وشرح هذا الباب لا يعنينا في هذا المختصر الذي قصرنا النظر فيه علي الكليات التي بها يستنير قلب المرشد والمسترشد، ويكفي المطلع أن يعلم أن للنفس قوي ثلاث متباينة، يقوي بعضها ويضعف حسب المزاج أو العادة أو التزكية.

ولما كان لكل نفس كمال به يكون جمالها، وتصدر عنها الفضائل، كانت الفضائل ثلاث: لأن للنفس الملكية فضيلة وهي العلم والحكمة، لأنها متي كانت حركة النفس الملكية من ذاتها ومعتدلة، واشتاقت إلى المعارف الصحيحة التي ليست بجهالات حدثت عنها فضيلتها التي هي فضيلة (العلم، اللازم لها الحكمة)، ومتي كانت حركة النفس الشهوانية معتدلة منقادة للنفس الملكية غير منهمكة في اتباع هواها حدثت عنها فضيلة (العفة، ويلزمها السخاء) ومتي كانت حركة النفس الغضبية معتدلة مقتدية بالنفس الملكية غير متهيجة، حدثت منها فضيلة (الحلم، وتلزمها فضيلة الشجاعة) ومتي اعتدلت تلك النفوس وقويت النفس الملكية وظهرت الفضائل الثلاث، لزمها فضيلة رابعة وهي أكمل الفضائل وأعلاها، وهي فضيلة (العدالة).

فالفضائل إذن أربع: العلم ويتبعه الحكمة، والعفة ويتبعها السخاء، والحلم ويتبعه الشجاعة، والعدالة وهي جماع الخير بها الفخر، وبتوفرها في الشخص السعادة ولا فخر بغيرها. ومن افتخر بآبائه وأجداده فذلك لأن الله وهبهم تلك الكمالات، ومَنَّ عليهم بهذه المحاسن. ولا تكون تلك الفضائل فضائل حقيقية إلا إذا ظهرت لوازمها في غير الشخص المتجمل بها، فإن العلم لا يكون فضيلة للشخص إلا إذا نفع غيره، والشجاعة لا تكون كذلك إلا إذا نفعت الغير بالذود عن الدين وعن الضعفاء وعن الأعراض وإقامة الحدود. والسخاء لا يكون فضيلة إلا إذا بذل المال في وجوهه الشرعية، وأعان به العلماء العاملين، الأتقياء الصالحين لوجه الله العظيم، وكل تلك الفضائل لا تسمي فضائل حقيقية إلا إذا كان صاحبها من العارفين بالله تعالي، العالمين بتصريف الأحوال والنيات.

رذائل النفس:

تقدم أن الفضائل أربع، لأن كل فضيلة وسط بين رذيلتين كما قررنا، إلا أن أصول الرذائل أربع، وهي أضداد الفضائل: الجهل والشره والجبن والجور، وتحت هذه الأجناس أنواع من الرذائل لا تحصي، وهي أمراض نفسانية تحدث منها علل كثيرة، كالخوف والحزن والغضب لغير الله تعالي، وأنواع العشق الشهواني وضروب من سوء الخلق، من أحب معالجتها فليراجع ما كتبناه في الأخلاق في غير موضع من كتاب: (شراب الأرواح) وفيما كتبناه من الآداب في : (أصول الوصول) وما كتبناه من الحكم في رسالة: (أصول الطريق)

هي النفسُ للداني تحن وترغبُ ... وللعاجل الفاني تميلُ وتطلبُ
هي النفس تهوي حظَّها ولو أنها ... أضاء لها التحقيقُ من ذاك تهرب
أيا نفسُ لو تدرين عاقبة الذي ... ترومينَه جهلا لصحَّ التجنب
فزهرةُ دنياك الغرورةِ بهجةُ ... ولكنها سُم يُذابُ ويُشرب
تغرُّ رجالا جاهلين بقدرهم ... وتخدعهم بجمالها ثم تسلب
أيا نفسُ إن تصفي وتزكي وتطهرى ... تلوح لك الأنوارُ يصفو التقرب
وتشرق شمسُ الحقِّ من كل وجهةٍ ... عليك وهذا الوهمُ بالحقِّ يغرب
أيا نفس يا كنزَ الجمالاتِ كلِّها ... ويا مطلع الأسرارِ ربي أقرب
فلو نَفسا طُهِّرْتِ من رينِ مبعدٍ ... لك الراحُ في روضِ المعية يُوهب
دعي عنك زهرةَ عاجلٍ وتحققي ... وللحق أوبي تصفُ ثَمَّ المشارب
علي سنة المختارِ طه إمامنا ... ألا فاهجي فالمستقيمُ محبب

تعريف الفضائل :

١- الحكمة: هي فضيلة النفس الملكية، وقد تقدم شرحها مفصلة في أول الكتاب، ولكني أقول هنا باختصار: الحكمة أن تعلم الأمور الإلهية والإنسانية حتي ينتج من العلم بهما أن تعرف ما يجب أن يعمل شرعا وعقلا، وما يجب أن يترك شرعا وعقلا.

٢- العفة: هي فضيلة الحس الشهواني، وهي حفظ الأعضاء من المحظور شرعا مع البهجة بذلك، حبا في ذات الله وتعظيما لأحكامه، حتي لا يخالف أوامر الله تعالي في صغيرة ولا كبيرة بمجاهدة تامة، حتي تكون فطرة للنفس ويصير ذلك عبداً لذات الله، حرا لا يستعبده شيء من شهواته.

٣- الشجاعة: هي فضيلة النفس الغضبية إذا اقتدت بالنفس الملكية باستعمال ما يوجبه الشرع من الأعمال الهامة، كالصبر علي العظائم، والإقدام علي القيام بالعظائم، والجلد عند الهول، كل ذلك في ذات الله تعالي وفي نوال فضله ورضوانه، فلا يخاف من الأمور المزعجة إذا كان فعلها لله تعالي، والصبر عليها محمود.

٤ – العدالة: هي فضيلة النفس تحدث لها إذا تجملت بتلك الفضائل الثلاث، وأحبت الجناب المقدس ورغبت في فضله ورضوانه، فإنها بذلك توسم بسمة يختار بها الإنسان دائماً الإنصاف من نفسه علي نفسه أولا، ثم الإنصاف والانتصاف من غيره وله، كل ذلك حبا في الحق، وتخلقا بأخلاقه العلية سبحانه، وتحت كل فضيلة من تلك الفضائل أنواع من الفضائل، تعلم لمن صفت نفسه بالبداهة.

دواء النفس من أمراضها:

أكثر علماء الأخلاق الكلام في أمراض النفوس وعلاجاتها، كما أكثر الأطباء الكلام في أمراض الأجسام وأسبابها وعلاماتها، والحقيقة أن النفس تكون أمراضها إما لازمة لها مقهورة عليها، ولا سبيل إلى علاجها كما يحصل لأصحاب الأمزجة المختلفة، والذين اختلف تركيب أبدانهم، فنشأوا غير مؤهلين للفضائل ولا قابلين لها ممن فقدوا قوة العقل والفهم، وابتلوا بفساد المزاج واختلاف الأعضاء، وكل واحد من هؤلاء إنسان في الصورة، ولكنه يشبه نوعا من أنواع الحيوانات عملا أو خلقا إن نافعا وإن ضارا، وأما من اعتدلت أمزجتهم، وتناسبت أعضاؤهم، فهم المؤهلون للعلوم والفضائل، وأكمل دواء لهم العناية بهم وهم صبيان، بتمرينهم علي الأعمال الفاضلة، والأقوال الفاضلة، وبث روح الدين في قلوبهم، حتي ينشأوا مؤمنين بالله ورسله وكتبه، مصدقين بالثواب والعقاب،

محافظين علي ما ينالون به حسن الجزاء في المستقبل والخير والكرامة، ويتباعدون به عن العقوبة والشر والغرامة.

وكل ذلك لا يمكن أن يتحصل عليه إلا بمدارسة التعاليم القرآنية، والوصايا النبوية، وتلقينها بالعمل أولا من الآباء والإخوان، وبالعلم من العلماء والأساتذة، وبالتذكير عند النسيان أو الغفلة بعبارات مؤثرة مقبولة علي قدر عقل الطفل، فإذا كبر ووقع في رذيلة من الرذائل فالدواء الحقيقي إقامة الحدود الشرعية التي تكبح جماح المفسد، وتكون عبرة لغيره، والشفاء الحقيقي كتاب الله وسنة رسوله وهدي الأئمة الراشدين المرشدين، والعمل الجميل لا يخفي علي إنسان، والله أسأل أن يمنحنا العناية والتوفيق لما به نيل رضاه وفضله آمين.

لذة النفوس الطاهرة:

تكون باتباع أولياء الله تعالي، واعتقاد عقيدة الخواص من عباده الصالحين، ومذهب الربانيين الذين أسلموا لربهم ولم يشركوا معه غيره لا سرا ولا علنا، وهم الذين صفت قلوبهم عن درن الشهوات الجسمانية، وطهرت أخلاقهم من العادات الرديئة، فاضمحلت عن ضمائرهم الآراء الفاسدة، وصانوا جوارحهم عن الأعمال السيئة، وألسنتهم عن الفحشاء والمنكر، وأخلصوا سرائرهم مع الله ولم يعترضوا عليه في شيء من تدبير خلقه سرا وعلانية، فأصلح الله قلوبهم وزكي نفوسهم وطهر أخلاقهم، فهم لا يضمرون لأحد من خلق الله تعالي سوءا، ولا يرون لهم علي أحد فضلا، صالحوا الخلق سرا وجهرا لما وصفهم الله بقوله: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَي الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾(١) فهم يمشون علي الأرض بأجسادهم، ونفوسهم متعلقة بالمحل الأعلي، ذلك أنهم لما عرفوه تركوا كل شيء سواه، واشتغلوا به وبذكره ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

(١) سورة الفرقان آية ٦٣ .

الْمُحْسِنِينَ ﴾[1] ﴿ مَا عَلَي الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾[2] وسئل النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ ما الإحسان؟ فقال: « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » كيف لا يراه أولياء الله؟! ولا يشاهده أصفياؤه؟! وهم معتقدون متحققون بقوله: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَي ثَلَاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَخَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾[3].

وبقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بأَعْيُننا ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَي ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾[7].

هذا وليس من لذة النفوس ولا سرور الأرواح ولا فرح القلوب ألذ وأروح من روح الأنوار، وبرد اليقين في قلوب أولياء الله تعالي، بما وعدهم يوم يلقونه من نعيم الجنان، وما يرضونه من نيل الثواب وجزيل العطاء في الآخرة، وما يجدون في نفوسهم من شدة الشوق إلى رؤيته لشدة محبتهم إياه وكثرة ذكرهم إحسانه، كما قيل: جبلت القلوب علي حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾[8] وقد وبخ الله من يحب غيره وذمهم بقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾[9].

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٥ .
(٢) سورة التوبة آية ٩١ .
(٣) سورة المجادلة آية ٧ .
(٤) سورة ق آية ١٦ .
(٥) سورة الطور آية ٤٨ .
(٦) سورة طه آية ٤٦ .
(٧) سورة الحديد آية ٤ .
(٨) سورة البقرة آية ١٦٥ .
(٩) سورة البقرة آية ١٦٥ .

ثم اعلم أنه هذه اللذة التي وصفناها أن قلوب أولياء الله تسارع نحوهـــا في دار رضـــوانه الأكبر، ومقر رحمته ونعيمه المقيم، انكشفت لقلوبهم في تلك الدار الدنيا بعين اليقين، كما تكشفت لهم الدنيا عن حقيقة زوالها ودناءتها، فاشتد شوقهم إلى ما أعده الله لهم وأخـــبرهم به سبحانه رغبة في نوال رضاه الأكبر، والفوز بسعادة التنعم بجمال وجهه العظيم.

تولوا رهم بالقيام بأوامره، والإقبال بالإخلاص علي ذاته، فتولاهم الله تعالي بحقيقة الولايـــة حتي صار سبحانه وليا لهم وهم أولياء له، فلم تشغلهم الدنيا عن الآخرة، لأن الله ســـبحانه رغبهم فيها، ولا الآخرة عن الله تعالي، لأن الله وليهم، فهم المنظورون بـــأعين الله تعـــالي، المشاهدون لجمال وجهه سبحانه ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[١] أعاهم الله فصفت نفوسهم، وواجههم بوجهه الجميل فأشـــرقت عليهم أنوار القرب وعلامات الحب، فهم صفوة الله من عباده ﴿ وَفِي ذَلِـــكَ فَلْيَتَنَـــافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾[٢]. أسأل الله تعالي أن يجعلنـــي وإخوانـــي وأهلي ممن صافاهم واصـــطفاهم إنه مجيب الدعاء.

بــــهجة الــــروحِ بالجمــــالِ العلـــي	لا بملـــــك يفنــــــي وحـــــظ دني
وابتـــهاجُ الحيـــوانِ أكـــلٌ وشــربٌ	ونكـــــاحٌ وذاك قصـــــدُ القصـــــي
وابتـــهاجُ الشـــيطانِ حســـدٌ وكـــبرٌ	بفســـــــادٍ وفرقـــــــةٍ وبغَـــــــي
وابتـــهاجُ النفـــوسِ بعـــد زكاهـــا	رغبـــــة الفـــوزِ بالمقـــامِ الهـــني
في ريـــاض الجنـــاتِ في رغـــد العـــيش	بمـــرأي هـــذا الجمـــالِ الجلـــي
بـــين تلـــك النفـــوس بـــونٌ بعيـــدٌ	في خفـــاءٍ عـــن مـــدركِ الألمعـــي
هـــي نفـــس إن طهـــرت وتزكـــت	تتهنـــــــي بحظـــــوةٍ بـــــالولي
وهـــي إبلـــيسُ إن أبَـــتْ وتعالـــت	وتعامـــت عـــم سِـــرِّها الآدمـــي

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٣ .

(٢) سورة المطففين آية ٢٦ .

وهـــي حيـــوان بـــل أضـــلُّ ســـبيلا   إن تَسَـــلَّتْ عـــن حســـنِها بالـــدين

التنافس:

النفس الملكية تواقة إلى عالمها العلوي، تشتاق للاتصال به علماً وعملاً وحالاً، ولكن الفطر البشرية تحول بينها وبين ما جبلت عليه من الاستشراف إلى علومها ومعارفها ومشـاهدها، فإذا أكرم الله الإنسان بعالم عامل بجميع الأعمال وعليٍّ الأحوال، وكانت قـواه البشـرية متوسطة لا تحجب النفس الملكية عن شهود علومه وأعماله وأحواله لاشـتغالها بـدواعي الحظوظ والأهواء البشرية، فإن النفس بميل الإنسان إلى هذا العالم تستيقظ من نومها بحظوظ الجسم، واشتغالها بأهوائه، فتشرق عليه شمس أنوار الملكوت وتنكشف له حقائق الأسـرار وما عليه العالم العلوي من المشاهدات، والقيام بالطاعات والقربات فتحصل العزيمة والرغبة والشوق والوله والمسارعة إلى المزيد من العمل، وتحصيل المعارف الحقة، والعقائـد الحقـة، والتخلي عما كان عليه من قبيح العمل، ورديء الاعتقاد، وسيىء الخلق، وشـر الحـال، فتحصل المنافسة في طلب الخير، والتجمل بالمعانـي القدسية، حـتي يتشـبه بالملائكـة الروحانيين، وتدوم منافسته حتي تجلي له حقائق صادقة في نفسه وفي الآفاق، فتبدل صفاته وأطواره ومعارفه وعقائده وأعماله بالمعانـي الروحانية، حتي يكون روحانيا حقـا ربانيـا صدقاً.

وبذلك يتخلق بأخلاق ربه العلي ويتصف بالقرآن، ويكون في معيـة رسـول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وهو البدل الكامل والإنسان الكامل، الذي انجذب بكليته إلى الجنـاب العلـي، وواجهته الجمالات الربانية، وفاز بالمنازلات الإلهية، ويكون قلبه مواجهاً الجبروت الأعلي بعد مواجهته للملكوت والعزة، وتكون هممه وعزائمه وإقباله ومعارفه وفقهه في الله ومـن الله، وله في كل نفس فيوضات ومواهب ترد عليه من حضرة المـنعم الوهـاب سـبحانه وتعالي، وقد تبلغ المنافسة مبلغا تجعل المنافس يبذل النفس والنفيس في نوال حظـوة مـن حظوات القدس.

نسأل الله تعالي أن يمنحنا الإخلاص لذاته، والصدق في معاملته، والحفاظ علي السنة والعمل بها، وصلي الله علي سيدنا محمد وآله وورثته والتابعين آمين.

السرائر:

المريد الصادق يجاهد نفسه في بدايته أن تألف الحسن من العمل والقول، ويجتهد في تحملها العمل الفادح لتقف عند الحد الوسط في خير الأعمال، خوفا من أن تتعاصي عليه عند عمل الواجب أو تتهاون به، حتي إذا ارتاضت وألفت جمال الأعمال والأقوال، وأنس منها بالسهولة عند تأدية ما لابد منه، حرمها من بعض لوازمها ومعتادالها، مما لا يضر بها عقلا ولا جسما. حتي تعتاد الخشن من الملبس، والنذر القليل من المأكل، وترضي بالمترلة التي كانت تستنكف منها وتستقبحها، وتألف الابتذال والتقلل من الدنيا وزينتها، والتجافي عن زهرها وغرورها، آلفاً الفضائل الشرعية والكمالات الدينية، آنساً بالذكر والفكر والشكر والابتهال، حتي يملك نفسه ملكا يجعلها منقادة له سلسة الانقياد، فيما ينفعها في آجلها مما هو خير وجميل شرعاً .

لديها يعطف عليها ويجدد أنسه بها بقدر معلوم، مادامت في طوعه متلذذة بالكمالات النفسانية، ويعينها علي ما تحن إليه من الشوق إلى عوالم الأرواح، ومشاهدات الأنوار والتشبه بالصديقين، والسعي إلى منازل القرب من حظائر القدس الأعلي، والمسارعة إلى جنات المشاهدات التي عرضها السموات والأرض، وكشف حجب الجهالة والحظ والهوي عن نفسه الملكية، التي بكمالها يدخل تلك الجنة، فلا يري شيئاً في السموات والأرض إلا ويشهد فيه من جمال الجميل وحكمة الحكيم، وغريب تصريف قدرة القادر، ما يجعله في روضات الجنات متنعما بأبدع النعم.

فإذا بلغ تلك الحظوة أشرقت علي سريرته أنوار معاني الصفات، ومجلي كمالات الذات فوُجه بالوجه، وصار روحانياً ملكوتياً محفوظاً من لمة الشيطان وسلطان العدو، وحظ النفس وهو الطمع. وصار هواه أن يكشف له الحجاب عن جمال الجناب، وهواه شغله بذكر مولاه عمن سواه. ولديها يكون الإنسان الكامل، بل العالم الكبير الذي هو قلب

العالم، مشكاة الأنوار وسر تنـــزلات الفتاح العليم الهادي الرحيم التواب الغفور، وتكون حركاته وسكناته ومشيئاته وحظوظه وأهواؤه في رضوان الله تعالي، ورضاء رســـول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لأنه ولي الله تعالي، لا خوف عليه ولا يحزن، تتوالي عليه البشائر في كل لمحـــة، وتفاض عليه الأسرار والمنن والمنح في كل نفس، أعاهم الله تعالي وأحسن إليهم، فأحسنوا إلى أنفسهم فعاملهم بالحسني، وزادهم من فضله والله ذو الفضل العظيم.

قد أفلح من تزكى

١- فلاح تزكية النفس:

الفلاح الفوز بأقصي الكمال، ونيل نهاية السعادة، وبلوغ غاية الأمل، وتلك المنن والمـــنح والعطايا كلها من الله الواسع العليم، فلا يمكن للسان أن يعبر عنها لأن ما يعبر عنه اللسان لابد وأن يكون مشهودا للحس والعيان، أو للقلب بالكشف أو بالبيان.

وتلك العطايا بشرنا بها ربنا جلت قدرته متفضلا بها علي من زكي نفسه وطهرها، ولم يبين لنا حقيقتها، لأنها مواهب تناسب وسعة فضله وجميل كرمه، وعليَّ قدره وعظيم منته من مشاهد ملكوته الأعلي، والعروج إلى عوالم الروحانيات، وآفاق المقربين، وفيض آلائه مـــن علم اليقين وعين اليقين، والتشبه بعوالم القدس الأعلي، والتجمـــل بـــالأخلاق الربانيـــة، والتعطف عليه بالخلافة عن جنابه العلي حتي يكون مجملا بمعانـــي الصفات، متحلياً بتجلي حضرات الأسماء، مواجها بالوجه العظيم، والمنازلة الرحموتية، كل ذلك لا يمكن أن يصـــفه واصف، ولا يتمثله خيال بعبارة، إلا بالفيض الإلهي الذي تعجز العقول عن الحيطة بـــه، إلا بمعونة من الله تعالي للممنوح، فكيف يتمكن أن يصرح بها لغير الممنوح ؟! فسبحان المنـــان الكريم المعطي الوهاب. هذا ما يفيده الفلاح المرتب علي تزكية النفس.

٢- فلاح تزكية الجسم:

وتكون بالطهارة، والتخلية عن كل عائق عن بلوغ السعادة ونوال الفوز الأكبر، والقـــرب من حضرة الحق، وهذا العائق من عقيدة أو حال أو عمل أو أمل، وأساس تلـــك المراتـــب وباب هذه المقامات العقيدة الحقة، بقدر ما يقبل العقل الكامل من العلم بـــالحق ســـبحانه، علما يقينيا مؤيداً بنور اليقين، وحقيقة التمكين، ولا تكون هذه العقيدة بالعقل ولا بـــالنظر في الكائنات، ولا بكشف أسرار مراتب الوجود، لأن ذلك يؤدي إلى إثبات صانع إبـــداع هذا الوجود، ولكنه لا يؤدي إلى معرفة كمالاته وجمالاته ، ولا إلى ما يحبه من القول والعلم والحال، ولا إلى ما أوجبه، وكلف به عباده من القربات والأوامر والنواهى.

فيجب علي المريد المخلص أن يتلقي تلك العقيدة من كتاب الله تعالي، وكتاب رســـوله ﴿ ﷺ وآله﴾ عن عالم متمكن عارف بالله تعالي، ثم يزيد إيمانه بالفكر فيما أمر الله بالفكر فيه، مما ورد في آيات القرآن الكريم، بعد معرفة أسرار الكائنات، وفهم آياتـــه الدالـــة علـــي عجيب القدرة وسر تصريفها، وغرائب الحكمة وجلي أنوارها، حتي يكون آنساً بمشـــاهدة الحق ظاهراً في آياته باطناً في عظموت كمالاته.

فإذا ذاق حلاوة الإيمان بتلقي العقيدة من العالم العارف الورع الزاهد الناهج علي المنـــهج القويم، والصراط المستقيم، وأنس بعلم أسرار مراتب الوجود، ومشاهدة أنـــوار واجـــب الوجود ومبدع الكائنات من العدم، وكوشف بما انطوي فيها من أسرار نظامها، وإحكـــام ترتيبها، وما فيها من الخصوصيات، وما أودع فيها من المنافع والخير، ونظر تسخير الكـــل للإنسان من الأفلاك العلويات وحركاتها، والسموات وما فيها، والجبال وكنوزها، وفائدتها التي هي حفظ الأرض من الميد واختلال التوازن، والأنهار وسر سيرها ونفعها العالم، كـــل ذلك مشاهد لأهل المراقبة ورياض نزهة أهل المجاهدة، المتشوقون لخفي الأسرار، المشتاقون إلى شهود الأنوار.

أقسام التزكية

أولا: تزكية النفوس:

قال الله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾(١) النفوس علي التحقيق عند العلماء خمسة أنفس: نفس قدسية، ونفس ملكية، ونفس حيوانية، ونفس نباتية، ونفس جمادية.

١- النفس القدسية:

نفخة الحق من روحه في هيكل باركه سبحانه وبارك فيه وبارك له، وهو جسم الإنسان الكامل الذي انطوي فيه العالم الأكبر، وهو صورة الحق المجملة بمعاني أخلاقه الربانية، وهو الإمام الأعظم للأرواح والأشباح، خليفة ربه ووارث الولاية الكبري الأحمدية، المتنعم بالمعية المحمدية الموصوف في آخر الفتح، ولأجله العوالم كلها، ومنه إمدادها، وله سخرت، قصر همه علي الله سبحانه، ووقعت به المعرفة علي حق اليقين، وهو العبد المخلص للذات الأحدية، الصادق في معاملة رب البرية، المتلقي القرآن عن قلبه عن ربه، وهذه النفس جلت عن العبارة والإشارة والحد والرسم ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(٢) ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾(٣) ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾(٤) والخلق عجز العقل عن إدراك حقائقه وحكمه وأسراره، فكيف الأمر؟ والروح من أمر الله سبحانه، وهي الطاهرة المطهرة الزكية المزكية القدسية، الشمس المضيئة عوالم الملك والملكوت والعزة والجبروت .

---

(١) سورة طه آية ٧٦ .

(1) سورة الحجر آية ٢٩ .

(2) سورة النساء آية ١٧١ .

(3) سورة الشوري آية ٥٢.

٢- النفس الملكية :

هي النور المضيء لأفق الحواس العاملة الذي به الإدراك والفقه والحركة في عوالم الملكوت وكشف أسرار التجليات، وفهم غوامض العلوم، والتجمل بجميل الأخلاق وكمال الصفات، ومتي صار لها السلطان علي البدن، كان الإنسان ملكا وأكمل، لأن الملائكة تتولي منفعته ودفع المضرة عنه، وتسخر له في مقعد صدق، وتلك النفس الملكية هي المديرة لجميع النفوس، وإنما تكون قائمة بأمور الجسم إذا قهرت بقية النفوس، وحبستها عن نزغاتها ورعوناتها، فإن تسلطت عليها النفوس الأخري، كان لها تدبير شئون تلك النفوس، وإعانتها علي غاياتها، وبذلك يكون الإنسان حيوانا وأقل أو شيطانا وأضر، نعوذ بالله تعالي من تسجيل سوء القضاء علي الإنسان، والحكم عليه بسابقة السوءى.

وتزكية النفس الملكية يكون بمعونة من الله تعالي بإيجاد الأسباب المعينة علي ذلك من والدين وأخوة وإخوان، واعتدال مزاج، وتناسب جسم، وحفظ من فساد بمرض أو غرض، وإعانة من الله تعالي بصحبة مرشد عارف بأمراض النفوس ورعوناتها، حتي يكبح تلك النفوس ويخضعها للملكية، فتسارع في رغباتها من الفكر والذكر والقربات والثقة بالله تعالي، وحسن معاملة الخلق، والانتهاج علي منهج السيد ﴿ﷺ وآله﴾، وبذلك تتجرد النفس الملكية للأعمال الخاصة بها من العروج إلى فسيح الملكوت، والشوق إلى حضرة القدس، والتأله للحق بالحق، فيكون البدن منجذبا معها خاضعا لها مطيعا لأوامرها، حتي يرد موارد المقربين، ويفوز بالقرب من رب العالمين، والتشبه بالأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ويتأهل بالتخلق بأخلاق ربه، وعندها يتفضل ذو الفضل العظيم، فينفخ فيه من روحه، الروح التي بها العقيدة الحقة، والأخلاق الفاضلة، والعبادات والمعاملات.

٣- النفس الحيوانية وهي نوعان:

أ- نفس غضبية:

وبها دفع المضار عن الإنسان، وجلب المنافع، فهي التي بها الشجاعة والإقدام، والصبر وعلو النفس، والحلم وتحمل الشدائد في اكتساب الخيرات والمبادرة إلى عمل القربات، إذا

انقادت إلى النفس الملكية وبها الهلع والجزع والطيش والتهور والتعدي والكبر والظلم والجور، إذا أهملت عن التهذيب والتزكية.

ب- النفس الشهوانية:

وبها تحصل العفة والحياء والزهد، والورع والأمانة والخشية، والرهبة والرغبة والرجاء والطمع في الفضائل، إذا هذبت وانقادت للنفس الملكية. ويحصل بها الفجور والفسوق والفحشاء والجبن، والمذلة والتملق والخداع، والشره والكيد والمكر وسوء الظن، والتطرف في الشهوات إذا أهملت، فالنفس السبعية والشهوانية يتحدان علي الشر، فتكون منهما قوة شيطانية تجذب الإنسان إلى المساخط والمقت، وينحط حتي يكون أضل من البهائم سبيلا، وأضر من الشيطان عملا، ويتحدان علي الفضائل حتي يكونا قوة واحدة لمعاونة النفس الملكية، فيتشبهان بها في إطاعتهما أوامر الله سبحانه وتعالي والعمل بما كلف، فلا يعصيان الله ما أمرهما، ويفعلان ما يؤمران به، حتي تتحد تلك النفوس كلها فتصير نفسا واحدة، كما قيل لرجل: صف لنا بني فلان، فقال: هم ألف وفيهم حكيم، فهم يصدرون عن رأيه فكأنهم ألف حكيم.

وهكذا تترقي النفس الغضبية والشهوانية إلى أن تكملا كمالا حقيقياً، وتتحدا بالنفس الناطقة، فتنالان الفوز بالفردوس الأعلي في النعيم المقيم، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

أما تدبير النفس النباتية والجمادية وتدبير الأجسام، فمبين في علوم الزراعة، وعلوم التركيب والتحليل، وعلوم الطب الإنساني والبيطري، وقد اختص بكل علم من تلك العلوم رجال لابد منهم لسعادة المجتمع الإنساني، ولا حاجة لنا بالخوض في هذه العلوم، وقد بين الله لنا علوم الطب في أقصر آية، قال تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا ﴾ وبين لنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ علوم الطب في حديث واحد وهو قوله ﴿ ﷺ وآله﴾:« المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء » فمن فهم هذا الحديث عاش زكي الجسم، محفوظاً

من الأمراض، وقوله ﴿ﷺ وآله﴾: للطبيب الذي أرسله المقوقس عندما رده: « إنا لا نأكل إلا إذا جعنا وإذا أكلنا لا نشبع » .

وهذا هو كمال الضوابط الصحية إذا اتصل بذلك النظافة الإسلامية، والتهجد ليلا، والتبكير بصلاة الصبح، حصل للمسلم الغني عن الطبيب والدواء، خصوصاً إذا تباعد عما حرمه الشرع، وأدي الصيام كما أمر، وقلل أنواع المأكولات، كما أمر الشرع الشريف، وعمل بيده للكسب كما أوجب الشرع، وترك الترف، فإنه يعيش في عافية من الآلام، والله سبحانه وتعالي أعلم بما به حفظ صحتنا ونوال سعادتنا، فأمرنا ونهانا وبين لنا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ والله أعلم.

المراقي للتلاقي   علمُ أنفسكم رفاقي
والمعارجُ للتداني   أن تسيرَ علي وفاق
والمدارجُ للتنائي   أن تميلَ إلى الشقاق
والتحلي بالمعاني   محوُ أنت بنورِ باق
وارتشافُك من طهوري   أن تضيء بلا محاق
شمسُ أفقٍ في سمائي   مشرقاً أفق الأماق
مت مختارا فلاحت   فيك شمس نور باق
عبدُ ذاتٍ قد تحلى   بالمعاني والرقاق
لوحُ محفوظٍ وبيتٌ   عامرُ بالوصفِ راق
حيثما وليتَ ترأي   بالبصيرةِ وجهةَ واق
تلك رتبُ السير ذُقْها   بعد ها رشفُ الد هاق
بعدها قرب ووصلٌ   واتحادٌ عن تلاق
بدلُ أمُّ كتابٍ   وصراطٌ ومراق
وهدي نورٍ مبين   وسراجٌ للرفاق
نعمة الله تعالى   وطهورٌ بل وساق

السعادة الحقيقية :

ومن أسعد السعادة أن يتفق لك يا أخي معلم رشيد، عالم عارف بحقائق الأشياء والأمــور، مؤمن بيوم الحساب، عالم بأحكام الدين، بصير بأمور الآخرة، خبير بأحوال المعاد، مرشــد لك إليها، ومن أنحس المناحس أن يكون لك ضد ذلك.

واعلم بأن المعلم والأستاذ حياة لنفسك، وسبب لنشوها وحياهـا، كمـا أن والـدك أب لجسدك، وكان سببا لوجوده، وذلك أن والدك أعطاك صورة روحانية، والمعلــم يغــذي نفسك بالعلوم، ويربيها بالمعارف، يهديها طريق النعيم والسرور واللذة الأبديــة والراحــة السرمدية، كما أن أباك كان سبباً لكون جسدك في دار الدنيا ومربيك ومرشدك إلى طلب المعاش فيها، التي هي دار الفناء والتغيير والسيلان ساعة بساعة.

فسل يا أخي ربك أن يوفق لك معلما رشيدا هاديا سديدا، واشكر الله علي نعمائه.

الفصل الثاني

الأصل الثاني للوصول إلى اللّه

استقامة الطريق:

إخواني – ودني الله وإياكم بالصفا القدسي – اعلموا أن كل قاصد نحو مطلوب من أمور الدنيا، فإنه يتحري في مقصده نحو مطلوبه أقرب الطرقات وأسهلها مسلكا، لأنه قد علم أنه إن لم يكن له طريق قريب فإنه يبطيء في وصوله إلى مطلوبه، وأيضاً فإنه إن لم يكن الطريق سهل المسلك، فربما يعوق من البلوغ إليه، أو يتعب في سلوكه. وإن أقرب الطرقات ما كان علي خط مستقيم، وأسهلها مسلكا هو الذي لا عوائق فيه، فهكذا ينبغي أيضا للقاصدين إلى الله تعالي بعد تصفية نفوسهم، والراغبين في نعيم الآخرة في دار السلام، والذين يريدون الصعود إلى ملكوت السماء والدخول في جملة الملائكة، بأن يتحروا في مقصدهم أقرب الطرقات إليه كما قال الله تعالى: ﴿ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾[1]

(١) سورة الجن آية ١٤ .

وقال سبحانه: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ولاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَــاءَكُمْ ﴾[2].

ونحن نريد أن نبين ما الطريق المستقيم الذي وصانا به، وأمرنا باتباعه علي ألســنة أنبيائــه صلوات الله عليهم وسلامه، وننص أيضا كيف ينبغي أن نسلكه، حتي نصل إلى ما وعــدنا ربنا، كما قال الله تعالى: ﴿ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ﴾[3] ولكن لا يمكننا بيان ذلك بالحقيقة إلا بكلام مــوزون، وقيــاس صــحيح، ودلائل واضحة من بيان الله تعالي، وسنة أنبيائه صلوات الله عليهم، بالوصف البليغ لسائر آيات الله تعالي في الآفاق ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾[4] وإذا فصلنا ذلــك فتحــت أبواب العلوم المخزونة والأسرار المكنونة، التي لا يمسها إلا المطهرون.

واعلموا أيها الإخوان – أيدكم الله تعالي بروح من عنده – أنه لا ينبغي أن يتكلم أحــد في ذات الباري تعالي، ولا في صفاته بالحدس والتخمين، بل ينبغي له أن لا يجادل فيه إلا بعــد تصفية النفس، فإن ذلك يؤدي إلى الشكوك والحيرة والضلال كما قال الله تعالى: ﴿ وَمِــنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًي وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾[5].

وقد بدأنا أولا قبل كل شيء، فبينا كيف ينبغي أن نصفي النفس من الأخلاق الرديئة، التي اعتدنا عليها من الصبا، وجعلت لذلك في هذا الكتاب أبوابا شتي، وأريــد بتوفيــق الله وحسن معونته أن أضع أبوابا أخري أبين فيها ما الطريق المستقيم إلى الله عز وجل بــدلائل واضحة، ليكون منهاجا للقاصدين وإرشاداً للمريدين.

---

(١) سورة الأنعام آية ١٥٣ .

(٢) سورة الزخرف آية ٢٤ .

(٣) سورة الأعراف آية ٤٤ .

(٤) سورة الذاريات آية ٢١ .

(٥) سورة الحج آية ٨ .

ثم ابتديء بعد هاتين الجهتين بالكشف عن الأمور الإلهية الخفية والأسرار المخزونـــة، ممـــا عرفناه بإلهام الله تعالي، أو مما قد استنبطناه عن تفاسير أوليائه لكتابه العزيز، ومما قد جـــري علي ألسنة العارفين وإرشاداهم ورموزهم من بدء كون العالم بعد أن لم يكن، ووقوع النفس وغرورها، وخلق آدم وعصيانه، وحديث الملائكة وسجودهم لآدم، وقصة إبليس والجـــان واستكباره عن السجود، وشجرة الخلد والملك الذي لا يبلي، وأخذ الميثاق إلى ذرية آدم، وأخبار القيامة والنفخ في الصور والبعث والنشور والحساب وفصل القضاء، والجواز علي الصراط، والنجاة من النار، والدخول إلى الجنة، وزيارة الرب تبارك وتعالي، وما شاكل هذه من الأخبار المذكورة في الكتاب العزيز، وما حقائق معانـــيها.

لأن في الناس أقواما عقلاء مميزين، إذا فكروا في هذه الأشـــياء وقاســـوها بعقـــولهم، لا تتصور لهم معانـــيها الحقيقية، وإذا حملوها علي ما يدل عليه ظاهر ألفاظ التتريل لا تقبلـــه عقولهم، فيقعون عند ذلك في الشكوك والحيرة، وإذا طالت تلك الحيرة بهـــم أنكروهـــا بقلوبهم، وإن كانوا لا يظهرون ذلك باللسان مخافة السيف، وفي الناس أقـــوام دونهـــم في العلم والتمييز، يؤمنون ويعلمون أنها الحق، وأقوام آخرون يأخذونها تقليدا، ولا يتفكـــرون فيها.

وفي الناس طائفة إذا سمعوا مثل هذه المسائل نفرت نفوسهم منها واشمأزوا مـــن ذكرهـــا، وينسبون المتكلم أو السائل عنها إلى الكفر والزندقة والتكلف لما لا ينبغى.

فأولئك أقوام قد استغرقت نفوسهم في نوم الجهالة، فينبغي للمذكِّر لهم أن يكـــون طبيبـــا رفيقا، يحسن أن يداويهم بأرفق ما يقدر عليه من التذكار لهم بآيات الكتب الإلهية، ومـــا في أيديهم من أخبار أنبيائهم، وما في أحكام شرائعهم من الحدود والرسوم والأمثلة، فإن ذلك كله إشارات للنفس بالتذكار لها فيما قد غفلت عنه من أمر معادها ومبدئها، مثل مقـــادير الفروض التي فرضها الله تعالي، وما بينه النبي ﴿ﷺ وآله﴾ من تعـــيين أوقاهـــا، وبيـــان شروطها وكيفيتها، وتعيين الجهة التي يوجه إليها.

واجبات المرشد:

ولما كان المرشد يلزمه أن يذكِّر كل عباد الله من بني آدم ليجمع الخلق علي الحق، لأن المرشد الكامل وارث رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فعليه أن يجعل قسطا لتذكير النصراني واليهودي والصنمي، بشرط أن يكون كما قال الله تعالى: ﴿ ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾[1] فيتحبب إليهم بأن يبين لهم معاني الإنجيل إن كانوا نصاري، معظما له خشية تنفيرهم، والتوراة إن كانوا يهوداً كذلك، وينص في بيانه علي الإشارات والعبارات الدالة علي التوحيد، مع اللطف والحرص علي إقبالهم ونجاهم من هاوية البعد، فإن تعلقهم بظاهر أحكام شرائعهم، وحرصهم وعنايتهم بقراءة كتب أنبيائهم، واعتقادهم صواب ما فيها من أحكام الدين والدنيا، حجة عليهم، وحجة لمن يفهم منهم علي قسسهم وأحبارهم الجهلاء.

ويجب علي المرشد أن يجعل لعباد الأصنام والشمس والقمر حظا من دعوته، بشرط أن يحتاط من تنفيرهم وذم معبوداهم وعقائدهم، بل يجب عليه أن يبين لهم أسرار وضع الصور والتماثيل والهياكل والطلسمات، ويبين لهم سر وضعها ومبدئها، والإشارة إلى ذلك بشرط أن يكون محصلا لتلك الأسرار، حتي يميلوا إليه ويألفوه، ويقودهم إلى التوحيد بالرحمة والعاطفة، لأهم من بني الإنسان، وأن تلك المسائل التي يقوم ها المرشد، سالكا ها سبيل السنة في دعوة الخلق إلى الله تعالي، تشتاق إلى بياها النفوس، وتألفها الأسماع.

ولكن الناس فيها طوائف، طائفة إذا سمعوا مثل هذه المسائل تطلعت همم نفوسهم إلى أجوبتها، ورغبت في معرفة معانيها، فإذا سمعوا الجواب عنها، قبلتها بلا حجة ولا برهان، ولكن علي التقليد، أولئك قوم نفوسهم سليمة لم تتعوج بالآراء الفاسدة، ولم تستغرق في نوم الجهالة، فيحتاج المذكر أن يسلك هم طريق التعليم التدريجي، كما سبق لنا بيانه بالعبارة والكتابة والعمل. فإذا هذبت نفوسهم، وصفت أذهاهم، وقويت

---

(١) سورة النحل آية ١٢٥ .

أفكارهم، بينت لهم بأجوبة من هذه المسائل براهينها، كما بينا فيما كتبناه تحت عنوان الإنسان، وفي مواضع كثيرة نظمية ونثرية، مبينة لحقيقة الإنسان وصورته، وما بينا من الدلائل والبراهين الموجودة في صورة الإنسان مما يسلمه كل عاقل.

وفي الناس طائفة من أهل العلم قد نظروا في بعض العلوم، أو قرأوا بعض كتب الحكماء، أو سمعوا من المتكلمين في مناظراتهم، ومن المتفلسفين والشرعيين جميعا قد تكلموا في مثل هذه المسائل، وأجابوا عنها بجوابات مختلفة، ولم يتفقوا علي شيء واحد، ولا صح لهم فيها رأي واحد، بل وقعت بهم في ذلك منازعات ومناقضات، كل ذلك لأنهم لم يكن لهم أصل واحد صحيح، ولا قياس واحد مستو، يمكن أن يجاب به عن هذه المسائل كلها من ذلك أو علي ذلك القياس، ولكن كانت أصولهم مختلفة، وقياساتهم متفاوتة غير مبينة.

واعلموا أيها الإخوان – أيدكم الله بروح من عنده – أن الجواب علي أصول مختلفة، والحكم بقياسات متفاوتة، تكون متناقضة غير صحيحة.

ونحن قد أجبنا عن هذه المسائل كلها، وأكثر منها – مما يشاكلها من المسائل – علي أصل واحد وقياس واحد وهو صورة الإنسان. لأن صورة الإنسان أكبر حجة لله علي خلقه، لأنها أقربها إليهم، ودلائلها أوضح، وبراهينها أصح، وهي الكتاب الذي كتبه بيده، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته، وهي الميزان الذي وضعه بين خلقه، وهي المكيال الذي يكيل لهم به يوم القيامة، وما يستحقونه من الثواب والجزاء، وهي المجموع فيها صور العالم جميعاً، وهي المختصر من العلوم التي في اللوح المحفوظ، وهي الشاهد علي كل جاحد، وهي الطريق إلى كل خير، وهي الصراط الممدود بين الجنة والنار.

وينبغي لمن يدعي الرياسة في العلوم الحقيقية ويقول إنه يحسن أن يجيب عن هذه المسائل التي تقدم ذكرها، أن يطلب منه الجواب علي أصل واحد وقياس واحد، فإنه لا يمكنه ذلك إلا أن يجعل أصله صورة الإنسان من بين صور جميع الموجودات من الأفلاك والكواكب والأركان والحيوان والنبات وغير ذلك.

وإن جعل أصله أشياء غير صورة الإنسان فلا يمكنه أن يقيس بها سائر الموجودات، ولا يجيب عن هذه المسائل إلا بمثل ما قسنا عليه نحن وأجبنا عنه، إذا فعل ذلك اتفق الجميع علي رأي واحد، ودين واحد، ومذهب واحد، وارتفع الخلاف واتضح الحق للجميع، ويكون ذلك سببا لنجاة الكل، ونحن لا نرخص لأحد النظر في مثل هذه الأشياء، ولا السؤال عنها، إلا بعد تهذيب النفس بمثل ما قلناه ووصفناه في مباحثنا المتضمنة، هذا اقتداء بسنة الله تبارك وتعالي كما أخبر وقال: ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾[1] وذلك أن موسي (عليه السلام) قام لياليها وصام نهارها حتي صفت نفسه لمناجاة الله تعالي عند ذلك كلمه.

ويروى عن النبي ﴿ (صلى الله عليه) وآله﴾ أنه قال: « من أخلص العبادة لله أربعين يوماً فتح الله قلبه وشرح صدره وأطلق لسانه بالحكمة ولو كان أعجميا غلفا » .

فمن أجل هذا أوجب علي الحكماء إذا أرادوا فتح باب الحكمة للمتعلمين وكشف الأسرار للمريدين، أن يروضوهم أولا ويهذبوا نفوسهم بالتأديب كيما تصفو نفوسهم، وتطهر أخلاقهم. لأن الحكمة كالعروس، تريد لها مجلسا خاليا، فإنها من كنوز الآخرة، وإن الحكيم إذا لم يفعل ما هو واجب في الحكمة – من رياضة المتعلمين قبل أن يكشف لهم أسرار الحكمة – فيكون مثله في ذلك كمثل خادم ملك أذن لقوم بُله بالدخول علي الملك من غير تأديب ولا ترتيب، فإنه يستحق العقوبة عليه إن فعل ذلك، فإذا هو فعل ما قد يجب من تأديبهم، ثم لم يفعلوا ولا قبلوا منه، فقد برىء الحكيم من اللوم، ولزمهم الذنب، لأنك إذا قدمت الطعام والشراب لجائع فقد أشبعته، فإذا هو لم يأكل حتي مات جوعا فهو المأخوذ بدمه ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾[2] وفقك

---

(١) سورة الأعراف آية ١٤٢ .

(٢) سورة النساء آية ٩٣ .

الله أيها البار الرحيم وإيانا للرشاد، وسدد لك وإيانا وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد، إنه رءوف رحيم.

خصال الطريقة المستقيمة:

الطريقة المستقيمة تشتمل علي اثنتي عشرة خصلة، هي جامعة لأوصاف الإيمان:

١- أول ذلك الشهادتان وهي الفطرة.

٢- والصلوات الخمس وهي الملة.

٣- والزكاة وهي الطهرة.

٤- والصيام وهو الجنة.

٥- والحج وهو الكمال.

٦- والجهاد وهو النصر.

٧- والأمر بالمعروف وهو الحجة.

٨- والنهي عن المنكر وهو الوقاية.

٩- والجماعة وهي الألفة.

١٠- والاستقامة وهي العصمة.

١١- وأكل الحلال وهو الورع.

١٢- والحب والبغض في الله وهو الوثيقة.

وقد روينا بعض هذه الخصال عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وقد جاء نحوها عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله تعالي عنهما.

متي يكون المريد علي الطريقة المستقيمة:

يكون علي الطريقة المستقيمة، ويحصل له المزيد من مشاهد التوحيد، وتجدد الأحوال الروحانية، وتوالي الواردات الربانية، ويكون ممن لهم الأمن وهم مهتدون، إذا أعانه الله تعالي علي تزكية نفسه، وعلي التمسك بسنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ والعض عليها بالنواجذ، عملا بما أمر ﴿ﷺ وآله﴾، وتباعدا عما نهي عنه ﴿ ﷺ وآله﴾، والتجمل بفضائل أهل العلم والمعرفة من السلف الصالح، ولزوم مجالس العارفين، وسماع إشاراتهم، وتلقي أسرارهم، وكل ذلك لا يتحصل عليه المريد إلا إذا ابتدأ بالبحث عن عالم عامل عارف متمكن، منحه الله الفقه في قلبه، وجمل ظاهره بجمال حلل السنة، حتي إذا وجده سعي إليه حيث كان وصحبه، مسلِّما له نفسه، ملاحظا لأعماله وأقواله وأحواله، حتي يتلقي عنه السنة المحمدية عملا وحالا وتعليما، فإذا ظفر بالرجل، واقتدي بهديه، ورأي من نفسه الانقياد له، صحت بدايته وحسنت نهايته، وظفر بالطريق المستقيم القريب الذي يوصله إلى الحق سبحانه، وإن لم يظفر بالرجل، فعليه أن يبحث عن الآثار وأعمال السلف وهديهم من العلماء وفي الكتب، ويعمل بها ويترك أعمال علماء الدنيا، ويدوم بحثه علي الرجل المرشد الحقيقي ليكون له ثواب السعي في طلب الله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(١).

ولا يخلو زمان من الأزمنة من عارف بالله إما ظاهرا مشهورا أو باطنا مغمورا، يعرفه من اختارهم الله واجتباهم، لأن علوم القلوب وأسرار الغيوب لا ترسم في كتاب، ولكنها تلقي من فم العارف الحي للراغب المسلم، وبهذا يكون المريد ناهجا علي الصراط المستقيم، سالكا مسالك الأبرار، مؤهلا لمشاهد المقربين الأخيار، ومن أراد المزيد في هذا الموضوع، فليراجع علوم اليقين في (أصول الوصول). ولما كان لابد في الطريق إلى الله تعالي من المرشد، وقد سبق لنا شرح أوصاف المرشد بالتفصيل في كتاب: (شراب الأرواح)

---

(١) سورة يوسف آية ٩٠ .

وكتاب: (أصول الوصول) فأحب أن أبين أوصاف نواب المرشد، ثم كيفية صحبة المرشد، ثم معاملة المرشد للمسترشد، ثم أشرح حقيقة الأخوة والإخوان.

نواب المرشد:

الدعوة إلى الله تعالي يلزم أن يقوم بها جماعة من أهل الفضل والعقل والعرفان، الذين صحبوا المرشد صحبة حقيقية بصحة بداية وحسن نية وجمال مقصد، وتلقوا عنه أسرار عقيدته، وفهموا أنوار حاله، وذاقوا حلاوة فهم علومه ومعاملاته القلبية والبدنية، وعباراته وأخلاقه، حتي ظهرت لهم الدنيا منكشفة عن حقيقة زوالها وبقاء تبعاتها من الأعمال السيئة، أو نوال السعادة في الدار الآخرة، بما منَّ الله به عليه من حسن العقيدة، وحسن العمل والخلق، حتي زهدوا فيما فيها، وأنكروا ما فيها مما هو فان، إنكارا حقيقيا، ومالوا إلى الحق بكليتهم، وتحققوا الخير ورأوه بعين اليقين، ورأوا ما عليه الناس فأشفقوا عليهم، فبذلوا وسعهم في إنقاذهم من الهاوية والغضب الإلهي برأفة وشفقة وحكمة، وبيان لآيات الله سبحانه وتعالي ونعمه علي العباد، وذكري لمنته عليهم، ليحنوا إلى الله سبحانه، وينهجوا علي نهج رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾.

فإذا منح الله تعالي مريدا تلك المنن، فهو القائم مقام المرشد في غيبته، لأن الدعوة إلى الله سبحانه يلزم أن تكون عامة بين الناس للنفع العام.

فالمريد الذي أنس من نفسه بتلك الصفات، وتحقق من نفسه أنها راغبة حقيقة في نجاة الإخوان من هاوية العذاب، وبعد المقت، وأنس من نفسه أنها تعينه علي عظيم شدائد الدعوة إلى الله سبحانه وتعالي من الصبر علي الفقراء والجزع وأذية الخلق وإنكارهم، والرضا بالقليل من الدنيا، وبذل الكثير منها لجمع القلوب علي الله تعالي، وعلم حفظ نفسه من الغرور بإقبال الناس، وحسن ذكره بينهم، وكثرة أتباعه، وتحقق صدقه في حب الخير العام للمسلمين، فعليه أن يقوم متجملا بحلل التواضع والانكسار والمسكنة والذل والخضوع والخشوع والخوف من الله تعالي، متباعدا عن الجدل، وفتح أبوابه بالوقوع فيما يخالف السنة المجمع عليها، أو بعمل تعود العامة علي غيره، جهلا منهم بالسنة إلا بعد

البيان، وكشف حقيقة السنة بالمعروف واللطف، ويتباعد عن فتح باب الجدل، بكشف سر من أسرار الحقائق أمام من لم يسلّم ويؤمن حقيقة، فإن ذلك موجب لضياع السنة، بل وربما أوقع الجدل في سخط الله ومقته.

وعليه أن يتباعد عن الوقوع في الفتنة والفتن العامة، كجلوسه في خلوة مع النساء أو الصبيان، أو دعوي أنه شريف مكي أو مدني أو مادح، أو يلبس ملابس الرياء كالمرقعات تكلفا، أو العكوف في الخلوات ترغيبا للخلق، وذم أهل الطريق والمعتقدين عند العامة، ويتباعد عن الطمع فيما في أيدي الناس، خصوصا ما يحبونه من ملبس وسلاح ودواب وكراسي وزينة، إلا إذا قربوه برغبة، مع إظهار عدم الرغبة فيه.

ولما كان النائب عن المرشد صورة له ممثلة له فعليه أن يحافظ علي الأكمل من العمل والخلق وحسن الهدي – ولو تكلفا – رغبة في ميل القلوب إلى المرشد لينالوا السعادة، فإن فضله وكماله يجعل القلوب تألف المرشد، وإذا خالف ذلك كان قاطعا من قطاع الطريق وإن كان محفوظا، إلا إذا أحب ميل القلوب إليه وستر فضائل المرشد، فإن ذلك يكون قطيعة له وإن لم يضر غيره، وعلي العموم فالمريد الأولي له أن يلازم علي تطهير نفسه وتزكيتها، ويشتغل بالإقبال علي الله تعالي، ويجعل الدعوة إلى الله من أكمل أعماله وأجملها ليتقرب بها إلى رسول ﴿ﷺ وآله﴾

آداب صحبة المرشد:

المرشد هو الرجل العالم بالطريق الموصل إلى الله تعالي، العامل بالعزائم من سنن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأوصافه ونعوته وخصوصياته تقدم شرح بعضها فيما فتح الله به للمسكين.

وأريد – بعون الله – أن أكتب في آداب صحبة طالب طريق الله تعالي، الذي هو فان عن حظوظه وأهوائه لصفاء نفسه وانتهاجه علي الصراط المستقيم، لأنه يجب عليه قبل صحبة الرجل أن يكون متحصلا علي ما لابد منه من فروع الشريعة من عقيدة وعبادات ومعاملات وأخلاق، ثم يصحب الرجل لتنكشف له أسرار آيات الله في نفسه وفي الآفاق،

ويذيقه حلاوة استحضار معانـــي الربوبية، وأسرار تجليات الأسماء، ويمنحه حلاوة المراقبـــة ومحاسبة النفس، ثم يكاشفه بسر الجمع والفرق، حتي يأنس بربه سبحانه وتعالي، وبـــالكون معه سبحانه وتعالي، من المنازل التي بها النجاة، والمراتب التي بها القرب، والمقامات الـــتي بها الحب، ولا يكون ذلك إلا بالتسليم الحقيقي والقبول، ولا يمدح التسليم إلا بعد العلـــم بإخلاص المرشد وصدقه وكمال علمه وصحة عزمه، حتي يطمئن القلب، ولـــديها يكـــون التسليم بأن يكون واقفا عند إشارة الرجل وعبارته، بحيث لا يتأول من عباراته ولا إشاراته شيئاً، بل يسلم ما خفي عليه من أحواله، ويعمل بما ظهر له، وتكون نفسه وماله وجاهـــه وعلمه تحت تصرف المرشد، بحيث يجعل نفسه كابنه الذي هو من صلبه معاملـــة حقيقيـــة، متباعدا عن الانتقاد والمعارضة والجدل، ونظر بشريته.

ويري جميع أحواله مما يمكنه من مشاهدتها في خلوته أو يشهده إياها منفردا، اعتقادا لـــه لا عملا، حتي يجد مواجيد أهل اليقين، ويكاشف بمكاشفات أهل التمكين، ويطالبه قلبه بعمل ما شهده من الأستاذ، فيعمل ذلك محافظا علي ما شهد بدون أن يتعدي عن اعتقاد ويقين، لا عن تقليد، إلا في أعمال البر وقربات الخير من أخلاق متواضعة، وحسن مداراة وجهاد نفس، وتقليد في الضروريات، فإنه يقلد في ذلك ولو لم تنكشف له الحكمة، ويجب عليـــه أن يخفض صوته أمامه، ويغض بصره، ويكون معه علي نفسه، فلا يدافع عنها، بل يكـــون عونا له عليها، ولا يستظهر عليه في عمل، ولا يتشبه به فيما يحصل له من تعظيم الخلـــق وإكرامهم له، بل إذا شهد شيئا من ذلك من الخلق ينفر منه ويقبحه منهم، ويعلمهم أنـــه أخوهم وأنه لا يمتاز عنهم بشيء، خشية أن تنطبع صورته في نفوس الناقصين من إخوانه.

وللرجال خصوصيات يقتضيها الوقت تكره للمريد، بل تحرم علي المريد كحسن المـــداراة، والتحصن بما لابد منه للبشرية من الادخار وحسن الهيئة، وتأليف أهل الشرف، والوقوف عند الأعمال القلبية بعد الواجبات، وثقته بالحفظ الإلهي فيهمل الحيطة التي بإهمالها ربمـــا يراه المريد تعدي أو وقوع في المشتبهات، بأن لا يتوضأ عقب نومة نامها، أو عقب خلـــوة بزوجته، أو بعد مصافحته للنساء، أو ما يماثل ذلك مما قل أو كثر، فإن يقظة قلبه وتمكينـــه

من المعية جعلته لا يتأثر بأمثال هذه الأشياء، فليس للمريد أن يتشبه به ويكره لـــه ذلـــك، ويحرم عليه أن يتعرض لذلك ليشهد الناس أنه شبيه بالمرشد، أو في مقامه ومترلتـــه، لأنـــه يكون لبس حلة شهرة، ومحظور عليه أن يتشبه به في مثل هذه الأحوال، إلا إذا أمكنه أن يجاهد نفسه مجاهدة تجعله يتشبه به في إخلاصه وحضوره ومشاهدته وعلمه بنفسه وبالدنيا، وملاحظة النية لكل عمل بحسبه، ومراعاة مقتضيات الأوقات، حتي يدخله الله ويخرجه الله ويجعل له سلطانا نصيراً.

هذا، وإن للمريد فترة في نفسه تحصل له في أثناء فواصل المراتب، حتي قد يتمكن العـــدو من نفسه عند فاصلة الإمداد ولمحة الانتقال، وآنات هدنة المجاهدة بين الـــنفس والـــنفس، فيتمكن منه العدو بأن يريه أنه كمل أو صار وسطا أو انتهي، أو ينتهز لحظة الفترة فيلفت قلبه لوجهة أخري من الوجه اللاصقة بالقلب، فيشعر بملل أو كسل لم يكن يتعودهما مـــن قبل، حتي يكون هذا كإخلاد إلى البشرية وتشوق إليها.

وتلك الفترة تنتج نتائج المعارج لمن سبقت له الحسني، فإنه يعقبها لهم شوق ونشاط ولهـــف ووله، خصوصا إذا دعا الأمر لعدم سماع الحكمة أو البعد عن المرشد، حتي تشتد الرغبـــة لتجدد له العزيمة وتقوي دواعي الوله، فيتلقي المقام والحال بشغف وشوق، ويتمناهما بعـــد هذا الملل والفتور، حكمة دقت صونا لمنازل القرب أن تبذل، ولمقامات الشهود أن تنال بلا طلب ولا تطلب، وفي هذه الإشارة إلى فترة الوحي.

وقد تكون تلك الفترة مدارج البعد – نعوذ بالله تعالي – وقد يتمكن العدو في تلك الفترة من القلب، مما هو لاصق به مما لا يلائمه أو يلائم حظاً خفياً فيه، أو غرضا تيسرت أسبابه، فيحصل له غض البصر والتفات الوجه، وطول التذكار ووسعة الأمل، وقد تتداركه العناية بعد ذلك، وله الإشارة بأكل بعض الشجرة، لأن العدو دخل في تلك الفترة بطريق أمـــل البقاء. فإذا اعتور المريد في صحبة الرجل شيء من ذلك فليكن علي حذر مـــن دسـائس العدو، وليجاهد نفسه مجاهدة – ولو بالتكلف الشديد – بأن يقبح لها ما تدعوه إليه، ويسد باب العدو عليه، ويحذر حتي يمن الله عليه بالنشاط من هذا العقال.

وللمريد عقبات، أهمها الحرص علي الدنيا والجاه والرياسة، ونظره إلى خصوصياته وغروره بعمله وعلمه، وبثناء الخلق عليه، وميله إلى حب الكرامات وشهرها بين الناس، وقد يشغله إقبال الخلق عليه، فيرغب فيما في أيديهم، أو يشتغل بالجدل معهم ومعاداهم ويصرف الوقت ملتفتاً عن المرشد، مشغولا بما يبعده عن منازل القرب ومشاهد أهل الحب.

وقد يتمكن منه العدو فيريه أنه يدافع عن الحق وعن السنة، ويري أن عمله هذا هو الحق، فيعتقد في نفسه أنه خدم المرشد ونفعه، ولولاه لم يكن له طريق، وينسي نفسه، كل تلك الأمور عقبات مهلكة .

وهناك موانع حاجبة منها أن يأمره المرشد بعمل من القربات، فيري لذاته وبهجته ونوره في غيره، فتجذب نفسه إلى عمل ما لم يأمره به المرشد، ويجد منها رغبة وبهجة، ويري فيه مشاهدات أو رؤيا منامية، أو إقبالا من الخلق أو بسطا في الرزق، ويجهل المسكين أن المرشد هو الطبيب الحاذق، الذي يجتهد في حفظ عافية النفس عليها، وردها عند المرض، فتكون تلك العوائق من سوء الصحبة.

وليس للمريد أن يعمل بأقوال الرجل التي يقولها للعامة، إلا إذا أمره بعملها بأن يسمعه يبغض الدنيا للناس ويزهدهم فيها فيترك طرق الكسب، أو يرغبهم في الحج فيخرج بدون استطاعة، أو يرغبهم في الصيام فيكثر الصيام، ولكنه يأخذ من كلامه العام ما لابد له منه من واجب شرعي، أو ترك عمل منهي عنه ليكون سالكا معه علي حسب مراده، لأنه أعلم بما يصلح.

وأحب المريدين إلى الله ورسوله وأقربهم إلى منازل القرب من صحب الرجال زمنا طويلا فلم يشغل قلبه من جهته بحزن ولا بشاغل، ولم يسبب له مضرة في بدن ولا في شهرة، ولم يغير تعاليمه ومواعظه وإرشاداته، ولم يشغل قلبه إلا بما ليس من اختياره وإرادته كمرض

وأمثاله شغل رحمة وحنانة، ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾(١) والمريد الممنوح من الله تعالي منح الوراثة يجري الله علي يده مراده المحبوب له، وما يرضي المرشد ويسره، وقد يكون لسانا أو عينا أو أذنا أو يداً أو كنزا أو حصنا، وهو الذي يمنحه الله مواهب الحب.

وأفضل المريدين للرجل وأقربهم إليه من منحه الله أن يكون أذنا له، ثم اللسان، ثم البصر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم.

فقه القلوب:

تقدم أن صحبة المرشد الكامل والبحث عنه والسعي لطلبه أمر واجب لمريد الوصول إلى الله تعالي بنص قوله ﴿ ﷺ وآله﴾: « اطلب العلم ولو في الصين »، وقوله ﴿ ﷺ وآله﴾: « طلب العلم فريضة علي كل مسلم » الحديث، ومراده ﴿ ﷺ وآله﴾ بالعلم: العلم النافع الذي يحصل به صاحبه السعادتين، ويتجمل بخشية الله كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾(٢) وكان من أكمل صفات المرشد، أن يكون فقيه القلب، حتي يعقل عن الله تعالي وعن رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، لزم أن أبين فقه القلب بقدر ما يفتح الله، فأقول وبالله المعونة والتوفيق:

فقه القلب: إنما يفقه اللسان من الأذن، ولا يلزم من فقه اللسان فقه القلب، فكم من فقيه اللسان جهول القلب أو كفوره، وإنما كان ذلك لأن الجوارح خلقها الله، وأودع في كل عضو منها ما به يقوم بما أعده له، وإنما أوعية الحق وخزن الفقه هي القلوب، وإنما تتلقي القلوب من علام الغيوب، وذلك لأن النفس الملكية شهدت الجمال، وفقهت خطاب الجميل، فإذا تعلقت بالجسم لم تغب عن مشهد التجلي الأول، وحقائقه مشهودة لها مصورة في ذاتها، فإذا سمع الإنسان المتعلقة به النفس الملكية تعلقا فعليا حكمة من متكلم – ولو

(١) سورة ص آية ٢٤ .

(٢) سورة فاطر آية ٢٨ .

كان غير حكيم – أصغت إليه، فطابقت الحكمة حقيقة ما في ذات النفس، فحن الإنسان إلى تلك الحقيقة وانفعلت قوي نفسه، وتأثرت أعضاؤه واشتاق إلى الحق، وخشع قلبه وامتلأ خشية ورهبة من ذات الله تعالي ورغبة في مرضاته، ولظهور أسرار الحق للنفس تتلقي الحكمة عن الرب سبحانه، مع أن المتكلم بها إنسان.

هذا، ومتي حصل تعلق النفس الملكية فعلا بالإنسان، قوي عامل العبرة واشتد باعث الفكرة، وحصل شهود المعية وأشرقت أنوار الشهود، وتبدل الوجود المقيد بالإيجاد والإمداد الرباني، ثم تلألأت تلك الأنوار عن مجلي الذات، فحجب الإيجاد والإمداد بالوجود المطلق، وكان الإنسان مع الله والله معه.

وبهذا يكون القلب بيت قدس، والجسم هيكل الرب، كنز مرموز بغاشية المباني، انطوت فيه أسرار المعاني، ويكون الإنسان العالم الحقيقي الذي انطوي فيه العالم الأكبر، شهد فيه أكمل مشاهد المقربين ومعاني تنزلات الصفات، وأسرار ظهور الأسماء، رفعت مكانته عن المقامات، وعزت مشاهده عن العقول الكاملة، وهو الإنسان الكامل صورة الرحمن الكاملة، وكعبة الأرواح العاشقة، وترجمان حقائق الآيات، ومبعث أنوار الإشارات، محل نظر الله من عباده، والمحبوب لذاته العلية في دور التجليات المقيدة بالزمان والمكان، شمس تشرق في الملكوت الأعلي، كإشراق شمس السماء علي الملك الأدني، بلغ به الرضا عن الله مبلغاً جعله آنساً في كل حال، والتوكل علي الله جعله مشغولا بذات الله في كل حال، لا تشغله زهرة الفانية عن البهجة الباقية، ولا البهجة الباقية عن الولي المتعال، شهد الآخرة وهو في الدنيا فلم تخطر الدنيا له علي قلب، ووقعت عين بصيرته علي وجه ربه العلي فلم تر باصرته أنوار الجنان، فهو مع الله في الكون الأول، وعند مليك مقتدر في الكون الثاني، والله عنده بالفناء عنهما، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم.

الفقهُ في القلب نورٌ من لدي الربِّ ولیس في صحف تُتلي لذي حجبِ
فاستفتِ قلبَك ياذا القلبِ عن حِكمٍ في الكونِ ظاهرةٍ للعينِ في القلبِ

قلـــب عـــن الحـــق يتلقـــي معارفـــه   هـــو الإمـــامُ إمـــامُ الـــدينِ والقـــرب
الكـــونُ نـــورٌ لـــذي قلـــبٍ يشـــاهده   وراحُ صـــفوٍ لمطلـــوبٍ وذي حـــب

معاملة المرشد للمسترشد:

المرشد هو رحمة الله الواسعة، ونعمة الله العامة، ومنته العظمي علي عباده، ونور الله تعـالي المبين لسبيله المقيم لحججه المجدد لسنته، وأوصافه هي أوصاف سيدنا ومولانا رسول الله ﴿ﷺوآله﴾ وأخلاقه وشمائله وأحواله وجميع أسراره، وقد ألمعنا إلى شرح كثر مـن صـفاته ونعوته، وأريد بعون الله تعالي أن أشرح بعض أحواله في معاملة المسترشدين، ليكون نبراساً للعالمين، ودليلا علي سير المرشدين.

معلوم أن النفوس تتفاوت استعداداً وقبولا بحسب المواهب الإلهية والخصوصيات الربانيـة، فمنها النفس القابلة للتزكية المؤهلة للسعادة الأبدية المشتاقة إلى حضرة القـدس لصـفاء جوهرها ورقة بشريتها وقوة الميل إلى معالي الأمور وذكاء الفطرة، وتلك النفوس مؤهلـة للحكمة قابلة للمعرفة مجردة عن الدنس زكية طاهرة، يكفي ها قليل الحكمة لما أودعه الله في جوهرها من الفقه وما وهبه إياها من نور الفكر وجودة الذهن وحقيقة الاعتبار، فهـي قابلة مؤهلة تترقي بسرعة من كون الفساد إلى ملكوت الله الأعلي بمجرد سماع الحكمة من الحكيم أو الراوي ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾(1). ومن أكمل علاماهم أهم يستمعون القول فيأخذون بأحسنه في العزائم والحقائق ونور البيان، حتي أنك تري المسترشد المؤهـل يسـمع مـن الحكيم فيعمل بالعزائم من أوامره، ويفقه سر الحكمة في كل عمل، كأنه ممثل لـه بأجمـل مثال ملاحظا الحظوة في العمل بمن له العمل، مستبصرا عند العمل بمن العمـل؟ ولمـن؟ وحصل علي يد من؟ حتي كأنه مع مولاه في حال عمله بجوارحه، وعنده حال العمل بقلبه، وهؤلاء هم الشهداء – جمع شهيد – والصديقون شهدوا بما شهد به هو سبحانه وملائكته.

---

(1) سورة ص آية ٢٤ .

ومن النفوس ما هو دون ذلك، وهي النفوس اللقسة بأدران البشرية وقاذورات زهرة الحياة الدنيا، لم تنبت في منبت حكمة، ولم تسق بماء العلم، ولم تصحب مرشدا عالماً.

وهذه النفوس في حاجة إلى الدواء النافع والمرشد الطبيب، الذي يجرد تلك النفوس من سجون الشهوة وقيود الحظ وسافل الغفلة وسجين الغرور، بحكمة تكشف لها الستار عن الرذائل فيجتنبها حياء، والقناع عن الفضائل في جاهد نفسه فيها رغبة، حتي تتلطف نار الأخلاق الإبليسية، وتطفأ شعلة البواعث البهيمية، ويكون إنساناً يشعر من نفسه بأنه قابل للفضائل، مستعد للرقي مؤهل للسعادة، مسئول أمام ضميره وبين يدي ربه سبحانه، والشاهد عليه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، منظور من الخلق بأعين تمدح وتذم. وتكون تلك التربية بطريقة تنمو بها في ها روح الملاحظة حياء ورغبة، ويتباعد المرشد بكل ما في وسعه عما يظهر كمين النفس ويرجعها إلى جبلتها ويفقدها سبيل الانقياد والاستسلام.

ويلزم أن تكون تلك المراقبة للمسترشد بغض البصر عن هفواته وصغائره، وحفظ اللسان من ذكرها أمامه أو أمام غيره، أو تعنيفه عليها في خلوة أو مجتمع، اللهم إلا في مذاكرة عامة يتحري في ها عدم التعريض، حتي لا يدرك أنه المقصود بالذات محافظة عليه من الهلكة، حتي تطفأ نار الإبليسية، ويخمد جمر البهيمية، ويذوب ثلج البشرية، ويكون إنسانا يشعر بإنسانيته، ويعلم المميزات بينه وبين غيره من الحيوانات في الأعمال.

ولديها يجب علي المرشد أن يشرح له المراقي والمراتب والمقامات التي أهِّل لها الإنسان، الذي صار إنساناً، وطرد عنها الشيطان، وحجب عنها الحيوان، بطريق خطابة، متباعد عن الجدل وفتح باب المناظرة بقدر رتبته في القابلية.

ويجتهد في أن يحافظ عليه في تلك الرتبة من أن يزل أو يتزلق، فإنه إذا زل ضل، فتجتمع فيه القوي الثلاث من النفوس الإبليسية والحيوانية والإنسانية، وعليه أن يقوي فيه نبات الحياء والرغبة، ليتمكن من أن يجرده من الرعونات النفسانية والوساوس الشيطانية، التي هي عقبات تلك الرتبة، ويبث في ها روح الرغبة في العوارف والميل إلى علم آثار السلف،

ليجعل ذلك درعا يحصنه به من الانقلاب إلى خبثه فيما إذا أخطأ أو غفل في قول أو عمل أو حال، في علمه أن ذلك ليس من هدي السلف، ويبين له هديهم، ليطمئن بمزيد العلـــم، ولا ينفر من مواجهة الموعظة.

وعلي المرشد أن لا يبحث عن المسترشد في عمل ولا قول مادام يتستر فيه، وأن لا يجعـــل له أذنا تصغي إلى سماع القبيح من أعمال المسترشدين، ليكون ذلك أصفي لقلبه وقلوبهم، إلا إذا جاهر بذلك فللشريعة حدود، فإن كان ممن يقيمها أقامها، وإلا لزمه العناية بالمريـــد حتي يتوب أو يهجر، وعليه بعد هجره أن يذكر محاسنه التي كان عليها، وأن يمتنـــع عـــن ذكر زلـــله ليكون ذلك أدعي إلى تعليم المسترشدين واستعطاف الغافل، وعلي المرشد أن لا يثق بمن في مراتب التخلية في سر أو معاونة إلا برغبة منهم شديدة وتمنع منه، وعليه أن يسبقهم في فعل الفضائل من البذل والرحمة ومكارم الأخلاق، والمســـارعة إلى موجبـــات المغفرة والرضوان ليقتدى به.

وهناك نفوس خبيثة سبق عليها القضاء وسجل عليها البلاء، لا تسمع الـــدعاء ولا تبصـــر الضياء ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾(1) الخ الآية، تلك النفوس جهنمية في أشباح ظلمانية، حسُن الضلال لديها وقُبح الحـــق عندها، ولكن المرشد مطالب أن يكون حجة الله عليهم بأن يلين جانبه لهم، وأن يتـــألفهم بالبذل والتواضع والحجج البالغة والرحمة واللطف والرأفة، فلا يكون فظا غليظاً، ولا قاسيا جافيا، فيكون سببا في هلاكهم – وهم هالكون أصلا – بل يجهد نفسه ويكـــدها حـــتي يكون هلاكهم بعد وضوح الحجة، وجمال الدعوة، وحسن المعاملة، ومكارم الأخلاق مـــن الداعي.

وكثيرا من النفوس ما تكون لقسة فتداوى وتزكو، ويكون ميلها للخير أكثر أو مســـاويا، وتلك النفوس أتعب علي المرشد من النفوس الخبيثة، لأن أكثر التفرقة والشقاق والتشعب

(١) سورة الأعراف آية ١٧٩ .

ناتج من مثلها، فإن النفوس الطاهرة الزكية فطرت علي الخير والأحسن فسلمت وسالمت، والنفوس الخبيثة فطرت علي الشر والأقبح فتحصن الناس منها، وأما النفوس اللقسة فقد يغتر بها في حال إقبالها، فتباح لها الأسرار وتكاشف بالعورات، فتكون في حال شرها أشد من العدو الخبيث، وللمرشد بصائر يعلم بها سر إقبال تلك النفوس فيحتاط منها، ويكفي للمستبصر أن يري المريد علي حال سيئة أو عمل سييء أو قول قبيح، ليعلم أنه نتج عن سوء في النفس وقبح في الخلق، فلا يستبعد تكراره، ولكنه يلزمه أن يتباعد عن موجبه، ويكون شديد الحرص علي استبداله إن أمكن، أو كمونه في النفس مع الإلماع بقبحه في العامة، والتشنيع عليه وتأليف من ابتلي به لمداواته، لا بالخوف والقسوة والجفوة، بل بما يوجد الحياء من وقوعه كما تقدم.

الأخ في الله تعالى:

هو شخص آخر إلا أنه أنت، لأنه يقصد ما تقصد، ويتمني ما تتمني، ويعتقد ما تعتقد، ويعمل بعملك، ويقتدي بقولك وعملك وحالك، ذاق ذوقك وفهم عبارتك وأدرك إشارتك، يسعي فيما يرضيك ويحب من تحب، يصادق صديقك ويعادي عدوك، يحفظك غائبا ويسرك حاضراً، يذكرك إن غفلت ويعينك إن ذكرت، يسارع في مرضاتك عندما ترضي الله تعالي، ويتوقف عن العمل إن جهل حكم عملك، حتي تبين له بدون جدل ولا انتقاد ولا اعتراض، تجمل بكل خصالك، واتصف بجميع صفاتك، ودَّك بأكمل ما يود به نفسه، وتحمل الشدائد في جمع الكلمة، يجاهد نفسه ليتجمل بمكارم الأخلاق، يصل رحمك ويكرم أقاربك ويعطف علي أولادك، هذا هو الأخ ولو كان بعيد النسب عنك.

الأخ هو أنت خلقا واعتقادا ومقصدا وعملا وحالا، الأخ من بذل نفسه قبل نفسك، وماله قبل مالك، وقدم أصدقاءك وأهلك وأولادك علي خاصته وأهله وأولاده.

ليس الأخ بنسب الأبوين، إنما الأخ من ناسبك في خصوصيتك، وتشبه بك في جميع أحوالك، قرب منك بما جملك الله به فصار قريبك، وانتسب إليك بما تقربت به إلى الله فصار من نسبك.

الأخ من لا تتكلف له ولا تخشي الشر منه، استوي عندك السر والعلن معه، وأنت عظيم في عينه وقلبه في كل أحوالك، من يسر وعسر وبعد وقرب، إن شددت يسر وإن يسرت هابك، سروره أن تكون مسروراً، هذا هو الأخ ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾[1] فهذا الأخ هو الوارث للأحوال والعلوم والأسرار، فإذا كان من أهل نسبك كان ذلك أكمل وأجمل وذلك هو الفضل العظيم، وإنما هي مشابهة توجب القرب بعد الحب، فالرقي إلى المقام بعد الحال فالوصول فالكمال

أسأل الله أن يجملنا بأخلاقه، وأن يمنحنا عنايته، وأن يواجهنا بوجهه الجميل، إنه مجيب الدعاء، وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم.

الإخوان ومعاشرتهم:

ينبغي لإخواننا – أيدهم الله حيث كانوا في البلاد – أن يكون لهم مجلس خاص يجتمعون فيه في أوقات معلومة، لا يكون معهم فيه غريب عنهم، يتذاكرون فيه علومهم ويتفاهمون أسرارهم، خصوصا علوم النفس وفقه أسرار الكتب الإلهية ومعاني الإشارات النبوية، خصوصا ما يتعلق بكشف الأسرار الإلهية التي هي الغرض الأقصى.

وبالجملة ينبغي لإخواننا – أيدهم الله تعالي – أن لا يعادوا علما من العلوم، أو يهجروا كتابا من الكتب، ولا يتعصبوا علي مذهب من المذاهب، لأن طريقنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعها، وذلك أنه هو النظر في جميع الموجودات بأسرها، الحسية والعقلية من أولها إلى آخرها، ظاهرها وباطنها، جليها وخفيها، بعين الحقيقة من حيث هي كلها آثار دالة علي مبدئها الذي أوجدها، وآيات ظاهرات مبرهنة علي سر تصريف القدرة وعجيب الحكمة الإلهية، منطوية علي أسرار دقيقة يري الناس ظاهرها ولا يعرفون معاني بواطنها، من لطيف صفة الباري جل وعلا.

---

(١) سورة ص آية ٢٤ .

اختيار الإخوان:

ينبغي لإخواننا – أيدهم الله حيث كانوا في البلاد – إذا أراد أحدهم أن يتخذ صديقاً مجدداً، وأخا مستأنفاً، أن يعتبروا أحواله، ويتعرفوا أخباره، ويجربوا أخلاقه، ويسألوا عن مذهبه واعتقاده، ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودة وحقيقة الأخوة أم لا؟ لأن في الناس أقواما طبائعهم متغايرة خارجة عن الاعتدال، وعاداتهم رديئة مفسدة، ومذاهبهم مختلفة جائرة، فمنهم خيِّر وشرير، وكفور وشكور، وذو أمانة وغدار، وحليم وسفيه، وسخي وبخيل، وشجاع وجبان، وحسود وودود، وفاجر وعنيف، وجزوع وصبور، وشره وقنوع، وسلس وشرس، وفظ غليظ ولطيف رفيق، وعاقل وأحمق، وعالم وجاهل، ومحب ومبغض، وموافق ومخالف، ومنافق ومخلص، وناصح وغاش، ومتكبر ومتواضع، وعدو وصديق، ومؤمن وزنديق، وعارف ومنكر، ومقبل ومدبر، وما شاكل هذه الأخلاق المحمودة والمذمومة مضادات بعضها لبعض .

واعلم بأن شر هذه الطوائف كلها من لا يؤمن بيوم الحساب، وشر الأخلاق كيد إبليس، وحرص آدم، وحسد قابيل، وهي أمهات المعاصي.

واعلم بأن الناس مطبوعون علي أخلاقهم بحسب اختلاف تركيب مزاج أجسادهم. واعلم بأن الناس من هو مطبوع علي خلق واحد وعدة من أخلاق محمودة ومذمومة، وأن العادات الرديئة تقوي الأخلاق الرديئة، والعادات الجميلة تقوي الأخلاق المحمودة، وهكذا حكم الآراء والاعتقادات، فإن من الناس من يري ويعتقد في دينه ومذهبه أنه حلال له سفك دم كل مخالف له في مذهبه، مثل اليهود والخوارج، وكل من يكفر بالرب، ومن الناس من يري ويعتقد في دينه ومذهبه الرحمة والشفقة للناس كلهم، ويرثي للمذنبين ويستغفر لهم، ويتحنن علي كل ذي روح من الحيوان ويريد الصلاح للكل، وهذا مذهب الأبرار والزهاد والصالحين من المؤمنين، وهكذا مذاهب إخواننا الكرام.

اختيار الخاصة منهم:

ينبغي لك إذا أردت أن تتخذ صديقا أو أخا لك؛ أن تنقده كما تنقد الدراهم والدنانير والأرضين الطيبة (التربة للزرع والغرس)، وكما ينقد أبناء الدنيا أمر التزويج وشراء المماليك والأمتعة التي يشتروها.

واعلم بأن الخطب في اتخاذ الإخوان أجل وأعظم خطرا من هذه كلها، لأن إخوان الصدق هم الأعوان علي أمور الدين والدنيا جميعاً، وهم أعز من الكبريت الأحمر، وإذا وجدت منهم واحداً فتمسك به، فإنه قرة العين ونعيم الدنيا وسعادة الآخرة. لأن إخوان الصدق نصرة علي دفع الأعداء، وزين عند الأخلاء، وأركان يعتمد عليهم عند الشدائد والبلوي، وظهر يستند إليهم عند المكاره في السراء والضراء، وكنز مدخر ليوم الحاجة، وجناح خافض عند المهمات، وسلم للصعود إلى المعالي، ووسيلة إلى القلوب عند طلب الشفاعات، وحصن حصين يلتجأ إليه يوم الروع والفزعات. فإن غبت حفظوك، وإن تضعضعت عضدوك، وإن رأوا عدوا لك قمعوه .

الواحد منهم كالشجرة المباركة، تدلت أغصانها إليك بثمرها، وأظلتك أوراقها بطيب رائحتها، وسترتك بجميل فيئها، فإن ذكرت أعانك، وإن نسيت ذكرك، يأمرك بالبر ويسابقك إليه، ويرغبك في الخير ويبادرك إليه ويدلك عليه، ويبذل ماله ونفسه دونك.

فإذا أسعدك الله يا أخي بمن هذه صفته، فابذل له نفسك ومالك، وقِ عرضه بعرضك، وافرش له جناحك، وأودعه سرك وشاوره في أمرك، وداو برؤيته عينك، واجعل أنسك إذا غاب عنك ذكره، والفكر في أمره، وإن هفا هفوة فاغفر له، وإن زل زلة فصغرها عندك، ولا توحشه فيخاف من حقدك، واذكر من سالف إحسانه عند إساءته ليأنس بك ويأمن غائلتك، فإن ذلك أسلم لوده وأدوم لإخائه.

التحفظ من مؤاخاة من لا يليق:

اعلم يا أخي بأن من الناس من لا يصلح للصداقة والأخوة والمقاربة أصلا البتة، فانظر من تصحب وتعاشر، ولا تغتر بظواهر الأمور من غير معرفة بواطنها، ولا بحلاوة العاجل من قبل النظر في مرارة عاقبتها، فإذا أردت اتخاذ أخ أو صديق فاعتبر أولا أحواله، واختبر أخلاقه، وسله عن مذهبه واعتقاده، وانظر في عاداته وسجيته وشمائله وحركاته، فإنه لا يخفي علي المتفرس بواطن الأمور إذا نظر إلى ظواهرها.

واعلم بأن من الناس من يتشكل بشكل الصديق، ويتدلس عليك بشبه الموافق، ويظهر لك المحبة وخلافها في صدره وضميره، فلا تغتر أو تتيقن .

واعلم بأن أعمال الناس في ظاهر أمورهم تكون بحسب أخلاقهم التي طبعوا عليها، وبحسب عاداقم التي نشأوا عليها، أو بحسب آرائهم التي اعتقدوها، فإذا رأيت الرجل معجبا صلفا، أو نكداً لجوجا، أو فظا غليظاً، أو مماحكا مماريا، أو حسوداً حقوداً، أو منافقا مرائيا، أو بخيلا شحيحا، أو جبانا مهينا، أو مكارا غدارا، أو متكبرا جبارا، أو حريصا شرها، أو كان محبا للمدح والثناء أكثر مما يستحق، أو كان مزدريا لنظرائه، أو كان مستحقرا لأقرانه والناس، ذاما لهم، أو متكلا علي حوله وقوته، فاعلم بأنه لا يصلح للصداقة وصفوة الأخوة، لأن هذه الأخلاق والآراء والعادات مفسدة لاعتقاده بإخوانه، وذلك أن من يحب المطالبة بما لا يجب له لا تسمح نفسه ببذل ما يجب عليه، وهكذا الحسود واللجوج والغضوب تمنعه هذه الأخلاق عن الإذعان للحق، وهكذا اللجاج والتكبر يمنعان عن قطع الجدال والخلاف، وكذلك الفظاظة والغلظة يمنعان من العذوبة والسهولة، والشراسة والغضب يهيجان علي المكابرة.

وبالجملة كل هذه الأخلاق مفسدة للمودة، ومخالفة لصفو الأخوة، مستثقلة للنفوس، وموحشة للأنس والراحة، ومنفرة لإِلف الطباع، ومنغصة للعيش، ومبغضة للحياة.

واعلم بأن الصداقة لا تتم بين مختلفين في الطبع، لأن الضدين لا يجتمعان، مثال ذلك السخي والبخيل فإنهما متضادان في الطبع، فلا تتم بينهما الصداقة ولا تصفو لهما المودة ولا يهنيهما العيش، لأنه إذا فعل السخي شيئاً – مما يوجبه سخاؤه من بذل المال أو المعروف – رآه البخيل بصورة المضيع قد فعل ما لا ينبغي ولا يجوز. وإذا فعل البخيل بطبعه شيئا من إمساك المال – مما يوجبه بخله – رآه السخي بصورة من قد أتي منكراً لا يحسن فعله، فيصير ذلك سببا لعيب كل واحد منهما علي صاحبه، حتي يعتقد البخيل في السخي سخف الرأي وتضييع المال وترك النظر في العواقب، ويعتقد السخي في البخيل النذالة والدناءة وصغر النفس وقصور الهمة، فإذا وقع ذلك بينهما ودام، صارت وحشة تواترت حتي تصير عداوة، وتصير العداوة إلى الصرامة.

وهذا القياس في كل خلقين مختلفين متضادين، فإنهما يوجبان المنازعة، والمنازعة توجب المغالبة، والمغالبة تنتج المغالطة، والمغالطة توجب المباغضة، والمباغضة ضد الصداقة.

التحفظ من الأدعياء:

اعلم أيها المريد أن الله تعالي ذكر قوما بأنهم يدعون العلم، وذمهم سبحانه بقوله تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[1] وهم الذين يتكلمون في التوحيد علي غير هدي، بلسان الجدل والبحث عن الجوهر الفرد، والأشياء التي لا حقيقة لها، ويظنون أنهم علموا حقائق الأشياء وهم جاهلون بأنفسهم، غافلون عن المراد منهم، يوقعون المؤمنين في الشكوك فاحذرهم، ومنهم الجاهل المدعي الذي يكفر العلماء بالله، ويرميهم تارة بالكفر وتارة بالضلال، وهؤلاء هم قطاع طريق الله تعالي، ومن جهل شيئا عاداه.

---

(١) سورة الزخرف آية ٥٨ .

دعاة الجهالة:

إن لم يساووا علماء السوء في جلب المضرة علي المسلمين فهم أضر منهم، لأنهم يموهون علي العامة أنهم الدعاة إلى الله تعالي، الوارثون لأحوال الأقطاب والأبدال، ويوهمون عليهم أنهم يمكنهم النفع والضر، ويلفتون المسلمين عن العمل الواجب عليهم شرعا وعقلا من العلم والعمل للدنيا. ثم إنهم – بجهلهم – يوهمون أن التوكل ترك الأعمال، وأن الرضا عدم المعارضة وترك الناس يعملون ما شاءوا. ومنهم من يتقرب إلى الأمراء أو المتسلطين، فيكونون أعوانا لهم علي حب العامة لهم، والرضا بأحكامهم وأعمالهم، بل ويفهمونهم أن هذا هو الخير، وأن هذا فضل من الله ونعمه، وهو في الحقيقة سخط من الله ونقمة .

ثم إنهم – لطمعهم – يوقعون العامة في بغض العلماء والأتقياء والدعاة إلى الخير، فتحصل الفرقة، ويقوم كل فريق لمناوأة الآخر، فتتفرق الجماعة، ويسارع كل فريق إلى المتسلطين أو الأمراء، فيستعينون بهم علي أهل الحق، حتي يضعف القائمون بالحق ويختفون، وينتشر الباطل.

وأول فتنة حصلت فتنة مسيلمة الكذاب، ثم حوادث الخوارج، ثم بني أمية، ثم بني العباس. ولكن كان نور الكتاب والسنة مشرقا علي جميع المسلمين، ومن نظر بعين العبرة في مرض المسلمين الآن وما أصابهم، يجد ذلك ناشئا عن تلك الأسباب المتقدمة.

ودواء ذلك المرض أن يتحد الأمراء والعلماء والدعاة بالقلب واللسان علي العمل بكتاب الله تعالي وسنة رسوله ﴿ﷺ وآله﴾، وإحياء سيرة السلف، مع الزهد في الدنيا، والتوبة ببذل أنفسهم وأموالهم في إحياء سنة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالحكمة والموعظة.

وإلا فالله سبحانه له عباد أحبهم وأحبوه، يجعل إحياء ذلك الأمر علي يدهم، لأن الله غيور علي دينه وسنته وكتابه وسنة نبيه، ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾[1]

---

(١) سورة إبراهيم آية ٤٢ .

أسأل الله تعالي أن يوفقنا لما يحب من القول والعمل والحال، وأن يجمع قلوبنا علي الحق، وأن يهب لنا عناية يحيي بها السنة، إنه مجيب الدعاء، وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم.

الحرص علي من ظفرت به من الإخوان:

واعلم بأن مثل اتخاذ الأصدقاء والإخوان كمثل اكتساب المال والذخائر، وذلك أن من الناس من يفني عمره في طلب جمع المال فلا يقدر عليه، ومنهم من يكون مرزوقا من كثرة المال، ومنهم من يحسن كسب المال ولكن لا يحسن أن يحفظه، فهكذا حكم اتخاذ الإخوان والأصدقاء. ومنهم من يحسن اتخاذ الأصدقاء والإخوان ولكن لا يحسن حفظهم ومراعاة أمورهم، فيصيرون إلى العداوة بعد الصداقة، وإلي المباغضة بعد المودة.

فينبغي لك أن يكون أكثر كدك وعنايتك بعد اتخاذ الصديق مراعاة أمره وأداء حقوقه، حتي لا تصير الصداقة عداوة بعد طول الصحبة بملالة أو ضجر أو شكوك أو ظنون أو شبهة تدخل في المودة، أو نميمة أو وشاية من مخالف يسعي بينكما بالفساد، فتفقد يا أخي هذا الباب ولا تغفل عنه.

لا تثق إلا بالله وذر الإخوان:

اعلم أن الإنسان كثير التلون، قليل الثبات علي حال واحد، ولذلك فإنه قل من الناس من تحدث له حال من أحوال الدنيا، أو أمر من أمورها، من غني إلى فقر، أو من فقر إلى غني، أو من حضر إلى سفر، أو من عزوبة إلى تزويج، أو من ذل إلى عز، أو من عطلة إلى شغل، أو من بؤس إلى نعمة، أو من رفعة إلى ضعة، أو من ضعة إلى رفعة، أو من صناعة إلى تجارة، أو من صحبة قوم إلى صحبة آخرين، أو من رأي ومذهب إلى رأي ومذهب، أو من شباب إلى شيخوخة، أو من صحة إلى مرض، إلا ويحدث له خلق جديد وسجية أخري، ويتغير خلقه مع إخوانه، ويتلون مع أصدقائه، إلا الإخوان المتحابين في الله، الذين ليست صداقتهم خارجة عن ذاهم .

وذلك أن كل صداقة تكون لسبب ما، فإذا انقطع ذلك السبب بطلت تلك الصداقة، إلا صداقة المتحابين في الله، فإن صداقتهم قرابة رحم، ورحمهم أمسُّ من رحم من يعيش بعضهم ببعض، ويرث بعضهم بعضا، وذلك أنهم يرون ويعتقدون أنهم نفس واحدة في أجساد متفرقة، فكيفما تغيرت حال الأجساد بحقيقتها فالنفس لا تتغير ولا تتبدل كما قال القائل:

وفي الجسمِ نفسٌ لا تشيبُ بشيبه | ولو أن ما في الوجهِ منه خرابُ
لها ظفران كل ظفر أعده | وناب إذا لم يبقَ في الفمِ نابُ
يغيرُ مِني الدهرُ ما شاء غيرَها | فأبلغُ أقصي العمرِ وهي كعابُ

وخصلة أخرى: أن أحدهم إذا أحسن إلى أخيه إحسانا فلا يمن عليه به، لأنه يري ويعتقد أن إحسانه إلى نفسه كان، وإن أساء إليه أخوه لم يتوحش منه، لأنه يري بأن ذلك كان منه إليه.

فمن اعتقد في أخيه مثل هذا، واعتقد أخوه فيه مثل ذلك، فقد أمن كل واحد من أخيه غائلته أن يتغير عليه في يوم من الأيام بسبب من الأسباب أو بوجه من الوجوه:

ثقتي بنفسي ظلمٌ لي وبهتانٌ | وحسن ظني بغير الله حرمانُ
دع ما سوي الله وانهض مخلصا وجلا | له ومنه فحبُّ الغيرِ خسرانُ
ومنك فِرَّ إليه راغبا رهبا | فالله ربُّك والأكوانُ أكوانُ
أخْرِجْ من القلب ميلاً أو هوي لسوى | مولاك فهو قريبٌ منك منانُ
وابرأ إلى الله من حولٍ ومن حيلٍ | فإن أبيتَ مقالي أنت شيطانُ
أقبِلْ علي الله مضطرا ومفتقراً | لذاتِه ثم ناد القصدُ رضوانُ
دع الغرورَ بدارِ كلها فتنٌ | فقد هوي لحضيض النارِ هامانُ
وانْهَجْ علي منهِج القرآنِ معتصما | بحكمِه فحصونُ الله قرآنُ

أحِـــبَّ في الله وابغــضْ فيــه تحــظ بمــا   تبغيـــه وهـــو طهـــورٌ بـــل وريحـــانُ

معاملة الصديقين:

ينبغي إذا ظفرت بواحد منهم أن تختاره علي جميع أصدقائك وأقربائك وعشيرتك وجيرانك الذين نشأت معهم، فإنه خير لك من ولدك الذي من ظهرك، وأخيك الذي مــن صــلب أبيك، ومن زوجتك التي جعلت كل كسبك لها، وجميع سعيك من أجلها.

فاعرف حقه كما تعرف حقوقهم، بل ينبغي أن تؤثره عليهم كلهم، لأن هؤلاء يحبونك من أجل منفعة تصل منك إليهم، ويريدونك من أجل مضرة تدفعها عنهم، فإذا استغنوا عنــك زهدوا فيك ورغبوا في غيرك وخذلوك أحوج ما تكون إليهم، فأما هذا الأخ فليس يريدك من أجل شيء خارج عن ذاتك، بل من أجل أنه يري ويعتقد أنك إياه وهو إيــاك نفــس واحدة في جسدين متقابلين، يسره ما يسرك، ويغمه ما يغمك، يريد لك منه مثل الــذي تريد له منك.

واعلم بأن قلوب الأخيار صافية لأن نفوسهم طاهرة، ولا تخفي عليهم خفيات الأمور لأنها تتراءي في ها كما تتراءي في أعين البصر ظواهر كليات الأمور، فلا تضــمرن لإخوانــك الأصفياء خلاف ما تظهر لهم، فإن ذلك لا يخفي عليهم ولا يتكتم علــيهم منــك، والله الموفق.

شر الناس:

شر الناس علي أهل الدين والورع، وأضرهم علي العلماء، وأشدهم علي عداوة الحكماء، هذه الطائفة الظالمة المجادلة المخاصمة، الذين يخوضون في المعقولات وهــم لا يعلمــون في المحسوسات، ويتعاطون البراهين والقياسات وهم لا يحسنون الرياضــيات، ويتكلمــون في الإلهيات وهم يجهلون أسرار الكائنات، ويتصدرون في المجالس ويتجــادلون في أشــياء لا

تفيد في الدين علماً، ولا تنتج في الحكمة فائدة. مثل خلافهم في التعديل والتجريح، والحسن والقبح، والجزء الذي لا يتجزأ، وما شاكلها من المسائل المموهة المزخرفة، التي لا حقيقة لها ولا وجود إلا في الأوهام

الكاذبة ولا يصح للمدعي فيها حجة، ولا لسائل عنها برهان، وهم خائضون فيها في مجالسهم، مضيعون فيها أوقاتهم بالخصومات والمجادلات والمعارضات والمناقضات.

وإذا سئلوا عن أشياء هي موجودة مقدرة بين الناس ومعروفة مشهورة عند العلماء، لا يحسنون أن يجيبوا عنها، فإذا استقصى عليهم بالسؤال والبحث أنكروها وجحدوها، ويأنفون أن يقولوا: لا ندري، أو يقولوا: الله ورسوله أعلم، بل يخوضون في طغيانهم وجهالاتهم، ويدعون فيها المحالات، وربما يضعون في إبطالها المقالات المزخرفة، ويعارضون بها العلماء، ويشنعون بها عليهم، مثل قولهم: إن علم الطب لا منفعة فيه، وإن علم الهندسة لا حقيقة له، ومثل معاداتهم لأهل الزهد والورع والعلماء بالله، ورميهم بأنهم أهل بدعة، ويدعون عليهم المحالات، ويحكون عنهم الزخرفات على سبيل الشنعة عليهم، والوقيعة بهم بسخيف الرأي، ويسمعونها الأحداث ويصورونها في قلوبهم، ويمكنون في أنفسهم تلك الآراء الفاسدة، والمذاهب الرديئة، ويحيرونهم ويشككونهم في الحقائق.

ولو أن أهل تلك الآراء والمذاهب اجتهدوا بجهدهم، وأنفقوا أموالهم في إظهار مذاهبهم، والاحتجاج على آرائهم والإيضاح عن اعتقاداتهم، لما بلغوا عشر العشر مما قد بلغ هؤلاء المجادلة في تملكها في أكثر النفوس.

ومع هذه البلية كلها يدعون أنهم بهذا الفعل ينصرون الإسلام، ويقررون الدين، وإلى يومنا هذا ما روى أن يهوديا تاب على يد واحد منهم، ولا نصرانياً أسلم، ولا مجوسياً

آمن، بل يزدادون باعتقاداتهم ومذاهبهم احتفاظاً إذا نظروا إلى هــؤلاء المجادلــة، فــرأوا خصوماتهم في أحكام الدين، وكثرة خلافهم ومنازاعاتهم بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضا فاعتبروا أنَّ ما مثل هؤلاء المجادلة فيما هم فيه،ومن يـدخل في مذاهبهم، إلا كما ذكر الله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾[1] وقــال: ﴿ لَـا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾[2] فهذا حكم المجادلة فيم هم فيه من الخصومات والعداوات في الدين .

والله أسأل أن يجمعنا على الحق، وأن يهدينا هداية نتحقق بها بقولــه تعــالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾[3] إنه مجيب الدعاء، وصــلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والله أعلم.

متى تحسن السعادة الحقيقية للإخوان:

كل مجتمع من إخواننا في قرية أو مدينة أو أمة تحصل لهم حقيقة السعادة في الدنيا والآخرة إذا جملهم الله بأربع خصال:

١- أن يكون لكل واحد عقل موهوب يعرف به القبيح فيترجر عنــه، ويعــرف الجميل شرعا فيسارع إليه ويأمر به.

٢- أن تكون لهم في رسول الله أسوة حسنة، فيقتدون به صلى الله عليه وسلم في أعماله وأقواله وأحواله وأخلاقه صلوات الله وسلامه عليه، مع المحافظة الشديدة على سنته صلى الله عليه وسلم، بحيث لا يخالفون سنته صلى الله عليه وسلم في سر ولا جهــر مــا استطاعوا.

---

(١) سورة الأعراف آية ٣٨ .

(٢) سورة ص آية ٥٩ .

(٣) سورة الحجر آية ٤٧ .

٣- أن يكون لهم في كل يوم مجلس لدراسة الأحكام الواجبة عليهم في الـــدين، ومذاكرة الوصايا والمواعظ الشرعية، مع قيام كل واحد بمفرده بتلاوة ما تيسر من القرآن ترتيلا بتفكر وتدبر ومراقبة.

٤- أن يكون على كل جماعة منهم أخ مقدم من فضلائهم في معرفة أسرار السنة وفقه أحكامها، يرأسهم ليكون إماماً لهم يأمرهم بالعمل بالسنة ويحثهم على حفظها والمحافظة عليها، وينهاهم ويزجرهم عن مخالفتها، ويقهرهم على ملازمتها إذا أرادوا تغييرهـــا أو أي عمل يغير حكمها ولو في صغير الأمر.

إذا منَّ الله على كل جماعة من إخواننا بتلك المنن كانوا على حسن ظني بالله، من المعنيين – والله تعالى أعلم – بقوله سبحانه: ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْــعِفُوا فِـــي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّـــهُ الَّـــذِينَ آمَنُـــوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾[2].

أسأل الله تعالى أن يمن علينا باليقين الحق، ويجعل لنا منه سلطانا نصيرا، إنه مجيـــب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) سورة القصص آية ٥ .

(٢) سورة النور آية ٥٥ .

المحسن هو من سبقت له الحسنى:

إن الله تعالى خلق الخلق، وفطرهم بما أودعه فيهم من نور الفكر والقوة العاقلة على حقيقة التوحيد، والميل إلى الدين، والشعور بواجب الوجود، والالتجاء إلى جنابه العلي عند الضرورات.

ولو وجد إنسان منفرد في غيضة لم يحط به أناسي يفسدون فطرته، لكان بوجدانه يشعر بقوة قادر أوجده وأعد له ما لابد له منه وأكمل، فإذا دعاه داع إلى التوحيد بحججه الظاهرة الجلية لأجاب بتسليم ويقين وإقبال، لأن لوح القلب صالح لأن تسطر فيه آيات التوحيد، والعقل الإنساني قابل بحقيقته أن يصدق بالتوحيد لما فطر عليه.

ولما كانت الفطرة السليمة قابلة للتوحيد مستعدة له، وإنما يقفل القلب بقفل الغفلة، والتأثيرات الخارجية من المعدات المحيطة بالإنسان من الناس واللوازم والبواعث للأهواء والحظوظ، فالعبد الذي سبقت له الحسني أمده الله تعالى بما يعينه من أهل وإخوان، وأمده سبحانه بحسن التسليم، وجذبه إليه بنور يقذفه في قلبه، ويحفظه من الميل إلى دواعي الغرور وبواعث الحظوظ، حتى لا يزال في مزيد من الإقبال وانشراح الصدر بالقربات، وطمأنينة القلب بحقيقة التوحيد والتصديق بما جاء به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾من الأحكام والأخبار بالغيبيات، حتى لو فرض أن الذي سبقت له الحسني وجد بين أهل الغفلة والجهالة – بل والكفر – لوجد من نفسه منافرة ومباينة لمجاوريه وأهله، ومال بفطرته إلى الحق وأهله، وقد يعيش محاطاً بشياطين الإنس والجن حتى يكاد أن يكون مثلهم عملا وعلما وعقيدة، ثم لا يلبث إلا ريثما يسمع كلمة حكمة ودليل توحيد وخبرا عن عمل الخير، حتى يميل بكليته ويميل بجميعه إلى الحق، إجابة لداعي فطرته وتلبية لمنادي قلبه، فكانت الحكمة كمفتاح فتح قفل القلب، وأزال الغشاء عن العين فتنور القلب وفقه، وأبصرت العين وتدبر الإنسان، هذا كله لسابقة الحسني والله ولي المؤمنين.

وهذا الذي جعل الشرع يوجب الخوف على المسلم، وعدم أمن جانب الله تعالى، ويمنع – بل ويحرم – القنوط من رحمته سبحانه، حتى أن الكامل من الأبدال كلما تقرب إلى الله

تعالى اشتد خوفه من لقائه، ومن خوف السابقة والخاتمة، أسأل الله تعالى أن يجعلني وأهلي وإخواني جميعا ممن لهم الأمن وهم مهتدون.

أما من لم تسبق لهم الحسني – والعياذ بالله تعالى – والله حكم عدل رءوف رحيم بعباده سبحانه وتعالي، فإنه سبحانه فطر الخلق على التوحيد، ثم وهبهم العقول والقلوب والأبصار والسمع، ثم أبدع الوجود دالا على كمال القدرة، وتوحيد الفاعل، فالكون حجة ناطقة للعقول، دالة للنفوس على المبدع الجميل اللطيف الودود، ولكن الله تعالى سبقت إرادته وقدرت مشيئته أن يجعل للجنة من يشاء من عباده، ويجعل من شاء للنار، فأقام من سبقت له الحسني فيما أحب سبحانه، وأعانه بحيطة تعينه، وحبب إليه الجميل من الأعمال والأخلاق والأحوال والاعتقادات، فعاش سعيداً في الدنيا وسعيدا في الآخرة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَي أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾[1].

ومن سبقت له السوءي – والعياذ بالله تعالى – أقامه الله سبحانه فيما يكره، ومده بحيطة تعينه على ذلك، فألف القبيح من الأعمال والأخلاق والمعتقدات، حتى فارق الدنيا على هذا، فشقي شقاوة الأبد، أسأل الله تعالى أن يجعلني وأهلي وإخواني وأولادي والمسلمين ممن سبقت لهم الحسني، إنه مجيب الدعاء آمين.

المعاني التي تصح بها إرادة المريد:

إذا اتصف المريد بأربع صفات كان أهلا أن يكاشف بالأسرار الربانية، ويمنح المواهب

(1) سورة الأنبياء آية ١٠١ – ١٠٢ .

والعلوم اللدنية، وهي:

١ـ الإقرار باللسان.
٢ـ والتصديق بالضمير.
٣ـ وتصور الأمثال التي ضربت للبيان.
٤ـ ودوام اجتهاده ونشاطه في عمل القربات.

فمن كملت فيه تلك المعانـــي صحت بدايته، وأشرقت بأنوار القرب نهايته. ومن نقصت منه معنـــي من تلك المعانـــي بأن أقر ولم يصدق، أو أقر وصدق ولم يتصور، أو أقر وصدق وتصور ولم يجاهد، فهي مراتب للجزاء والحساب لا للقرب من حضرة المـــنعم الوهـــاب، وبيان تلك المعانـــي سبق شرحه فيما تقدم من المواضيع:

عــزمُ المريــد جهــادُ الــنفسِ بالعمــلِ ... وهمُّـــه حظـــوةٌ في روضـــةِ الأمـــلِ
يجاهــدُ الــنفسَ بالأعمــالَ يحبســها ... عــن حظهــا خشــية التغريــرِ والزلــل
يبيــتُ يجهــدها والخــوفُ يوقعــه ... لحملــها وهــي في ســهوٍ وفي ملــل
حــتي تلــينَ علــى الأعمــال راغمــةً ... فتســتلذَّ بعــزمٍ صــادقٍ وعلــى
فتدخُل الحصنَ حصن الحفــظِ عــن زلــل ... وتنــهجَنْ بالرضــا في أقــرب الســبل
يــري المريــدُ بلــين الــنفس أن لــه ... نيل القبــول بــدا والنــور منــه جلــى
يتيــه بعــد جهــاد الــنفس مرتشــفا ... خمرَ الوصول بمعنــي وهــو منــه خلــى
تلــك الرياضــةُ يــا مســكينُ غايتــها ... ذل ومســكنة إن صــح أنــت ولى
هــذا الجهــادُ حصــونُ عــن مخالفــة ... بظاهرِ الجسمِ مــن ظلــم ومــن علــل
بــه تكــون قريبــا للوصــول إلى ... فهمِ المعانــي ومــن الآثــارِ والرســل
حــتي تجاهــد بالمعنــي هــواك وفي ... دور الجهــادِ يُــري غيــب بــلا عمــل
تخفــي حقيقتُــك الأولي الــتي ظهــرت ... لعــين رأســك بالأوهــامِ والزلــل
وتظهــرنْ لــك أســرارُ مقدســةُ ... بــها تُحلــي بــأنوارٍ مــن الحلــل
يغيــبُ مــا لاح والغيــبُ العلــيُّ يُــرى ... بنــورٍ عــينٍ أضــاءت بالضــيا الأزلى

وعندها أنت في حصنِ الحصونِ على رفارفِ الحفظِ ملحوظا بعين ولى
لا حول تشهده إلا بواهبه ولا قوي لك إلا منه في العمل
تلك الرياضةُ تزكيةُ النفوس بها نيلُ الفلاح ونيلُ الوصلِ والأمل

مجاهدة النفس:

ينبغي لكل مريد أولا أن يبتدىء بإصلاح أخلاق نفسه وعاداته، فإذا عدلها واستوت فعند ذلك له أن يصلح غيره، قال عليه الصلاة والسلام: « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ». وقال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾[١].

ثم اعلم أن أكثر الناس قد تركوا وصية ربهم، ونصيحة نبيهم، فيما أمرهم من إصلاح ذات بينهم، وما فيه نجاة نفوسهم من العذاب الأليم، بما رسمه لهم من التعاون والتعاضد والتناصر والتحابب والتودد والألفة فيما بينهم، واشتغلوا بما نهوا عنه من ذكر عيوب بعضهم بعضا، وتشنيع بعضهم على بعض، وصاروا فرقا ومذاهب وشيعا، وتوقدت بينهم نيران العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وذلك أنهم يعيب بعضهم بعضا بحرقة قلوبهم وألم نفوسهم، وهم في العذاب مشتركون أولهم مع أخرهم كما ذكر الله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾[٢] التي خالفتها، وقالوا ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾[٣] ، وقالوا: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾[٤] يعني من كان موافقا لهم ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ

([١]) سورة المائدة آية ١٠٥ .
([٢]) سورة الأعراف آية ٣٨ .
([٣]) سورة ص آية ٥٩ .
([٤]) سورة الأعراف آية ٣٨ .

بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾[1] لما تركتم وصية ربكم ونصيحة نبيكم وقال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[2] فكانوا هم الظالمين بتركهم الوصية.

السالكون طريقَ الخوفِ أبطالُ | والواصلون بنور الفضل أبدالُ
للسالكين جهادُ دائمُ وهم | خوفُ به عن سوي محبوبِهم مالوا
زهدوا ففازوا بتوفيقٍ وصح لهم | لصدقِهم نورُ ما عملوا وما قالوا
هم في جهادٍ وفي نسكٍ لأنهم | علي السوابقِ من هماتهم جالوا
سهروا الليالي في ذكر يؤرقهم | خوفُ الجلال فلما صابروا نالوا
نالوا الهدايةَ والإقبالَ فانشرحت | صدورُهم لم يكن للقوم أثقال
خفوا فخافوا فكان الخوفُ داعيهم | إلي الجنانِ وفي الجناتِ إقبال
والواصلون بفضل الله قَرَّبَهم | به إليه وللأبدال أحوال
أنسوا به حيث كانوا في معيته | لم تُلههم جنةٌ نفساً ولا مال
رأوا جمالا عليَّا عن منازلةٍ | يخفي على العقلِ والتوضيحُ إجمال

المشاكلة هي القرابة:

قد يكون الإنسان كاملا في الشكل، يحكم عليه من نظر إليه بأنه إنسان لخفاء معانيه عن الناظر، وقد تكون حقيقته أنه جماد أو بهيم أو إنسان كامل، أو شبيه بالأنبياء والرسل والملائكة بحسب ما تجمل به من المعاني، ولا يعلم ذلك جليا إلا الذي أوجده وأمده، ومن وهبه الله نورا يعرف به مراتب النفوس وموازينها ونفس الإنسان، فإذا كان من المؤهلين للسعادة جاهد نفسه في نوال الكمالات، التي يكون بها مشابهاً ومشاكلاً لأهل المراتب العلية من أهل النفوس الطاهرة الزكية، ولا تكون المجاهدة إلا بتلقي العلوم النافعة، ومعرفة الأخلاق الطاهرة، التي كان عليها سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ

---

(1) سورة السجدة آية ٢٠ .

(2) سورة النحل آية ١١٨ .

ﷺوآله﴾، حتى تحصل المشابهة، فإذا كملت المشابهة ثبت النسب وصحت الوراثة، وكـــان الإنسان قريبا لمن تشبه به قرابة نسب وولاية اقتراب، وإذا حصل النسب وثبتت القرابة نما الحب للمحبوب، وتعين المقصد والمطلوب، ووافت العناية بالوسيلة الـــتي بهـــا الوصـــول والقبول، ومن لم يكن كاملا في المشابهة، فهو بعيد غريب، وإن كان حاضرا قريباً.

فعلي من يريد الوصول أن يتجمل بمعانـــي المقصود، ويبحث عما يحبه ويرضاه مما أمر بـــه ورغب فيه، فيسارع إليه فانيا عمن سواه، مبتغيا فضله ورضاه، ليفوز بمطلوبـــه ويحظـــي بمحبوبه، والله أسأل أن يخلقنا بأخلاق حبيبه ومصطفاه، وأن يعيننا على اتباع هديه ويمـــن علينا برضاه آمين.

نســـبان نســـبُ حقيقـــي ومقـــامى ... ثم انتســـابي للمقـــام الســـامى
فـــالأولُ التوفيـــقُ للعمـــل الـــذى ... هـــو شـــكرُ نعمـــةِ موجـــب إكرامـــى
حُلـــل بـــها أنـــا عبـــدُه متحقـــقُ ... بالـــذل والتكليـــف بالإســـلام
لأقـــومَ بالطاعـــاتِ مفتقـــرا إلى ... نيـــل القبـــولِ بصـــحةِ الإحـــرام
نســـبُ العبـــادةِ للقريـــبِ تقـــربى ... لحظـــيرةِ الرضـــوانِ والإنعـــام
وبهـــا أكـــون أنـــا العبيـــدَ لخـــالقى ... عنـــد الصـــلاةِ لذاتـــه وصـــيامى
أمـــا انتســـابي للمقـــام تَخَلُّقـــى ... بجمالِـــه الســـامي بـــنص كـــلام
نســـبُ بـــه كشـــف الغيـــوبِ لواصـــلٍ ... وتحقـــقُ بالكشـــفِ لا الأوهـــام

حجب السالكين:

السالك الصادق في بدايته، المسترشد بصحة إرادته، المصاحب للعارفين، المتبع سبيل أهـــل اليقين، له عثرات وزلات، ربما أوقفته عن السير، وحجبته عن الترقي في مقامـــات العلـــم والمعرفة والحال. وذلك أن أهل التمكين ورجال مشاهدة عين اليقين صـــغرت في عيـــون

قلوبهم الدنيا وزينتها، وإقبال الناس عليهم، وعظم الحق في قلوبهم، وقويت الرغبة في جنابه العلي، حتى لم يبق لهم رغبة في سواه، واشتاقت أرواحهم إلى القرب من حضرته، ورؤية جماله العلي ووجهه الكريم، ومالوا بكليتهم عن زهرة الدنيا شوقا إلى نعيم الآخرة، ومعيتهم للنبيين والصديقين والشهداء. ومن أحوالهم أن أعمالهم الحقيقية قلبية أكثر من كونها بدنية، فلا يلتفتون لتعظيم الناس لهم ولا لاجتماعهم عليهم، ولو بذلوا أنفسهم وأموالهم لهم، لأنهم مشغولون بمواجهة الوجه الجميل العلي، أغنياء بحسن اليقين، والثقة بالله، وكمال التوكل عليه، وعكوف الهمة على حضرته العلية، فهو لذلك لا يخشي عليه ليقظة قلبه وحضور لبه ودوام معيته بربه.

فالسالك حقا من أنزل نفسه منزلتها، ووقف عند قدره وقوف المؤدب، حتى يذوق حلاوة الإيمان ولذة التقوي، فيفني عن كل حلاوة ولذة في الدنيا، وإذا أهمل وتشبه بالمرشد ومالت نفسه أن يعمل له الناس ما يعملونه للمرشد، ومالت نفسه إلى ذلك، ولم يجاهد نفسه أن تجد وتسعي لتبلغ منازلة المرشد ومشاهده، فإنه إن أهمل في هذا الجهاد، وتابع نفسه، ورأي نفسه أهلا للإكرام من إخوانه – ولو أنهم تلقوا عنه علوم المعرفة والأخلاق والتحقيق، أو نالوا على يده أحوالا حسنة، وشمائل جميلة – وحسنت نفسه عنده، وظن أنه صار ممدا لغيره معلما لغيره نافعا، وغره حسن ما أنعم الله به عليه، ونسي قدره، فإنه ربما حجب حجابا أبعده، أو أبعد بعداً قطعه.

فقد حصل الغرور لبعض المسترشدين بأحوال شريفة نالوها بصحبة الرجل، وعلوم منحوها بسماع حكمه والتلقي عنه، وأسرار تلقوها منه، فبلغ بهم الجهل إلى أن كانوا إذا ذكرت علوم المرشد لديهم أشاروا أنهم هم الواسطة، ثم هم الباب الموصل، ثم هم الممدون، استدراج من الله تعالى لهم، وحجاب قطيعة – نعوذ بالله تعالى – حتى بلغوا مبلغا سعوا أن يستروا عن الناس أسرار المرشد، وينسوا الناس علومه وآدابه وأخلاقه، فعلي المريد الصادق أن يحافظ على الآداب، والمحافظة على منزلة المرشد، ليرقي إلى مقام المقربين، والله ولي التوفيق.

المراقبة:

المريد في بدايته بعد صحة إرادته، وتحصيله على ما لابد له من العلوم النافعة، إذا أشرق عليه نور علم اليقين، وذاق حلاوة القربات ولذة الطاعات، حاسب نفسه على أنفاسه فيم صرفها، فإذا ظهر له رجحان الخير على الشر، انبسط وفرح، ونما في نفسه هذا الباعث حتى يقوي فيه، فيدفعه إلى المحافظة على الأنفاس أن تضيع، إلا في قربة أو مكرمة من علم نافع أو عمل صالح، حتى يكون الخير أغلب عليه، والفلاح أقرب إليه، والإقبال على الأعمال الصالحة سروره، فيري في نومه صور إرادته في يقظته، وفي يقظته حقائق رؤيته، فيكون هذا أول مقام من مقامات تزكية النفس، ومترل من منازل الأنس.

ولديها يقوي اليقين، حتى يصير عينا، وينتقل إلى المراقبة، وهو حضور القلب عند تجدد كل شأن لأعضائه العاملة من سمع وبصر وشم وذوق ولمس، وينفتق رتق القلب، وتشرق عين السر، ويكون في روضة الفكر، فيشهد النعم المحيطة به، والمنن التي فيه، فتصغر في عينه أعماله، ويستصغر شكره، ويطمئن قلبه بولي تولاه بآلائه ووده بنعمائه، فيطيب وقته، ويصفو ويحلو حاله، ويدوم أنسه، ويرتقي إلى حال البسط بما يتوالي عليه من البهجة وانشراح الصدر بالواردات التي ترد عليه من حضرة الملكوت، وما يذوقه بنور فكره من أسرار المعاني المشرقة في المباني المنبئة عن سر توحيد الأفعال، حتى يحيي قلبه بالملاحظة والاستحضار، فيطيب وقته ويأنس بالمراقبة من تترلات معاني الجمال. ويستغرق في تلك الملاحظة أوقاته وأنفاسه فلا يري ولا يسمع ولا يشم ولا يمس ولا يذوق، إلا وهو مستحضر من تلك الشئون آيات تجدد وجده وتيقظ قلبه، إلى أن تنكشف لسريرته أنوار ملكوت السموات والأرض، فتنقلب الملاحظة والاستحضار إلى معاينة وشهود، وينتقل الحال إلى المقام، فيكون المشهود الأسرار والآيات، والملاحظ الآثار والمكونات، وعندها

يتسع القلب، وتكمل طهارة النفس، وتكون همه وبواعثه وانفعالاته وإرادته ملكوتية، ويتحصن بحصن ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾[1].

وفي هذا المقام ينشط السالك لعمل القربات بلذة ورغبة وفرح وابتهاج، وتصغر في عينه ملاذه الحيوانية، و شهواته الآدمية، وحظه وهواه الإنساني، حتى تتبدل كل تلك الصفات بالمعاني الفاضلة الروحانية.

وفي هذا المقام تصح له الإرادة، وتتحقق منه الإنابة، ويتجمل بالإنابة إلى الرب، والاستسلام له سبحانه، لأن كل تلك الجواذب والبواعث عن حيطة الفكر في خلق السموات والأرض، وارتشاف حميا التدبر، واستعمال الجوارح فيما خلقت له من الشكر بالعبادات والمعاملات والأخلاق بعد العلم بالعقيدة بساطع الحجة وواضع البرهان.

ثم تشرق أنوار التوحيد من سر الواحد ونور الأحد بلا فكر ولا تدبر، ولكن بالإسلام لرب العالمين، والإنابة إليه من النفس والحظ والهوي، فإذا أشرقت تلك الأنوار على القلب المتسع بالاستسلام، تجمل باطنه بحقيقة اليقين، واشتاق بشديد الوله إلى معاني الصفات، ونما الوله حتى يبلغ درجه التأله، فتجلي له من أسرار التوحيد أنوار مواجهة العزة ومشاهد الجبروت، فينقبض القلب وينكسر ويخشع، وتحصل الرهبة والعظمة ليتحقق الخوف من العلي الكبير والخشية من الجليل العظيم، والحياء من القريب الجميل.

وفي هذا المقام يتحقق بكمال العبودة للذات، ويكون ذليلا في عينه وحقيرا في نفسه، ولكنه مجمل بحلل المهابة والعزة، يغضب لله ويرضي لله، طويل الفكر، ثغره باسم منكسر القلب حزين. وتقوي صدمات العظمة على قلبه، ومواجهات الجبروت للطائفه، حتى يكون بكله مع الله ولديها يكون الله عنده. و كشف تلك المعاني لا توضحه العبارة، ولا تفي به الإشارة، إنما يذاق لأهل الاستعداد في مقام الاستسلام ومترلة التفويض. وهذا مقام بداية

---

(1) سورة الحجر آية ٤٢ .

المقربين والبرزخ بينهم وبين الأبرار، وإنما الأبرار عشاق نعم المنعم وجماله، والمقربون عشاق المنعم الجميل، وكل منعم بما له عشق أو بمن فيه تتيم وله أراد، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

وكل ذلك لا ينال إلا إذا وفق الله العبد لانتهاج مناهج رسوله ومصطفاه سيدنا ومولانا محمد ﴿ﷺ وآله﴾، أسأل الله تعالى أن يعيذني من مخالفة سنته وهديه، ويمنحني الأخلاق والصدق في معاملته سبحانه، ويجعلني من المقربين المحبوبين لذاته بجاه نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ .

يراقبُ أحكامي ويحفظُ شِرْعَتي — فتي سالكٌ يرجو وصالا لوجهتي
يعاملُ خلقي بالذي قد شرعتهُ — وبالفضل يستجدي جميلَ مودتي
ويعبدُني بالصدق لا يرجو نعمةً — من الخلق بل يرجو قبولي ونعمتي
وهذا سبيلُ السالكين وحالُهم — مراقبةُ الأحكام رغبة جنتي
وبعد تمكنهم وحسن قبولهم — وصدق عزيمتهم بحال البداية
يلوح عليهم من سما القرب بارقٌ — بأسرارِ قدسٍ من رياض المعية
ووارد حق العين يأتيهم على — براقٍ من الحسني بفضل العناية
يراقبُ أهلُ العين آياتِ سِرِّنا — سرت في جميع الكون من نور وحدة
مراقبة حال الصفا بشهادة — بعين يقين أو بأنوار فكرة
بها الشوق للقدس العلي يقودُهم — وللعالم الأعلي بعاملِ رغبة
فتشرق أرضُ السالكين تكرما — بنور من الرب القريب برأفة
وتشرق شمس الحق فيها مضيئة — لأرجائها وتلوح أنجمُ وجهة
وهذي مراقبةُ القريب لربه — وأهل التجلي والكرام الأحبة
ومن بعدها أهلُ المقام الذي علا — مقام شهود الإصطفا والولاية
ومنزل أفراد دعاهم لذاته — به أقبلوا فتقبلوا بالمودة
رأوه به وبذاتهم لاح نورُه — فشهدوا مجاليه بأجلي شهادة

به شـغلوا عنـهم ومـن يـك شـغلهُ بمطلوبِـه يحظـي بنـورِ الحظـيرة

السماع:

الحكمة الإلهية إما روحانية أو جسمانية.

فالحكمة الجسمانية نوعان: أحكام شرعية علمية عملية، وأحكام صحية تتعلق بدوام صحة الجسم، وحفظ الصحة عليه، وهي الحكمة التي يجب التقليد فيها للأئمة الصادقين وللمجربين العالمين، ويجب تلقيها علما وشهودها عملاً، والسماع فيها واجب شرعا، لأن تعليمها فرض عين في أحكام الشرع في أصول الدين وفروعه التي لابد منها عند وجوبها على العامل. والتوسع في جميع الأصول والفروع فرض كفاية على الأمة.

والحكمة الروحانية نوعان: الأول: عقائد لابد منها للمسلم إجمالا، وأخلاق لابد منها لحسن المعاملة الضرورية. الثاني: تفصيل العقيدة، وعلم ما يمكن أن يتلقاه المؤمن الكامل الإيمان من أسرار الحكمة الإلهية من الكمالات الذاتية، والجمالات والجلالات، وسر تصريف القدرة وعجائب تجليها وكشف غوامض الحكمة وشهود معانيها، وعلم النفس وأنواعها وأمراضها ودوائها وتصفيتها من الحظوظ والأهواء، وعلم أسرار الكائنات ومراتبها، وذوق أسرار التجلي، والتتريه والتشبيه، والتدلي والدنو والترول والتجلي، وغيب البطون وكشف الظهور، وما يناسب علوم اليقين من الحب والوجد والزهد، والتوكل والتفويض، والرغبة والرهبة، والخوف والخشية والطمع والرجاء، والفناء والبقاء، والجمع والفرق، والعلم بالله والمعرفة، والكشف والشهود، وأسرار البرزخ والقيامة، والمعية والعندية، وما يلزم ذلك من أسرار الحكمة التي لا تتلقي بالعبارة ولا بالإشارة، والتشبيه بالمعاني، والتخلق بالأخلاق الإلهية.

كل ذلك من الحكمة الروحانية التي لا ينبغي التقليد فيها إلا بعد إشراق أنوارها على القلب المطمئن، حتى تنبعث تلك الأنوار على جميع الأعضاء العاملة، فيقوم كل عضو

بكمال وظيفته، ولديها يتلقى القلب عن الرب، فينجذب إلى عوالم الروحانيين، ويذوق من كل الموجودات ذوقا روحانياً بحسب مأخذ كل عضو.

ولما كانت معاني الألوهية والكمالات الذاتية لا ظهور لها في عالم الحس والخيال، كانت الحكمة الإلهية تتلقي بالسمع، وكلما كانت إشارة صفت الروح وتقوت، وكان لها السلطان الأكبر على الإنسان فجذبته إليها، وتطهر من كل مقتضيات رتبته، وتسلي عن لوازم مكانته، واشتاق إلى عوالم الملكوت حتى يتم الشبه، ولديها يسكن إلى الله فيحركه الله، وهو الساكن المحرك، ويفني في الله فيبعثه الله، وهو الميت الحي، ويغيب عن نفسه بالله، فيظهره الله مجملا لخلقه، ويعبد الله خالصا، فيسخر له الله جميع خلقه.

وفي هذا المقام يكون السماع فرض عين على هذا الواجد، لأنه يسمع بسمع الروح، ويفقه عن الله، وذلك لأن الحكمة الإلهية لما كانت ألفاظاً مقربة للمعاني، وكان مدلول الألفاظ محسوساً أو متخيلاً، ومعاني الربوبية فوق الحس والخيال، كانت الألفاظ المسموعة للمتمكن دالة على حقائق المعاني المرادة للحكيم بسماعها مزيد من الله لمن زكت نفسه وتهذبت.

ولذلك كان للوجود نغمات وللأوتار نغمات دالة على أسرار الحكمة، تسكر بها الأرواح، ألم تر قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾[1] إن كل شيء دال على معاني الظاهر، مسبحاً جنابه العلي عن الإدراك بالتحديد سبحانه وتعالى.

الذكر مراقبة للمذكور ومجاهدة للنفس والهوى:

المريد الصادق في إرادته، المتمكن في حاله، المتوسط في سلوكه، إنسان جمع كل الحظوظ، وكملت معاني الآدمية فيه من الأمل وطوله، والهوي وعوامله، والحظ وبواعثه، والشهوة ولوازمها، حتى يكون مريدا حقاً، مجاهداً في سبيل الله.

---

(1) سورة الإسراء آية ٤٤ .

ولكن تلك النفوس والقوي الحيوانية أو الرعونات النفسانية والأهـــواء الإبليســـية، وإن كملت فيه وقويت شوكتها، وقامت قائمة سطوتها، واستعرت نار شرهها وملائمها، فـــإن معرفته بنفسه وعلمه بأنها تهوي ما يهلكها، وتتلذذ بما يبعدها، وتميل إلى ما يحجبها، وتحـــب ما يقطعها، وترغب فيما يؤلمها، وتري ذلك لذة وحظا وخيراً وسعادة حقيقيـــة محسوســـة، تقوم بحرب عوان على تلك النفوس، وتجاهدها جهادا حقيقيا بعين يقين وحقيقة تمكين، حتى تذلل صعبها وتطهر لقسها وتزكي خبثها.

وتشفي مرضها، بجهاد أشد من جهاد العدو الألد. فتكون النفس بين نزال وطراد وهجوم ومدافعة، حتى يجعل الله النور في القلب، فيفتح مدن النفوس ويســـتولي عليهـــا، ويـــولي الأعضاء الرئيسية على كل الأعضاء التي تحتها. ويقوم الحكم على كـــل عضـــو بـــالحق، فيعاقب العضو المسيء أو الراغب في الإساءة بعقوبة تناسبه من حرمان الملائم، حتى يزهـــد فيما مال إليه، أو بمفارقة المعتاد حتى يألف الجميل ويرغب فيه، أو يحـــبس الـــنفس عـــن مشتهياته الحسية والمعنوية حتى يكبح جماحها، كل ذلك بالنية الحسنة الخالصـــة لله تعـــالى ولرسوله ﴿ﷺ وآله﴾، عبادة لله تعالى واقتداء برسوله ﴿ﷺ وآله﴾

ولا ينفك المريد في هذا الجهاد الأكبر بين صلح وإصلاح وخصومة، وحكم بين جميع قـــواه المختلفة، وعناصره المتباينة، وصفاته وأخلاقه المتضادة، وما يكتسبه بالمعاشرة والمعاينة لأهل الدنيا والجاه والحساد والفساق، ومن يحيط به من أهله وجيرانه.

وهذا هو الذكر الحقيقي، الذي به يكون مراقبا للمذكور سبحانه وتعالي، مجاهداً في ســـبيله نفسه وهواه، وإنما يتحقق بالنية الخالصة، التي تجعله لا يتحرك إلا وله قصد في عمل صالح، وتجمل بفعل جميل، وتخل عن وصف قبيح نهي الله تعالى عنه ورسوله ﴿ﷺ وآله﴾. وهـــذا الذكر ذكر أهل المجاهدة، وبذلك يدوم للإنسان صفوه، ويجمل حاله، ويكون على مزيد من ربه، ويكون عمله مقبولا، وإن لم يعمل بالجوارح شيئاً، لأنه قد يكون عمله قلبيا، مجاهـــدة للمة النفوس أو رجوعا عن عمل قبيح همت به نفسه، وهو في هذا مكتوب عنـــد الله مـــن المجاهدين المخلصين، لأن الذي يقدر على جهاد نفسه يكون وليا من أولياء الله تعالى.

وقد يجهل المريد فيفرح بعمل الجوارح، لأنه ظاهرا عمل خير، ويجتهد فيه بنشاط فيتعوده ويتلذذ به ويقدمه على جميع الأعمال. وقد يكون في بداية العمل قصد به وجه الله تعالى والقربة إليه سبحانه، ثم يصير عادة للنفس، فيشغله عن واجب الوقت وفرض العين. وقد يكون العمل نفلا فيقوي في النفس، حتى يكون ألذ لها من كل الفرائض، مع غفلة قلبه عن النية. وقد يبلغ به التلذذ بالعمل إلى حد أنه يرى غيره ممن لا يميل إلى عمله أو إلى مشتهياته على غير الحق، أو يراه ضالا سبيل الحق، ويرتد بعد الإقبال بإخلاص إلى الاعتراض والانتقاد والجدل والحكم على أن عمله هو الحق، فيقع في تقبيح أهل الحق، وتحسين عمله الذي هو نفل أو مستحب أو مكروه أو غفلة لقلبه، فيكون من الغافلين، وهو يحسب أنه ذاكر حاضر وأنه ولي الله تعالى، حسنت له نفسه هواها فخلاها بل وأعاها.

وكثير ممن لم يصحب أهل العلم والمعرفة يكون سيره وقوفا، وعمله معصية، لأن صحبة العارفين تجدد للمريد في كل نفس علما بنفسه، وتبين له في كل لحظة سبيلا من سبل الله تعالى، فيكون على مزيد من ربه، وفي قرب واقتراب، وعلي حالة حسنة، وفي مقام أمين.

أنواع الذكر:

١- **ذكر القلب**: يظهر من هذا أن الذكر هو حضور القلب ويقظته وحركته في الفكر، في تزكية النفس أو الاعتبار بالحوادث أو التأمل في مصنوعات الله تعالى، مما في السموات والأرض من أسرار القدرة وغوامض الحكمة، وما فيه من عجائب القدرة، وغرائب الحكمة، وما في مراتب الوجود من النسب والارتباطات مما سخر له وقام لأجله، فسبحان البديع الذي أبدع كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، هذا هو الروض الزاهر اليانع، الذي يطيب فيه ذكر الذاكر، وفكر الفاكر.

٢- ذكر اللسان:

أما الذكر باللسان عندهم فهو النطق بالاسم المتجلي في الآثار المشهودة، التي كوشف بها بنور المعرفة، فينطق اللسان بهذا الاسم عن وجد وذوق معاني تجلياته، وله في كل مشهد اسم يذكر عند حضور القلب، وقد ينطقون بالاسم المحيط الجامع – اسم الجلالة (الله) –

عن الاستغراق في شهود معانـــي جميع الأسماء في أنفسهم، وفي الملك والملكوت، فتطيـــب النفس وتزكو وتتجمل بجمال الأحوال، وتترقي إلى على المقامات مـــن القـــرب والحـــب والشوق والوله والتأله، والخشية والرهبة والرغبة، وغير ذلك من مقامات اليقين، وهـــذا كله ذكر المجاهدين.

وهناك ذكر باللسان مع غفلة القلب عن ملاحظة تلك المعانـــي المتقدمة، وهـــو أن ينطـــق باسم من أسماء الله تعالى بلسانه فقط، وبه يكون الإنسان غافل القلب ذاكر اللسان؛ فـــإذا ترك النطق باللسان، كان غافل القلب واللسان، مبعوداً عن مواهب أهل الذكر، محرومـــا من الحضور والمشاهدات، وإن دام على ذلك أسود قلبه فحجبه عن ربه، وربما نسي يـــوم الحساب فارتكب المعاصي، وهجم عليه الموت في غفلته فمات – والعياذ بالله – على حالة إن لم تتداركه رحمة الله، خرج كافراً من الدنيا فخلد في النار.

نعوذ بالله من الغفلة عن ذكر الله، ومن نسيان يوم الحساب، ومن الطمـــع فيمـــا يفـــني، والاشتغال فيما يزول، وأسأله سبحانه وتعالي أن يمنحنـــي مواهب الذكر الأكبر، وجمـــال الرضوان الأكبر، ويكرمنـــي برشف طهور المقربين، ويجملنـــي بجمال المحبوبين، إنه فاعـــل مختار، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، وصلي الله على سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع

ركائز الإيمان

الإسلام والإيمان:

قبل أن نتكلم في هذا الموضوع، أقدم هذا الحديث الشريف الذي ورد في وصف العلماء بالسنة ومدحهم، قال ﴿ﷺ وآله﴾: « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » ومعنى ذلك – والله أعلم – أن الغالين هم المجاوزون للسنن، والمبطلون هم المدعون بالرأي والقياس، والجاهلون هم أدعياء الطريق الشاطحون الذين لا علم لهم ولا عقل، من الضلال الذين يدعون أنهم من أهل التصوف وليسوا منهم. وقوله ﴿ﷺ وآله﴾ : عدول كل خلف، أهل العلم بالله أتباع السنة الصالحة وورثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، الذين لم يبتدعوا في الدين ولم يتخذوا وليجة دون طريق المؤمنين، دليل ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[1] التي نزلت في حجة الوداع.

إذا تقرر هذا الحديث الشريف ووضحت معانيه، فالأولي لنا الأخذ بما كان عليه السلف الصالح، وهو أن نعتقد أن الإيمان والإسلام شيء واحد لا تضاد بينهما، كل منهما جزء متمم للآخر لا يتحقق أحدهما إلا بالآخر، وذلك ظاهر من صريح القرآن الشريف والسنة الصحيحة، وأخبار السلف رضوان الله عنهم.

ومن تأمل في هذا الموضوع يظهر له أن سبب الخلاف الذي حصل في الصدر الأول بعد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ – والذي بني عليه الفرق المختلفة اختلافهم، وكفَّر بعضهم

---

(1) سورة المائدة آية ٣ .

بعضا، وقاتل بعضهم بعضا – إنما هو ناتج من التفرقة بين الإسلام والإيمان، واعتقاد التضاد بينهما، والنجاة في اعتقاد أنهما واحد.

وما ورد عن بعض أهل الحديث أنهم فرقوا بين الإسلام والإيمان، كقول الزهري: الإسلام الكلمة والإيمان العمل. وقول عبد الرحمن بن مهدي – وقد سئل عن الإسلام والإيمان – قال: هما شيئان. وقول حماد: الإسلام عام والإيمان خاص. فإن تلك الأقاويل دليل لما قلنا، وشاهد عليه، لأنهم لم يفرقوا بين الإسلام والإيمان تفرقة اختلاف، ولم يريدوا أن أحدهما يوجد ويصح بعدم الآخر كقول المرجئة، وإنما فرقوا بينهما تفريق تفاوت وتخصيص، أي أن الإيمان أخص وأعلى، لأن الزيادة والنقصان فيه، والفضائل والكمالات والمقامات عنه، وأن الإسلام عام لا يخرج منه إلا الكافرون بالله، فهذا مراد من فرَّق بين الإسلام والإيمان. وفي الخبر أن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ سئل: أي الإيمان أفضل؟ قال: « الإسلام » قيل: فأي الإسلام خير؟ قال:« لإيمان» وهذا هو مذهب السلف الذي يرد على الفرق المخالفة، والله أسأل أن يجعلنا من المحافظين على السنة العاملين بها، إنه مجيب الدعاء .

أركان الإسلام:

إذا تقرر ذلك فأذكر لك – أيها المريد الصالح – أركان الإسلام والإيمان مفصلة كما كان عليه السلف الصالح من أئمة الهدي الراشدين المرشدين، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَي شَهِدْنَا ﴾[1]، وقال عز وجل: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[3].

---

[1] سورة الأعراف آية ١٧٢ .

[2] سورة المائدة ٧ .

[3] سورة الحديد آية ٨ .

فمبانـــي الإسلام خمسة:

١- أولها شهادة أن لا إله إلا الله وحده وأن محمداً ﴿ﷺ وآله﴾ عبده ورسوله، وهما كواحدة لاتصال احديهما بالأخري في الوجوب والحكم.

٢- وإقام الصلوات الخمس، وهن كواحدة منها لتعلق كل واحدة بصاحبها.

٣- وإيتاء الزكاة، وهي كالصلاة لاقترانها بها، والاشتراط بها.

٤- وصوم رمضان.

٥- وحج البيت. وهما كشيء واحد في الفرض.

فهذه الخمس كواحدة منهن في إيجاب العقد واعتقاد الوجوب، وإن اختلـــف الحكـــم في سقوط فعل بعضها بشرط. روينا عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أنه قال: « بنـــي الإســـلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت. » .

أركان الإيمان:

وأركان الإيمان سبعة:

١_الإيمان بأسماء الله وصفاته.

٢_والإيمان بكتب الله تعالى وأنبيائه.

٣_والإيمان بالملائكة والشياطين.

٤_والإيمان بالجنة والنار وأنهما قد خلقتا قبل آدم ﴿عليه السلام﴾.

٥_والإيمان بالبعث بعد الموت.

٦_والإيمان بجميع أقدار الله خيرها وشرها وحلوها ومرها، أنها من الله تعالى قضاء وقـــدراً أو مشيئة وحكما، وأن ذلك عدل منه وحكمة بالغة استأثر بعلم غيبها ومعنـــي حقائقهـــا، لا يسئل عما يفعل، ولا تضرب له الأمثال بملزمات للعقول وتمثيلات المعقول، تعالى عـــن

ذلك علوا كبيراً. وقد شهد الله سبحانه وتعالي بالضلالة على من ضرب لعبده الأمثال فقال تعالى جده: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾[1] فكيف بمن ضرب المثل للسيد الأجل بعد نهيه عن ذلك وإخباره بعلم غيب ذلك، إذ يقول: ﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[2].

٧_والإيمان بما صح من حديث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾وقبول جميعه وافتراض طاعته وأمره على العباد والتزام ذلك، إذ قد جعل الله تعالى طاعة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من شرط الإيمان، وقرنها بطاعته فقال: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[3]. واشترط للرحمة طاعة الرسول كما اشترط لها تقواه: ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[4] وحذر من مخالفة أمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأقامه في الاستجابة له مقامه، وجعله في المبالغة في الوصف والمدح بدلا عنه فقال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5] ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[7] لأنه قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾[8]. وهذه أمدح آية في كتاب الله تعالى، وأبلغ فضيلة فيه لرسول الله ﴿ﷺوآله﴾، لأنه جعله في اللفظ بدلا عنه، وفي الحكم مقامه، ولم يدخل بينه وبينه كاف التشبيه: كأنما، ولا لام الملك، فيقول: لله تعالى، وليس هذا المقام من الربوبية لخلق غير رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

---

(1) سورة الإسراء آية ٤٨ .

(2) سورة النحل آية ٧٤ .

(3) سورة الأنفال آية ١ .

(4) سورة النور آية ٥٦ .

(5) سورة النور آية ٦٣.

(6) سورة آل عمران آية ٢٨ .

(7) سورة الأنفال آية ٢٤ .

(8) سورة الفتح آية ١٠ .

هذا ما كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين، وهو النور الذي اهتدي به الخلف من تابعيهم.

الفصل الأول

الركيزة الأولى: العقيدة

طريقة المتكلمين في العقيدة :

لما كانت كلمة الشهادتين أصل العقيدة، ونور العبادة، وسر الأخلاق، ومأخذ حسن المعاملة، وكان لعلماء الكلام طرق في العقيدة مختلفة، أحببت أن أذكر مذاهب أشهر أئمة الكلام في طريقة الاعتقاد، رغبة أن يكون المطلع على كتابي هذا عالما بأقوال العلماء، تتميماً للفائدة، وحفظا لآراء المتكلمين، والله تعالى أسأل أن يجعل ذلك سبباً في نزع الغل من قلوب المؤمنين، حتى نتحقق جميعاً بقوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا ﴾[1] ، فإنهم رضي الله تبارك وتعالي عنهم تحروا إصابة الحق، واجتهدوا فيما تطمئن به القلوب، قال الله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾[2] ، وكلهم على خير من الله تعالى: (والمؤمن أخ المؤمن) لا يعيبه ولا يضره ولا ينقصه، فأقول وبالله التوفيق .

أشهر الطوائف المختلفة في طرق الاستدلال:

الطائفة الأولى: هي التي تسمي (الأشعرية)، ورأي أكثر الناس أنهم أهل السنة.

الطائفة الثانية: (المعتزلة).

الطائفة الثالثة: التي تسمي (بالباطنية).

الطائفة الرابعة: التي تسمي (بالحشوية).

أما الفرق التي تدعي (بالحشوية)، فإنهم قالوا: إن طريق معرفة الله تبارك وتعالي هو السمع لا العقل، أعني أن الإيمان بوجوده سبحانه الذي كلف الناس التصديق به، يكفي فيه أن

---

(١) سورة الحجر آية ٤٧ .

(٢) سورة الجن آية ١٤ .

يتلقى من صاحب الشرع، ويؤمن به إيمانا، كما يتلقى منه أحوال المعاد، وغير ذلك مما لا مدخل فيه للعقل، وطريقهم هذا نسلمه لمن لم يؤهلوا لتلقي العلوم النظرية، ولا لفهم الآيات والأدلة، وللمبتدئ الداخل في الإسلام أولا لأنه لابد من الإيمان قبل العلم. وأري أن الله تعالى أقام الحجج على التوحيد في أكثر آيات القرآن، وحث على النظر بالفكر في دلائله القائمة حججا على قدرته ووحدانيته وحكمته، وتقريرا لأسمائه الحسني وصفاته العلية، وأراهم قصروا في حصر الطريق على السماع .

أما الأشعرية والمعتزلة فإن طريقهم في ذلك هو العقل، وبنوا أصولهم على بيان أن العالم حادث، وحدوثه لأن أجسامه مركبة من أجزاء لا تتجزأ، وأن الجزء الذي لا يتجزأ حادث، والأجسام محدثة بحدوثه. وهذه الطريقة عويصة حتى على أهل الجدل والرياضة، فضلا عن العامة، وبيان ذلك مسطور في كتبهم. وبين الأشاعرة والمعتزلة اختلاف في بعض أمور نظرية، أصلها فهم بعض آيات القرآن الشريف، بقدر مواهب كل فريق منهم، وكلهم مؤمنون متزهون لذات الله وأسمائه وصفاته وكلامه العزيز، مجتهدون في إصابة الحق والوصول إليه ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ولإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[1] ، ومن أراد شرح طرقهم فليراجع كتبهم .

أما الباطنية فهم: فرقة من غلاة الشيعة يزعمون أن للشريعة والقرآن ظاهرا وباطنا وطريق ذلك التأويل.. ويعنون به توثب الفكر في العالم اللامتناهي، أو وثوب الروح نحو مثلها الأعلى.. وقد أعلن الإمام النزاري في قلعة الموت سنة ٥٥٧ بأن ساعة التخلص من عبودية الشريعة قد دقت نتيجة لبلوغ العلوم الباطنية الروحية الذروة، وقد عرفت الباطنية بأسماء مختلفة يلبسون لكل عصر ثوبا، فهم الإسماعيلية والقرامطة وإخوان الصفا والبهرة والفاطميون.

---

(1) سورة الحشر آية ١٠ .

طريق الصوفية:

قد تقدم الكلام لنا عليهم في علم التصوف، في كتاب: (أصول الوصول) وبينا آراءهم ومآخذهم، ولكنا نذكر هنا ما لابد منه.

القوم رضي الله عنهم لم يسلكوا في طريق معرفة الله تعالى ومعرفة آياته وآثاره ما سلكه علماء الكلام من البحث بالأشكال المنتجة، ولكنهم – بعد الإيمان بما جاء به رسول الله ﴿ﷺوآله﴾– سلكوا طريق مجاهدة أنفسهم، حتى صفت نفوسهم وتطهرت، وصارت مجردة عن الحظوظ والأهواء، فعلمهم الله علم ما لم يكونوا يعلمون، وجعل لهم نورا في بصائرهم يشهدون به حقائق الكائنات، ويعلمون به أنفسهم، والنشأة الأولي والنشأة الآخرة، وطريقهم هذا خاص لخاص، لا يؤهل له إلا من سبقت لهم الحسني من الله تعالى حقيقة قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[3]. وقوله ﴿ ﷺ وآله﴾: « من عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم » .

وهذا الطريق هو طريق الأخذ بالعزائم وقهر النفس على غير مألوفاها ليصفو جوهرها، وهو للقليل أهل الخصوصية وليس للعامة ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾[4]. ومن أراد مزيدا فليراجع هذا الموضوع في كتاب: (أصول الوصول)

---

(1) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

(2) سورة الأنفال آية ٢٩ .

(3) سورة العنكبوت آية ٦٩ .

(4) سورة ص آية ٢٤ .

طريقة السلف في العقيدة

خصال عقيدة السلف:

سبق لنا بيان العقيدة التي أجمع عليها أهل العلم بالله تعالى والعارفون به سبحانه في كتاب: (أصول الوصول) وأريد أن أبين ما كان عليه السلف في العقيدة.

لما كانت العقيدة مأخوذة من الاعتقاد – وهو من أعمال القلوب – فأقول: عقود القلب التي هي السنة المجمع عليها، نقلها الخلف عن السلف، ولم يختلف فيه اثنان من المؤمنين، فيها ست عشرة خصلة، ثمان واجبات في الدنيا، وثمان واقعات في الآخرة.

أولاً: الخصال التي هي في الدنيا:

١– بأن يعتقد العبد أن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويقوي بالعلم ويضعف بالجهل.

٢– وأن القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق، وعلمه القديم صفة من صفاته هو متكلم به بذاته، وفي الحديث عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: « ما تقرب العبد إلى الله عز وجل بأفضل من شيء خرج منه وهو كلامه ». وروينا عن ابن عباس رضي الله عنه: أن عليا عليه السلام دعا عند قتال صفين: « يا كهيعص، أعوذ بك من الذنوب التي توجب النقم، وأعوذ بك من الذنوب التي تغير النعم، وأعوذ بك من الذنوب التي تهتك الحرم، وأعوذ بك من الذنوب التي تحبس غيث السماء، وأعوذ بك من الذنوب التي تديل الأعداء، انصرنا على من ظلمنا » قال الضحاك بن مزاحم: فكان على عليه السلام يقدم هذه بين يدي كل شديدة.

وفيما روينا عن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ من قوله: « أعوذ بكلمات الله وأسمائه كلها » كما قال: « أعوذ بعزة الله وقدرته » دليل أن الكلام والأسماء صفات.

وعن على عليه السلام، حين حكم الحكمين فنقم عليه الخوارج ذلك فقالوا: حكم في دين الله من المخلوقين. فقال: والله ما حكمت مخلوقا، ما حكمت إلا القرآن. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين سمع قرآن مسيلمة الكذاب الذي افتعله وتخرصه يضاهي به كلام الله

تعالى: والله ما خرج هذا من إل ولا من تقي. قال أبو عبيدة: يعني ما خرج من الله تعالى. قال: وفيه دليل أن القرآن غير مخلوق، وأنه خرج من الله تعالى تكلم به، قال: ومن هذا قوله تعالى: ﴿لاَيَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً وَلاَ ذِمَّةً ﴾[1] ، معناه: الله عز وجل لا يرقبونه. وقد روينا عن رسول الله﴿ﷺوآله﴾ بمعني ذلك في قوله: « فضل كلام الله عز وجل على سائر الكلام، كفضل الله تعالى على خلقه » وذلك أنه خرج منه، وقرأت في مصحف ابن مسعود قال: يا موسي قد فضلتك برسالاتي وبكلامي على الناس، وهذا لا يجوز فيه إلا التكلم بالذات مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَي تَكْلِيمًا ﴾[2]. قال أهل اللغة: المصدر إذا أدخل في الفعل فهو للمواجهة والوصف، لا للأمر بالفعل، ولا على المجاز.

٣- ثم تسليم أخبار الصفات فيما ثبتت به الروايات وصح النقل، ولا يتأول ذلك ولا يتشبه بالقياس والعقل، ولكن يعتقد إثبات الأسماء والصفات بمعانيها وحقائقها لله تعالى، وينفي التشبيه والتكييف عنها إذا لا كفء للموصوف فيشبه به، ولا مثل له فيجنس منه، ولا نشبه ونصف، ولا نمثل ونعرف، ولا نكيف .

وفي رد أخبار الصفات بطلان شرائع الإسلام، من قبل أن الناقلين إلينا ذلك هم ناقلوا شرائع الدين وأحكام الإيمان، فإن كانوا عدولا فيما نقلوه من الشريعة فالعدل مقبول القول في كل ما نقله، وإن كانوا كذبوا فيما نقلوا من أخبار الصفات، فالكذاب مردود القول في كل ما جاء به، والكذب على الله كفر، فكيف تقبل شهادة كافر؟ وإذا جاز أن يجترئوا على الله عز وجل بأن يزيدوا في صفاته ما لم يسمعوه عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فهم إلى أن يكذبوا على الرسول فيما هو من الأحكام أولي، ففي ذلك إبطال الشريعة وتكفير النقلة من الصحابة والتابعين بإحسان، فلذلك كفَّر أصحاب الحديث من نفي أخبار الصفات

---

(١) سورة التوبة آية ١٠ .

(٢) سورة النساء آية ١٦٤ .

٤ ـويعتقد تفضيل أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأهل بيته رضي الله عنهم ورضوا عنه كافة، ويسكت عما شجر بينهم، وينشر محاسنهم وفضائلهم لتأتلف القلوب بذلك. ونسلم لكل واحد ما فعله، لأنهم أوفر عقولا منا، فقد عمل كل واحد بعلمه ومنتهي عقله فيما أدي إليه اجتهاده، وإن كان بعضهم أعلم من بعض، كما أن بعضهم أفضل من بعض، إلا أن علومنا وعقولنا تضعف وتنقص عن علم أدناهم علما، كما فضلوا علينا بالسوابق سبقا.

ونقدم من قدم الله ورسوله، وأجمع المسلمون الذين تولي الله إجماعهم على الهداية، وضمن لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ تفضيلا لهم وتشريفا لهم أن لا يجتمعوا على ضلالة. وقد قال على لما قيل له: ألا تستخلف علينا؟ فقال: لا أستخلف عليكم بل أكِلُكم إلى الله عز وجل، فإن يرد بكم خيرا جمعكم بعد نبيكم على خيركم، قال إبراهيم النخعي: فلما سلم الحسن بن على رضي الله عنهما الأمر إلى معاوية سميت سنة الجماعة، وقال له رجل: يا مذل المؤمنين، فقال: بل أنا معز المؤمنين، سمعت أبي عليه السلام يقول: لا تكرهوا إمارة معاوية فإنه سيلي هذا الأمر بعدي، وإن فقدتموه رأيتم السيوف تبدر عن كواهلها كأنها الحنظل.

فليعتقد بقلبه من رضي الصحابة وأجمعوا بإمامته على خلافته، واتفق الأئمة من أهل الشوري على تقدمته على حديث ابن عمر في التفضيل قال: كنا نقول على عهد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، فيبلغ ذلك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فلا ينكر، وعلي حديث سفينة مولي رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: « الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكا » فهؤلاء الأربعة خلفاء النبوة، وهم أئمة الأئمة من العشرة، وعيون أهل الهجرة والنصرة، وخيار الخيار من الأصحاب. كما روينا عن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾: « إن الله عز وجل اختار أصحابي على العالمين، واختار من أصحابي أربعة فجعلهم خير أصحابي، وفي كل أصحابي خير، واختار أمتي على الأمم، واختار من أمتي أربعة قرون » فكل قرن سبعون سنة، فإنا نحن قوم متبعون نقفو الأثر غير مبتعدين بالرأي والمعقول نرد به الخير، إذ لا مدخل للقياس والرأي في التفضيل، كما لا مدخل لهما في الصفات وأصول العبادات، وإنما يؤخذ التفضيل توقيفا وتسليما، ومن طريق الإجماع

والاتباع خشية الشذوذ والابتداع، لقول الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾: « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، ومن شذ ففي النار » وقال تعالى في تصديق ذلك: ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّي وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾[١].

وإنما جاء الترتيب في التفضيل والخلافة مخالفا للقياس والمعقول، توكيدا للنبوة وتأييدا للرسالة، لئلا تلتبس النبوة بالملك، ولا ينحو النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ في الخلافة نحو الأكاسرة والأقاصرة في المملكة. كما كانت النبوة مخالفة للملك، جاءت الخلافة على غير سيرة الملوك من استخلاف أبنائهم وأهل بيتهم، ولو كان للمعقول والقياس مدخل في التفضيل، لكان أفضل الناس بعد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الحسن ابنه لأن فيه البنوة، والعباس عمه إذ فيه الأبوة، وقد أجمعوا على خلاف ذلك، وأيضا فلما سبق في علم الله تعالى أن يجعل هؤلاء الأربعة خلفاء النبوة بما قدر الله من أعمارهم، فلم يكن يتم ذلك إلا بترتيبهم على ما رتبوا في الخلافة، فكان آخرهم استخلافا هو آخرهم موتا، فدبَّر خلافتهم على ما علم من آجالهم، ووفي لهم بما وعدهم من استخلافهم في الأرض، كما استخلف الذين من قبلهم من خلائف أنبيائهم السوالف، ومكَّن لهم دينهم الذي ارتضي لهم وبدلهم أمنا من بعد خوفهم، كما قال الصادق فيما عهد: ﴿ وَمَنْ أَوْفَي بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾[٢] فذلك تأويل قوله عز وجل: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾[٣] الآية .

٥_أن يعتقد أن الإمامة في قريش خاصة دون سائر العرب كافة إلى يوم القيامة، وأن لا يخرج على الأئمة بالسيف، ويصبر على جورهم إن كان منهم، ويشكر على المعروف والعدل، ويطيع إذا أمر بالتقوي والبر، حتى تأتيه يد خاطئة أو منية قاضية، كذلك السنة.

---

(١) سورة النساء آية ١١٥ .

(٢) سورة التوبة آية ١١١ .

(٣) سورة النور آية ٥٥ .

قال أبو محمد سهل رحمه الله تعالى: هذه الأمة ثلاث وسبعون فرقة، اثنتان وسبعون هالكة، كلهم يبغضون السلطان، والناجية هذه الواحدة التي مع السلطان، وسئل: أي الناس خير؟ فقال: السلطان. قيل: كنا نري أن شر الناس السلطان. فقال: مهلا، إن لله تعالى في كل يوم نظرتين نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ودمائهم، ونظرة إلى سلامة أفكارهم، فيطالع في صحيفته فيغفر له ذنوبه. وقال أبو محمد: الخليفة إذا كان غير صالح فهو من الأبدال، وإذا كان صالحا فهو القطب الذي تدور عليه الدنيا، قوله: من الأبدال، يعني أبدال الملك، كما حدثنا عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: أبدال الدنيا سبعة على مقاديرهم يكون الناس في كل زمان من العباد والعلماء والتجار والخليفة والوزير وأمير الجيش وصاحب الشرطة والقاضي وشهوده.

روينا في الخبر: عدل ساعة من إمام عادل، خير من عبادة ستين سنة. ويقال: إن الإمام العادل يوضع في ميزانه جميع أعمال رعيته. وكان عمرو بن العاص يقول: إمام غشوم خير من فتنة تدوم.

وقال النبي ﴿ ﷺ وآله﴾: « يكون عليكم أمراء يفسدون، وما يصلح الله تعالى بهم أكثر، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر، وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر » وفي الخبر الآخر: « يليكم أمراء يقولون ما لا يعرفون، ويفعلون ما ينكرون، وفي لفظ: يفعلون ما لم يؤمروا، قلنا: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا، ما صلوا » وفي الحديث الآخر: « ما أقاموا الصلاة » وكان سهل رحمه الله تعالى يقول: من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق، ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع، ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل، وكان يقول: الخشيبات السود المعلقة على أبوابهم أنفع للمسلمين من سبعين قاضيا يقضون في المسجد، وقد كان أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يقول: إذا كان السلطان صالحا فهو خير من صالحي الأمة، وإذا كان فاسقا فصالحوا الأمة خير منه، وهذا قول عدل.

٦- ولا يكفر أحداً من أهل القبلة – وإن عظم ذنبه – ولا يترله جنة ولا نارا بل يرجو له ويخاف عليه، وإن من مات مصرا على الكبائر عن غير توبة منها، في مشيئة الله تعالى إن أثبت وعيده عليه كان عدلا، وإن عفا وسمح له بحقه كان ذلك منه فضلا .

٧- ولا نحكم ولا نقطع على الله تعالى بشيء، ولا نوجب لنا عليه شيئا، إنما نحن بين عدله وفضله، وبمشيئته واختياره، إن حقق علينا وعيده فنحن أهل ذلك، وإن غفر لنا فهو أهل التقوي وأهل المغفرة، كيف وقد روينا عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه قال: « من وعده الله تعالى على عمل ثوابا فهو منجزه له، ومن أوعده على عمل عقابا فهو فيه بالخيار » والحديث الآخر أن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ سئل عن قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾[1] ، فقال: « جزاؤه جهنم إن جازاه » ففي كل قضاء الله تعالى حكمة بالغة وعدل وحكم صادق وحق.

٨- وأن يصدق بجميع أقدار الله تعالى، وأن خيرها وشرها من الله تعالى، وأنها سابقة في علمه جارية في خلقه بحكمه، وأنهم لا حول لهم عن معصيته إلا بعصمته، ولا قوة لهم على طاعته إلا برحمته، وإنهم لا يطيقون ما حملهم إلا به، ولا يستطيعون لأنفسهم نفعا ولا ضرا إلا بمشيئته.

ونؤمن بقدر الله وآياته في ملكه وغيب ملكوته مما ذكر في الأخبار من كراماته لأوليائه، وإجاباته لأحبائه، وإظهار القدرة للصديقين والصالحين، مزيدا لإيمانهم، وتثبيتا ليقينهم، وتكرمة وتشريفا لهم، وأنه ليس في ذلك إبطال لنبوة الأنبياء، ولا إدحاض حججهم، من قبل أن هؤلاء غير مثبتين ولا مخالفين للأنبياء، ولا ادعوا ما ظهر بحولهم وقوقم، ولا أظهروا دعوة إلى أنفسهم، ولا تظاهروا به، ولا اجتلابا للدنيا، ولا طلبا للرياسة على أهلها، وإنما هو شيء كشفه الله تعالى لهم من سر ملكوته كيف شاء، وأظهرهم عليه من غيب قدرته أين شاء كما شاء، تخصيصا لهم وتعريفا. وهم للأنبياء متبعون، وعلي آثارهم مقتفون،

---

(١) سورة النساء آية ٩٣ .

ولسنتهم مقتدون، فأتاهم الله تعالى ذلك ببركة الأنبياء، وبحسن اتباعهم لهم، ولأنهم إخوانهم أبدالا لا أشكالا لهم، وعنهم أمثالا قد تواترت الأخبار عن الصحابة والتابعين الأخيار بما ذكرناه، فغنينا بالتواتر عن التناظر.

ثانياً: الخصال التي هي في الآخرة:

١- أن يعتقد العبد مسألة منكر ونكير، يقعدان العبد في قبره سويا ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد وعن الرسالة، وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن، وهما فتانا القبر. كذلك روينا عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو معنى قول الله عز وجل: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾، قيل: عند مسألة منكر ونكير: ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾[1].

٢- وعذاب القبر حق وحكمة وعدل على الجسم والروح والنفس، يشتركون في ذلك حسب اشتراكهم في المعصية، وإن كان نعيما كان ذلك على الجسم والروح والنفس، يشتركون في النعيم كما اشتركوا في الطاعة، وهذا من أحكام الآخرة يكون بمجاري القدرة ليس على ترتيب المعقول، ولا عرف العقول، يوصل الله العذاب والنعيم إلى الأرواح والأجسام وهي متفرقة، فيتصل ذلك بهما كأنهما متفقان، وليس في القدرة مسافة ولا ترتيب ولا بعد ولا توقيت.

٣- ويؤمن بالميزان ذي الكفتين واللسان أنه حق وعدل وحكمة وفضل، كما جاء وصفه في العظم من أن طبقات السموات والأرض توزن فيه والأعمال بقدرة الله تعالى والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل بحقيقة العدل، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾[2] فتكون الحسنات في صورة حسنة تطرح في كفة النور فيثقل بها الميزان برحمة الله تعالى، وتكون السيئات في صورة سيئة تطرح في كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله تعالى.

---

(١) سورة إبراهيم آية ٢٧ .

(٢) سورة طه آية ١١١ .

٤- ويعتقد أن الصراط حق على ما جاء وصفه في الآثار كدقة الشعرة وحد السيف، وهو طريق الفريقين إلى الجنة أو النار، يثبت عليه أقدام المؤمنين بقدرة الله عز وجل فيحملهم إلى الجنة بفضل الله تعالى، وتزل عنه أقدام المنافقين فتهوي بهم في النار بحكم الله عز وجل، وهو على متن جهنم بإذن الله تعالى، من قطعه نجا منها برحمة الله، ومن زل عنه وقع فيها بحكمة الله تعالى.

٥- ويؤمن بوقوع الحساب وتفاوت الخلق فيه، فمنهم من يحاسب حساباً يسيرا، ومنهم من يدخل النار بغير حساب، وهم الكافرون، وكان إمامنا أبو محمد سهل رحمه الله تعالى يقول: يسأل الأنبياء عن تبليغ الرسالة، ويسأل الكفار عن تكذيب المرسلين، ويسأل المبتدعة عن السنة، ويسأل المسلمون عن الأعمال، فقولنا لقوله تبع .

٦- ويؤمن بالنظر إلى الله جل جلاله عيانا بالأبصار كفاحا مواجهة تكشف الحجب والأستار، بقدرة الله ومشيئته ونوره ورحمته كيف شاء، وهو معنى قول الله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾[1] ، فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى الله تبارك وتعالي، وكذلك فسره رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

٧- ويعتقد إخراج الموحدين من النار بعد الانتقام، حتى لا يبقي في جهنم موحد بفضل الله . ٨- ويعتقد بشفاعة الشافعين من النبيين والصديقين، وأن لكل مؤمن شفاعة بإذن الله، فيشفع النبيون والصديقون والعلماء والشهداء وسائر المؤمنين كل واحد وسع جاهه وقدر مترلته، أجمعت الرواة بذلك عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في إثبات الشفاعة، وفي إخراج الموحدين من النار، وهم الجهنميون من أهل الطبقة العليا من النار، وهو معنى قول الله تعالى: ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾[2]. قال أهل التفسير: ذلك عند إخراج الموحدين من النار، ويبقي الباقي لرحمة أرحم الراحمين فيخرج من النار بمشيئته وسعة رحمته وفضل فضله، من لم يشفع لهم الشافعون، ولم يقدم في الشفاعة لهم المرسلون، هكذا روينا معناه عن رسول الله﴿ﷺوآله﴾ .

---

(1) سورة يونس آية ٢٦ .

(2) سورة الحجر آية ٢ .

فهذه عقود السنة الهادية، وطريقة الأمة الراضية، وقد أجمع السلف من المؤمنين علـــى مـــا ذكرناه من قبل أنه لم ينقل عن أحد منهم خلافه، ولا روي عن رسول الله ﴿ﷺ وآلــه﴾ ضده، بل قد روي في كل ما ذكرناه أخبار توجب إيجابه، ومعان تشهد لإثباته، وتـــولى الله تعالى إجماعهم على سنة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، كما تولى إظهار دينه على الدين كله .

لا تجتمع أمتي على ضلالة:

وروينا عن النبي ﴿ﷺ وآله﴾: « إن الله عز وجل ضمن لي – وفي لفظ آخر: أعطانـــي – أن لا تجتمع أمتي على ضلالة، فإذا رأيتم خلافا فكونوا مع السواد الأعظـــم » والســـواد الأعظم يعبر به عن الكثرة، فالمختلفون متفقون على أن السواد الأعظم ما عليه العامة مـــن المسلمين والكافة من العموم، وأن المبتدعة والمخالفة لما ذكرناه إنما هـــم فـــرق وشـــراذم قليلون، وشيع وأحزاب متفرقون، لأن كل مبتدعة منهم فرقة، وكل شرذمة منهم مختلفـــة، وليس السواد الأعظم والجم الغفير الدهماء إلا أهل السنة والجماعة وهم السواد والعامـــة، ولذلك كان عمر بن عبد العزيز وغيره من الصالحين يقولون: ديننا دين العجائز وصـــبيان المكاتب ودين الأعراب. أي: هو القوي السليم العام. وفسر ذلك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في الحديث الآخر فقال: « من كان على ما أنتم عليه اليوم ».

فأجمعت الأمة على أن ما أحدثت الفرق المختلفة لم تكن عليه الصحابة، ولا تكلموا فيه ولا نقل عنهم، وأنهم كانوا على ما ذكرناه آنفا، لأنه لم يرو عن أحد منهم خلافه، بل قد نقل عنهم وفاقه في القرن الأول والثاني، ثم حدث ما ذكرناه من الخلاف في بعـــض القـــرن الثالث وفي القرن الرابع، وقد كان عمرو بن دينار وأيوب وحماد بن زيد إذا ذكر أحـــدهم الإرجاء ومذهب جهم يقول: لعن الله دينا أنا أكبر منه، يعنـــي أنه سبق حـــدوث هـــذه المذاهب التي تدين بها المبتدعون، فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين على حسن توفيقه وجميل هدايته، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الجماعة خير من الفرقة:

فنعمة الله تعالى علينا بالسنة كنعمته علينا بالإسلام، إذ نعمته علينا برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كنعمته علينا بمعرفته لاقتران طاعته بطاعته ولحاجة الكتاب العزيز إلى تفسير سنته، وقد روينا في حديث عمر عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: « الشيطان مع الواحد وهو مع اثنين أبعد، ذئب أحدكم كذئب الشاة يتبع الشاذة والقاصية، فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، ومن شذ ففي النار » .

وروينا عن أبي غالب عن أبي إمامة: أنه نظر إلى رؤوس الحرورية جيء بها من البصرة، فنصبت على الخشب بدمشق، قال: شر قتلي تحت ظل السماء وخير قتلي من قتلوه، ثم قال: كلاب النار، ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾[1]. ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[2] ، ويشير بإصبعه إليهم ثم بكي، فقلت: يا أبا إمامة تقول فيهم ما تقول ثم تبكي؟ فقال: قاتل الله إبليس، ما صنع بهؤلاء الناس يا أبا غالب، إنهم كانوا على ديننا فأبكي مما هم لاقون، هؤلاء بأرضك كثير، فأعيذك بالله منهم – ثلاث مرات – فقلت: آمين، يا أبا إمامة أشيء سمعته من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، أو شيء تقوله من قبل رأيك؟ قال: إني إذاً لجرىء – ثلاث مرات – لقد سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث ولا أربع، يقول: « تفرقت النصاري على اثنتين وسبعين فرقة، تزيد أمتي عليها فرقة، كلها في النار إلا السواد الأعظم » فقال رجل كان معنا: يا أبا إمامة إن في السواد الأعظم بني فلان، قال: وإن فعلوا، فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم، والجماعة خير من التفرقة، والطاعة خير من المعصية.

---

(1) سورة آل عمران آية ٧ .

(2) سورة آل عمران آية ١٠٦ .

ثم نظر إلى الرؤوس فقال: أيغضبون لنا ويقتلوننا؟ هذه رؤوس الخوارج وهم الحرورية الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالنهروان، وهم أول قرن نبع من المبتدعة، وأول بدعة ابتدعت في الإسلام، وكانوا قراء، المصاحف في أعناقهم والسجادات كركب المعزي في جباههم، فأنكروا عليه تحكيم الحكمين، وسألوه أن ينقض حكمه فيرجع عنه، وقالوا: لا حكم إلالله، وأنكروا أمر السلطان، ورأوا الخروج على الإمام، وكفَّروا عثمان، وصوبوا قتل غوغاء المصريين له، وطالبوا عليا عليه السلام أن يوافقهم على رأيهم، ويتابعهم على أهوائهم، على أن يقاتلوا معه المسلمين إن رجع عن تحكيم الحكمين، وكفروا أهل الكبائر بالمعاصي .

فرأي علي ما أراه الله تعالى، وبما عهد إليه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من قتل المارقين، فقتلهم فهؤلاء في النار، وقاتلهم علي وأصحابه خير أهل الأرض في الجنة، وكان رئيسهم في الضلال وقاتلهم في القتال عبد الله بن الكوا الأعور، قد كان علي يبغضه ويسبه قبل أن يظهر منه ما ظهر، فخرج عليه عبد الله بن الكوا في ستة آلاف، فأرسل علي عليه السلام عبد الله بن عباس إليهم يناظرهم ويحاجهم، فسبوه وبطشوا به، وجرأهم عليه ابن الكوا هذا فقام خطيبا فيهم فقال: أتعرفوني بهذا، أنا أعرفكموه، هذا من القوم الذين قال الله فيهم: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[1]. ثم تراجع بعضهم إلى ابن عباس فسأله فكشف له عن الحق، واستتاب منهم ألفين، وقاتل علي كرم الله وجهه أربعة آلاف مرقت من الدين، واتبعت غير سبيل المؤمنين.

ثم افترقت الفرقة الثانية بالمدائن فرأوا دين الإرجاء، وأن الإيمان قول وعمل، وأنه لا يزيد ولا ينقص، وكتب بذلك إلى أمير الشام، فهمَّ بقتالهم، ثم شغل عنهم بقتال الروم.

ثم افترقت الفرقة الثالثة بالبصرة، وهم القدرية إمامهم معبد الجهني وتابعه عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء الغزال وأصحابهم.

---

(1) سورة الزخرف آية ٥٨ .

ثم خرجت الفرقة الرابعة من الكوفة وهي الرافضة، سموا بذلك لما رفضوا على بن الحسين حين خرج يقاتل هشاما فقالوا له: أتبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما؟ قال: هما جداي إماما عدل لا أتبرأ منهما، فرفضوه، ثم افترقت كل فرقة ثماني عشرة فرقة، فتمت اثنتان وسبعون فرقة وكلها نبع بأرض العراق، ومنه ومن نجد طلع قرن الشيطان وظهرت الفتن، نعوذ بالله منها ما ظهر منها وما بطن .

وقد روينا عن ابن عباس عن النبي ﴿ﷺ وآله﴾: « إن لله عز وجل ثلاثة أملاك، ملك على ظهر بيت الله تعالى، وملك على مسجد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وملك على ظهر بيت المقدس، ينادون في كل يوم، يقول الملك الذي على ظهر بيت الله تعالى: من ضيع فرائض الله خرج من أمان الله، ويقول الملك الذي على ظهر مسجد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: من خالف سنة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لم تنله شفاعة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، ويقول الملك الذي على ظهر بيت المقدس: من أكل حراما لم يقبل منه صرف ولا عدل » .

طريقة الحكماء في معرفة الله تعالى:

قالوا: الطريق التي نبه الكتاب العزيز عليها، ودعا الكل من بابها، إذا تأمل المفكر في آيات كتاب الله تعالى، تبين له أن طريق معرفة الله محصورة في جنسين:

١- دليل العناية: طريق التحقيق بعناية الله تعالى بالإنسان، وخلق جميع الموجودات من أجله، وهي الحجة الأولي وتسمي دليل العناية.

٢- دليل الإحداث والإبداع: إبداع وإحداث الأشياء الموجودة كلها، وهذه تسمي دليل الإحداث والإبداع.

أما طريق العناية فتنبني على أصلين:

(أ) أن جميع ما نراه في السموات وفي الأرض موافق لوجود الإنسان.

(ب) أن هذه الموافقة هي ولا شك من قبل فاعل مريد لذلك، مدبر له مختار، إذ ليس بممكن أن تحصل هذه الموافقة بالاتفاق، فأما كونها موافقة لوجود الإنسان فبديهي، لموافقة الليل والنهار والشمس والقمر والمكان، وموافقة أكثر الحيوان والنبات والجماد والأمطار والأنهار والبحار والأرض والماء والنار والهواء، وتظهر العناية جلية في أعضاء البدن ومن عرف منافع الموجودات المعرفة التامة وعرف نفسه عرف ربه.

وأما دلالة الإحداث والإبداع:

فيدخل فيها وجود الحيوان والنبات والسموات، وتنبني هذه الطريقة على أصلين موجودين بالقوة في جميع فطر الناس:

(أ) أن هذه الموجودات مبدعة، وهذا معروف بنفسه من الحيوان والنبات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾[1] ، فإنا نري أجساما جمادية ثم تحدث فيها الحياة، فنعلم قطعا أن هاهنا موجدا للحياة ومنعما بها وهو الله تبارك وتعالي، وأما السموات فنعلم من قبل حركاتها التي لا تفتر أنها مأمورة بالعناية بما هاهنا ومسخرة لنا، والمسخر المأمور مبدَع ومحدَث من قبل غيره ضرورة.

(ب) فهو أن كل مبدَع – بفتح الدال – له مبدِع – بكسر الدال – فيصح من هذين الأصلين أن للوجود فاعلا مبدعاً له، وفي هذا الجنس دلائل كثيرة في عدد المبدعات، ولذلك كان واجبا على من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء، ليقف على الإبداع الحقيقي في جميع الموجودات، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الإبداع، وإلي هذه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾[2] ، وكذلك أيضا من تتبع معني الحكمة في وجود موجود –

---

(1) سورة الحج آية ٧٣ .

(2) سورة الأعراف آية ١٨٥ .

أعني معرفة السر الذي من أجله خلق، والغاية المقصودة به – كان وقوفه على دليل العناية أتم.

فهذان الدليلان هما دليلا الشرع، وأما أن الآيات المبنية على الأدلة المفضية إلى وجود الصانع سبحانه في الكتاب العزيز، فهي منحصرة في هذين الجنسين من الأدلة، وذلك بيّن لمن تأمل الآيات الواردة في الكتاب العزيز في هذا المعني، وذلك أن الآيات التي في الكتاب العزيز في هذا المعني، إذا تصفحت وجدت على ثلاثة أنواع:

١_آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية.

٢_آيات تتضمن التنبيه على دلالة الإبداع.

٣_آيات تجمع الأمرين من الدلالتين جميعاً.

١– فأما الآيات التي تتضمن دلالة العناية فقط فمثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾، إلى قوله: ﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾[١] ، ومثل قوله: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾[٢]. ومثل قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾[٣] الآية . ومثل هذا كثير في القرآن.

٢– وأما الآيات التي تتضمن دلالة الإبداع فقط، مثل قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾[٤]. ومثل قوله تعالى: ﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[٥] ، الآية. ومثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾[٦]. ومن هذا قوله تعالى حكاية عن قول

---

(١) سورة النبأ آية ١٦ .

(٢) سورة الفرقان آية ٦١ .

(٣) سورة عبس آية ٢٤ .

(٤) سورة الطارق آية ٥، ٦ .

(٥) سورة الغاشية آية ١٧ .

(٦) سورة الحج آية ٧٣ .

إبراهيم: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾[1]. إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى. ٣- وأما الآيات التي تجمع الدلالتين فهي كثيرة أيضاً، بل هي الأكثر، مثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[2] فإن قوله: ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ تنبيه على دلالة الإبداع، وقوله: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا ﴾، تنبيه على دلالة العناية، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[4] ، وأكثر الآيات الواردة في هذا المعني، يوجد فيها النوعان من الدلالة. الدلالة.

فهذه الطريق هي الصراط المستقيم، التي دعا الله الناس منها إلى معرفة وجوده، ونبههم على ذلك بما جعل في فطرهم من إدراك هذا المعني وإلي هذا المعني، وإلي هذه الفطرة الأولي المغروزة في طباع البشر الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ قَالُوا بَلَي شَهِدْنَا ﴾[5] ، ولهذا فقد يجب على من كان قصده طاعة الله في الإيمان به، وامتثال ما جاءت به رسله، أن يسلك هذه الطريقة حتى يكون من العلماء الذين يشهدون لله تعالى بالربوبية، مع شهادته لنفسه وشهادة ملائكته له، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لآ إِلَهَ إِلاَ هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[6].

---

(١) سورة الأنعام آية ٧٩ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٢ .

(٣) سورة يس آية ٣٣ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٩١ .

(٥) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

(٦) سورة آل عمران آية ١٨ .

ومن الدلالات الموجودات من هاتين الجهتين عليه، هو التسبيح المشار إليه في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[1] ، فقد بان من هذه الأدلة على وجود الصانع، أنها منحصرة في هذين الجنسين دلالة العناية ودلالة الإبداع والإحداث، وتبين أن هاتين الطريقتين هما طريقتا الخواص، وأعني بالخواص العلماء، وطريقة العامة، وإنما الاختلاف بين المعرفتين في التفصيل، أعني أن العامة يقتصرون من معرفة العناية والإبداع على ما هو مدرك بالمعرفة الأولي المبنية على علم الحس، وأما العلماء فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس، ما يدرك بالبرهان، أعني من العناية والإبداع، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الذي أدركه العلماء من معرفة أعضاء الإنسان والحيوان هو قريب من كذا وكذا ألف منفعة، وإذا كان هذا هكذا فهذه الطريقة هي الطريقة الشرعية والطبيعية، وهي التي جاءت بها الرسل، ونزلت بها الكتب .

والعلماء لا يفضلون العامة في هذين الاستدلالين من قبل الكثرة فقط، بل ومن قبل التعمق في معرفة الشيء الواحد نفسه، فإنه مثال العامة في النظر إلى الموجودات، مثالهم في النظر إلى المصنوعات التي ليس عندهم علم بصنعتها، فإنهم إنما يعرفون أمرها أنها مصنوعات فقط، وأن لها صانعا واجدا، ومثال العلماء في ذلك مثال من نظر إلى المصنوعات التي عنده علم ببعض صنعتها وبوجه الحكمة فيها، ولا شك أن من حاله من العلم بالمصنوعات هذه الحال، هو أعلم بالصانع من جهة ما هو صانع، من الذي لا يعرف من تلك المصنوعات، إلا أنها مصنوعة فقط.

وأما مثال الدهرية في هذا – وهم الذين جحدوا الصانع سبحانه – فمثال من استحسن مصنوعات فلم يعترف أنها مصنوعات، بل ينسب ما رأي فيها من الصنعة إلىالاتفاق، والأمر الذي يحدث من ذاته.

---

(1) سورة الإسراء آية ٤٤ .

إذا تقرر ذلك، فما طريقهم في وحدانيته سبحانه؟ قالوا: إن طريق الشرع في ذلك الطريق التي نص عليها الله تعالى في كتابه العزيز، وذلك في ثلاث آيات إحداها قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾(1). والثانية قوله تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(2). والثالثة قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَبْتَغَوْا إلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾(3).

فأما الآية الأولي فدلالتها مغروزة في الفطر بالطبع، وذلك أنه من المعلوم بنفسه أنه إذا كان ملكان كل واحد منهما فعل صاحبه إنه ليس يمكن أن يكون عن تدبيرهما مدينة واحدة، لأنه ليس يكون عن فاعلين من نوع واحد، فعل واحد، فيجب ضرورة إن فعلا معاً أن تفسد المدينة الواحدة، إلا أن يكون أحدهما يفعل ويبقي الآخر عاطلا وذلك منتف في صفة الألوهية، فإنه متي اجتمع فعلان من نوع واحد على محل واحد، فسد المحل ضرورة، هذا معني قوله سبحانه: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ .

وأما قوله تعالى: ﴿ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾، فهذا رد منه على من يضع آلهة كثيرة مختلفة الأفعال، وذلك أنه يلزم في الآلهة المختلفة الأفعال التي لا يكون بعضها مطيعا لبعض، أن لا يكون عنها موجود واحد، ولما كان العالم واحد وجب أن لا يكون موجودا عن آلهة متفقة الأفعال.

وأما قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَبْتَغَوْا إلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾، فهي كالآية الأولي، أعني أنه برهان على امتناع إلهين فعلهما واحد، ومعني هذه الآية أنه لو كان فيها آلهة قادرة على إيجاد العالم وخلقه غير الإله الموجد، حتى تكون نسبته من

---

(1) سورة الأنبياء آية ٢٢ .

(2) سورة المؤمنون آية ٩١ .

(3) سورة الإسراء آية ٤٢ .

هذا العالم نسبة الخالق له، لوجب أن يكون على العرش معه، فكــان يوجــد موجــودان متماثلان ينسبان إلى محل واحد نسبة واحدة، فإن المثلين لا ينسبان إلى محل واحــد نســبة واحدة، لأنه إذا اتحدت النسبة اتحد المنسوب، أعنــي لا يجتمعان في النسبة إلى محل واحد، كما لا يحلان في محل إذا كانا مما شأنهما أن يقوم بالمحل، وإن كان الأمر في نسبة الإلــه إلى العرش ضد هذه النسبة، أعنــي أن العرش يقوم به، لا أنه يقوم بالعرش، ولذلك قــال الله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾[1] ، فهذا هو الدليل الذي بالطبع أو الشرع في معرفة الوحدانية .

وأما الفرق بين العلماء والعامة في هذا الدليل، فهو أن العلماء يعلمون من إيجــاد العــالم، وكون أجزائه بعضها من أجل بعض منزلة الجسد الواحد، أكثر مما يعلمه العامة من ذلــك، ولهذا المعنــي الإشارة بقوله تعالى في آخر الآية: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَي عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِــنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[2].

الصفات الواجبة لله سبحانه وتعالي :

طريقهم في إثبات الصفات لله تعالى قالوا: هي التي صرح الكتاب العزيز بها، وعن الصفات الثابتة للمبدع الحكيم موجد جميع العالم، وهي الصفات السبع التي تشاهد في الإنسان وبها كماله، وهي العلم والحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام .

١– فأما العلم فقد نبه الكتاب العزيز على وجه الدلالة عليه في قوله تعالى: ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[3] ، ووجه الدلالة أن المصنوع يدل من جهة الترتيب الذي في أجزائه، أعنــي كون صنع بعضها من أجل بعض، ومن جهة موافقــة جميعهــا للمنفعــة

([1]) سورة البقرة آية ٢٥٥ .

([2]) سورة الإسراء آية ٤٣ – ٤٤ .

([3]) سورة الملك آية ١٤ .

المقصودة بذلك المصنوع، أنه لم يحدث عن صانع هو طبيعة، وإنما حدث عن صانع رتب ما قبل الغاية قبل الغاية، فوجب أن يكون عالما به، مثال ذلك أن الإنسان إذا نظر إلى البيت، فأدرك أن الأساس إنما صنع من أجل الحائط، وأن الحائط من أجل السقف، تبين أن البيت إنما وجد عن عالم بصناعة البناء وهذه الصفة هي صفة قديمة، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاَ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إلاَ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾[1]. فينبغي أن يوضع في الشرع أنه عالم بالشيء قبل أن يكون، على أنه سيكون، وعالم بالشيء إذا كان، على أنه قد كان، وعالم بما قد تلف أنه قد تلف في وقت تلفه، وهذا هو الذي تقتضيه أصول الشرع، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[2] .

٢- وأما صفة الحياة فظاهر وجودها من صفة العلم، وذلك أنه يظهر في الشاهد أن من شرط العلم الحياة، والشرط عند المتكلمين يجب أن ينتقل فيه الحكم من الشاهد إلى الغائب، وما قالوه في ذلك صواب

٣- وأما صفة الإرادة فظاهر اتصافه بها، إذ كان شرط صدور الشيء عن الفاعل العالم أن يكون مريدا له.

٤- وكذلك من شرطه أن يكون قادرا، قال جل ثناؤه: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[3] .

٥- فإن قيل: فصفة الكلام له من أين تثبت له؟ قلنا: ثبتت له من قيام صفة العلم به، وصفة القدرة على الإبداع، فإن الكلام ليس شيئاً أكثر من أن يفعل المتكلم فعلا يدل به المخاطب على العلم الذي في نفسه، أو يصير المخاطب بحيث ينكشف له ذلك العلم الذي

---

(1) سورة الأنعام آية ٥٩ .

(2) سورة مريم آية ٦٤ .

(3) سورة النحل آية ٤٠ .

في نفسه، وذلك فعل من جملة أفعال الفاعل، وإذا كان المخلوق الذي ليس بفاعل حقيقي – أعنـــي الإنسان – يقدر على هذا الفعل من جهة ما هو عالم قادر، فإنه بالحري أن يكـــون ذلك واجبا في الفاعل الحقيقي، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾(١) ، فالوحي هو وقـــوع ذلـــك المعنـــي في نفس الموحي إليه بغير واسطة لفظ يخلقه، بل بانكشاف ذلك المعنـــي له بفعـــل يفعله في نفس المخاطب، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنـــي فَـــأَوْحَي إلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَي ﴾(٢) .

ومن وراء حجاب هو الكلام الذي يكون بواسطة ألفاظ تنكشف في نفس الذي اصـــطفاه بكلامه، وهذا هو كلام حقيقي، وهو الذي خص الله به موسي، ولذلك قـــال تعـــالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَي تَكْلِيمًا ﴾(٣) .

وأما قوله تعالى: ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾، فهذا هو القسم الثالث، وهو الذي يكـــون منـــه بواسطة الملك، فقد تبين لك أن القرآن الذي هو كلام الله قديم، وأن اللفظ منزل مـــن الله تعالى، وبهذا باين لفظ القرآن الألفاظ التي ينطق بها في غير القرآن، ومن لم يفهم هذا علـــى هذا الوجه، لم يفهم هذه الصورة ولا يفهم كيف يقال في القرآن إنه كلام الله تعالى، وأمـــا الحروف التي في المصحف فإنما هي من صنعنا بإذن الله تعالى، وإنما وجب لها التعظيم لأنهـــا دالة على كلام الله تعالى.

٦، ٧ – وأما صفتا السمع والبصر فإنما أثبتهما الشرع لله تبارك وتعالي من قبل أن السمع والبصر يختصان بمعان مدركة في الموجودات، ليس يدركها العقل، ولما كان الصـــانع مـــن شرطه أن يكون مدركاً لكل ما في المصنوع وجب أن يكون له هذان الإدراكان، فواجـــب

---

(١) سورة الشوري آية ٥١ .

(٢) سورة النجم آية ٩ – ١٠ .

(٣) سورة النساء آية ١٦٤ .

أن يكون عالما بمدركات البصر، وعالما بمدركات السمع، إذ هي مصنوعات له وهذه كلها منبهة على وجودها للخالق سبحانه في الشرع من جهة تنبيه على وجود العلم به، وبالجملة فما يدل عليه اسم الإله واسم المعبود يقتضي أن يكون سميعا بصيراً، لأنه من العبث أن يعبد الإنسان من لا يدرك أنه عابد له، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾[1] . وقال تعالى: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ ﴾[2] . فهذا القدر مما يوصف به الله سبحانه وتعالي ويسمي به، هو القدر الذي نص الشرع أن يعلمه العامة، لا غير ذلك .

ومن البدع التي حدثت في هذا الباب السؤال عن هذه الصفات: هل هي الذات أم زائدة على الذات؟ أي: هل هي صفة نفسية أو صفة معنوية؟ وتلك البدعة أوقعت في اختلاف عظيم بين المسلمين، وضياع نفائس الوقت في الجدل والمعارضات، فمن أراد السلامة والأمن والنجاة يوم القيامة، فليلزم سبيل السلف الصالح، ومنهج الجماعة، والتمسك بسنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، عاملا بها غير ملتفت إلى محدثات البدع ومختلفات الآراء وبواعث الحظ والهوي، والله أسأل أن يجعل لنا نورا في قلوبنا، وأن يمنحنا سبحانه الفقه عنه، وأن يسلمنا من البدع المضلة والضلال، إنه مجيب الدعاء، وصلي الله على سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم .

---

(1) سورة مريم آية ٤٢ .

(2) سورة الأنبياء آية ٦٦ .

الفصل الثانـي

الركيزة الثانية: العبادة

أركان الإسلام:

معلوم من الدين بالضرورة أن أركان الإسلام الخمسة لا يتحقق إسلام مسلم وإيمانه إلا بالقيام بها على حقيقتها، والعمل بها على وجهها الذي تصح به وتقبل، ولما كانت تلك الأركان هي كلمة الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وكانت تلك الأركان – وإن تعددت – فإنما هي تومئ إلى معنى واحد لا يصح إلا بها، ولا يتحقق إلا بها، فهي الإيمان وهي الإسلام، وإن كان يراد بالإيمان ما هو أخص من الإسلام، فإنما الإيمان هو عمل القلوب، سواء كان في العقيدة أو في النيات والإخلاص والصدق والخوف والرغبة والرهبة والخشية، فإن الأعمال البدنية التي يسميها بعضهم إسلاما لا تتحقق إلا بعمل القلوب، فالإسلام والإيمان وإن اختلف معناهما فهما شيء واحد، فمن تهاون بركن من الأركان مستحلا لذلك فهو كافر بالإجماع.

الركن الأول: الشهادتان

لما كانت كلمة الشهادتين هي أصل الدين، والباب الذي يدخل به الإنسان إلى التحقق بوصف المسلمين، وكانت هي حقيقة العقيدة وكنز الأسماء والأوصاف الإلهية، فقد بينا العقيدة وما كان عليه السلف الصالح من فهم كلمة الشهادتين وفضائلها في كتاب: (أصول الوصول) بتفصيل لا يحتاج إلى مزيد بالعبارة، ولكن يكون مزيده بالمواهب الربانية والمنن للمخلصين المستبصرين، الذين حصلوا الأصول الواجبة عليهم، وكان المزيد من الله تعالى الذي هو المواجهة والمنازلة ومشاهدة الآيات والإشراف على الملكوت، من الأمور التي لا يصح رسمها في كتاب حتى يمن الله بها على السالك المخلص، خصوصا من مشاهد التوحيد وأسرار التنزيه والتفريد، وأنوار الأحدية وغيوب الهوية، قال الله تعالى: ﴿ يَخْتَصُّ

بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[1]. فعلي من يريد الاطلاع على تفصيل ما انطوي في كلمة الشهادتين، أن يرجع إلى كتاب: (أصول الوصول) ومن أراد المزيد فليراجع تلك الإشارات في كتاب: (شراب الأرواح) والله سبحانه وتعالي أسأل أن يجعلنا من أهل الحسني وزيادة، وأن يمنحنا الإخلاص لذاته العلية، والصدق في معاملته بجاه حبيبه المصطفي ﴿ ﷺ وآله﴾.

طريقة السلف في تأدية أركان الإسلام

لما كانت تلك الأركان تتعلق بها علوم كثيرة، كعلم شروط وجوبها وصحتها، وعلم تأديتها، وعلم معرفة تمييز فرائضها وسننها، وعلم مواقيتها ومقاديرها وهيئاتها، وعلم مفسداتها، وما يجب على العامل إذا فسد عمله من قضاء أو جبر للعمل، وكانت كل تلك العلوم واجبة على كل مسلم أن يحصلها عند وجوب العمل عليه أو قبله، حتى يستعد للقيام بالعمل في وقته، وقد بينت أحكام تلك الأركان الأربعة بأسلوب يسهل على المبتدىء فهمه، ويحتاج المنتهي في العلوم إليه في كتاب: (أصول الوصول) لذلك لا أري لزوما لتكرارها في هذا المختصر، لأن هذا الكتاب مرتب على الكتب التي قبله.

ولكن لابد من ذكر طريقة السلف الصالح في تأدية تلك الأركان وذكر فضائلها، ومشاهد أهلها حال عملها، وآدابهم حال الملابسة بها، ليكون ذلك حثا لهمم مريدي طريق الله تعالى، وتذكرة لأهل الإخلاص المشاهدين، ودرساً مفيداً لإخواننا المسترشدين، وضوابط نافعة للمرشدين، متحريا في ذلك المشاهد الإلهية، التي يواجه الله تعالى بها من تحقق باليقين الحق، أو بعين اليقين في تلك المشاهد، قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[2] ، وقال تعالى: ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾[2].

---

(1) سورة آل عمران آية ٧٤ .

(2) سورة المجادلة آية ١١ .

وكان هذا الكتاب إنما وضعته للسالكين حقيقة السنة وعمل الأئمة من الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين لهم بإحسان، على أني أنبه المطلع على تلك الفضائل أن يجاهد نفسه بقدر الاستطاعة على أن يتحقق بها، ولا يري أن ذلك أمرا مستحيلا، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، وليشكر الله على ما وهب له من التوفيق للعمل، ويسأله المزيد ويديم المجاهدة، حتى يمنحه الله مواهب الصديقين والشهداء الذين شهدوا بما شهد الله سبحانه به، وشهدت به ملائكته ورسله عليهم الصلاة والسلام.

ولا يتصور أن تلك المواهب خاصة لا ينالها إلا قوم مخصوصون، فتقف همته عن طلبها، ويستصغر نفسه عن التشوف لها، فإن كل مؤمن بالله سبحانه وبما جاء به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، عامل بالسنة، مؤهل أن ينال فضل الله بفضله سبحانه، ولو نظر السالك إلى أن هذا الفضل العظيم منَّ الله به على كثير ممن ليسوا بعرب، وليسوا من قريش، وليسوا من بني هاشم، وتحقق أنه فضل بدايته التسليم والتوفيق، ووسطه الإخلاص والصدق بعناية الله تعالى، ونهايته الفضل العظيم من الله تعالى.

فانهض يا أخي – أذاقك الله حلاوة التوحيد، ونعمك بمشاهد أهل اليقين – وجاهد نفسك متشبهاً بأهل القرب، عاملا بأعمال الصديقين، لتشرق عليك أنوار المحبة، وتجمل بحلل العناية من الله تعالى: ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾(٣).و صلي الله على سيدنا محمد، شمس هذا الأفق المبين، وروح هياكل المقربين، ونور قلوب العارفين، وآله وصحبه وسلم.

الركن الثاني : الصلاة

تعريف الصلاة :

---

(١) سورة المدثر آية ٣١ .

(٢) سورة مريم آية ٧٦ .

(٣) سورة الحديد آية ٢١ .

الصلاة عماد الدين، والشكر بجميع الجوارح لرب العالمين، ومناجاة الله تعالى بكلامه العزيز، بها يتجمل العبد بأجمل حلله التي بها يجمله ربه ويحبه ويقبل عليه، وما يتعلق بها من الأحكام والشروط والوسائل التي لا تصح ولا تقبل إلا بها، وبيان هيئاتها وأوقاتها، تقدم ذكرها في كتاب: (أصول الوصول) مستوفاة كل حكم بمأخذه من السنة العملية والقولية والكتاب العزيز.

فضائل الصلاة وآدابها :

وأريد بعون الله وحسن توفيقه أن أبين هنا فضائلها وآدابها، وفضائل المصلين ومشاهد أهل اليقين فيها، فأقول والله وليي وحسبي ونعم الوكيل:

قال الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ وَلاَ تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَي حتى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾[3] ، قيل: سكاري من حب الدنيا، وقيل: من الاهتمام بها، وقال جل ثناؤه: ﴿ الَّذِينَ هُمْ على صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾[4] وقال النبي ﴿ ﷺ وآله﴾: « من صلي ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشيء من الدنيا، غفر له ما تقدم من ذنبه » وقال ﴿ ﷺ وآله﴾: « إنما الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتباؤس وتنادم، وترفع يديك وتقول: اللهم، فمن لم يفعل فهي خداج – أي ناقصة – » روينا عن الله سبحانه وتعالي في الكتب السالفة أنه قال: « ليس كل مصل أتقبل صلاته، إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتكبر عليَّ، وأطعم الفقير الجائع لوجهي » .

([1]) سورة طه آية ١٤ .
([2]) سورة الأعراف آية ٢٠٥ .
([3])
([4]) سورة النساء آية ٤٣ .

فمن الإقبال على الصلاة أن لا تعرف من على يمينك ولا من على شمالك، من حسن القيام بين يدي القائم على كل نفس بما كسبت، وكذلك فسروا قوله تعالى: ﴿ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[1] . وقال سعيد بن جبريل: ما عرفت من على يميني، ولا من على شمالي في الصلاة منذ أربعين سنة، منذ سمعت ابن عباس يقول: الخشوع في الصلاة أن لا يعرف المصلي من على يمينه وعن شماله. وروينا عن بشر بن الحرث قال: قال سفيان: من لم يخشع فسدت صلاته. وروينا عن معاذ بن جبل: من عرف من عن يمينه وشماله في الصلاة متعمدا فلا صلاة له، وقد أسنده إسماعيل بن أبي زياد عن بشر بن الحرث وغيره. وعن الثوري أيضا: من قرأ كلمة مكتوبة في حائط أو بساط في صلاته، فصلاته باطلة، وقال بشر: يعني بذلك لأنه عمل في الصلاة .

ومن الدوام في الصلاة السكون فيها، وعلي ذلك فسر قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ قيل: هو السكون والطمأنينة في الصلاة من قولك: ماء دائم، إذا سكن. وقال بعض الصحابة: يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئاقم في الصلاة من الطمأنينة والهدوء .

ومن وجود النعيم بها واللذة، إصغاء القلب للفهم وخشوعه للتواضع، وسكون الجوارح للهيبة، ثم الترتيل في القراءة والتدبر لمعاني الكلام، وحسن الافتقار إلى المتكلم في الإفهام والإيقاف على المراد، وصدق الرغبة في الطلب للاطلاع على المطلع من السر المكنون المستودع في الكتاب، وإن مر بآية رحمة سأل ورغب، أو آية عذاب فزع واستعاذ، أو مر بتسبيح أو تعظيم حمد وسبح وعظم، فإن قال بلسانه فحسن، وإن أسره في قلبه، ورفع به همه، ناب قصده عن المقال، وكان فقره غاية السؤال، وهذا أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [2]هكذا كان وصفهم في التلاوة .

([1]) سورة المعارج آية ٢٣ .

([2]) سورة البقرة آية ١٢١ .

وينبغي أن يكون قلبه بوصف على ركن من أركان الصلاة، وهمه معلق بكل معنـــي مـــن معانـــي المناجاة، فإذا قال: الله أكبر أي: مما سواه، ولا يقال: أكبر من صغير، إنما يقال أكبر من كبير، فيقال: هذا كبير وأنا أكبر، فإن كان همه الملك الكبير كان ذكر الله أكبر في قلبه، فليواطئ قلبه قول مولاه في قوله تعالى: ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[1] ، ويواطئ لسانه قلبه في مشاهدة الأكبر، فيكون يتلو وينظر، فإن الله تعالى قدم العين على اللسان في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾[2] فلا يقدم لسانه ويؤخر بصره، ويكون عقده محققا لمقاله بالوصف، حتى يكون عاملا بما يقول في الحال، فقد أخذ عليه ذلك لما أمر به حجـــة عليه وتنبيها له .

ولا يكون بقوله « الله أكبر » حاكيا ذلك عن قول غيره، ولا مخبرا به عن سواه، بل يكون هو المتحقق بالمعنـــي القائم بالشهادة، وهذا عند أهل المعرفة واجب، لأن الإيمـــان قـــول وعمل في كل شيء، فإذا قلت: الله أكبر، فإن العمل بالقول أن يكون الله أكبر في قلبك من كل شيء، وهو من رعاية العهد لتدخل تحت الثناء والمدح في قوله تعالى: ﴿ وَالَّـــذِينَ هُـــمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾[3] فالعهد ما أعطيت بلسانك، والرعاية الوفـــاء بالقلـــب، ليستحق الأجر العظيم كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْـــرًا عَظِيمًا ﴾[4] ومن كان في قلبه الملك الصغير الفانـــي أكبر من الملك الأكبر، فمـــا عمـــل بقوله: الله أكبر، وليس هذا حقيقة الإيمان، لأنه لم يأت بعمل وقول، وإنما جاء بالقول .

وهذا قائم بنفس من مشاهدته الآخرة وكانت قرة عينه الآخرة كما قـــال تعـــالى: ﴿ مَـــا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ﴾ يعنـــي الدنيا ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾[5] يعنـــي الآخرة، وقد قـــال ﷺ

---

(1) سورة العنكبوت آية ٤٥ .

(2) سورة البلد آية ٨ – ٩ .

(3) سورة المؤمنون آية ٨ .

(4) سورة الفتح آية ١٠ .

(5) سورة النحل آية ٩٦ .

وآله﴾: « جعلت قرة عينـــي في الصلاة »، لأنه كان عند ربه فجعل قرة عينه به، وقد قال سـبحانه وتعـالى:

﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[1] فالمذكور أكبر وأكبر.

وقد أخبر تعالى أن الصلاة أريد بها الذكر في قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ وروي معنـــي ذلك عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إنما فرضت الصلاة، وأمر بـــالحج والطـــواف، وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله، فإذا لم يكن في قلبك للمذكور الـــذي هـــو المقصـــود والمبتغي عظمة ولا هيبة، فما قيمة ذكرك ؟. وقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لأنس بن مالك: « وإذا صليتَ صلاةً فصل صلاة مودع لنفسه، مودع لهواه، مودع لعمره، سائر إلى مولاه » كما قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحًا ﴾[2] ، وكقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُـــوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ﴾[3] وقال النبي ﴿ ﷺ وآله﴾: « جعلت قرة عينـــي في الصلاة »، وكان يري الأكبر فتقر عينه به. وقال: « من لم تنهه صلاته عن الفحشـــاء والمنكـــر لم يزدد بها من الله إلا بعدا » كما قال: « من لم يترك قول الزور والخيانة فلـــيس لله تعـــالى حاجة في أن يترك طعامه وشرابه » فإنما المراد من الصلاة والصيام المخالفة من الآثام.

ومن إقامة الصلاة وإتمامها الوضوء لها قبل دخول وقتها، لئلا يشغله عن أول وقت غيرها، وينبغي أن يكون قلبه في همه، وهمه مع ربه، وربه في قلبه، فينظر إليه من كلامه، ويكلمـــه بخطابه، ويتملقه بمناجاته، ويعرفه من صفاته، فإن كان كلمة عن معنـــي أسم أو وصف أو خلق أو حكم أو إرادة أو فعل، لأن الكلم ينبيء عن الأوصاف، ويدل علـــى الموصـــوف، وكل كلمة من الخطاب تتوجه عشر جهات، للعارف من كل جهة مقام ومشاهدات، أول الجهات الإيمان بها، والتسليم لها، والتوبة إليها، والصبر عليها، والرضا بها، والخوف منـــها، والرجاء لها، والشكر عليها، والمحبة لها، والتوكل فيها، فهذه المقامات العشرة هي مقامـــات

---

(1) سورة العنكبوت آية ٤٥ .

(2) سورة الانشقاق آية ٦ .

(3) سورة البقرة آية ٢٢٣ .

اليقين، لأن الكلمة هي حق اليقين، وهذه المعانـــي كلها منطوية في كل كلمة يشهدها أهل التملق والمناجاة، ويعرفها أهل العلم والحياة، لأن كلمة المحبوب حياة القلوب، لا ينذر بـــه إلا حي، ولا يحيي به إلا مستجيب، قال الله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾(١) وقال سبحانه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾(٢).

ولا يشهد هذه العشر مشاهدات إلا من نقل في العشر مقامات المذكورة في سورة الأحزاب أولها مقام المسلمين وآخرها مقام الذاكرين، وبعد مقام الذكر هذه المشـــاهدات العشـــر، فعنده ألا يمل المناجاة لوجود المصافاة، ولا يثقل عليه القيام للذاذة والإفهام، ويسهل عليـــه الوقوف لدنو العطوف، ويتنعم بالعتاب بحلاوة الاقتراب، هنالك يندرج طـــول القيـــام في التلاوة فلا يجده، كاندراج القبلة في الصلاة فلا يشهدها، فيكون من ورائه القبلـــة وهـــو أمامها، كذلك القيام يحمله وهو مع حامله.

حدثت أن الموقن إذا توضأ للصلاة، تباعدت عنه الشياطين في أقطار الأرضين خوفا منـــه، لأنه يتأهب للدخول على الملك، فإذا كبَّر حجب عنه إبليس وضرب بينه وبينه سرادق لا ينظر إليه، وواجهه الجبار بوجهه، فإذا قال: الله أكبر، اطلع الملك في قلبه، فإذا ليس في قلبه أكبر من الله تعالى، فيقول: صدقت، الله تعالى في قلبك كما تقول، قال: فيتشعشع مـــن قلبه نور يلحق بملكوت العرش، فيكشف له بذلك النور ملكـــوت الســـموات والأرض، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات.

قال: وإن الغافل الجاهل إذا قام للوضوء احتوشته الشياطين كما يحتوش الذباب على نقطة العسل، وإذا كبَّر اطلع الملك في قلبه، فإذا كل شيء في قلبه أكبر من الله تعـــالى عنـــده، فيقول له: كذبت ليس الله في قلبك كما تقول، قال: فيثور في قلبه دخان يلحـــق بعنـــان السماء فيكون حجابا لقلبه، قال: فيرد ذلك الحجاب صلاته ويلتقم الشيطان قلبـــه، فـــلا

(١) سورة يس آية ٦٩ – ٧٠ .

(٢) سورة الأنفال آية ٢٤ .

يزال ينفخ فيه وينفث ويوسوس إليه ويزين له حتى ينصرف من صلاته، ولا يعقل ما كـــان فيه، وقد جاء في الخبر: لولا أن الشياطين يحومون حول قلـــوب بنـــــي آدم لنظـــروا إلى ملكوت السموات.

وروينا عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه رأي في القبلة نخامة فغضب غضبا شديدا، ثم حكها بعرجون كان في يده وقال: « ائتونـــي بعبير » فلطخ أثرها بزعفران، ثم التفت إلينا فقال: «أيكم يحب أن يبزق في وجهه؟ فقلنا: لا أينا، قال: فإن أحدكم إذا دخل في صلاته فإن الله عز وجل بينه وبين القبلة » وفي لفظ آخر: « واجهه الله تعالى فلا يبزقن أحـــدكم تلقـــاء وجهه، ولا عن يمينه، ولكن عن شماله، أو تحت قدمه اليسري، فإن بدرته بادرة فليبصق في ثوبه وليقلبه هكذا: ودَلَكَ بعضه ببعض » .

وقد روى: إذا قام العبد في صلاته وقال: الله أكبر، قال الله لملائكته: ارفعوا الحجاب بينـــي وبين عبدي، فإذا التفت، يقول الله تعالى: عبدي إلى من تلتفت، أنا خير لك ممـــن تلتفـــت إليه، ثم إذا قام المقبل على صلاته شهد قلبه قيامه لرب العالمين في يوم كان مقداره خمســـين ألف سنه، ثم شهد وقوفه بالحضرة بين يدي الملك الجبار، إذ ليس من الغافلين، فتأخذه غيبة الحضور، ويرهقه إجلال الحاضر، ويستولي عليه تعظيم القريب، ويجمعه خشية الرقيب، فإذا تلا وقف همه مع المتكلم ماذا أراد، واشتغل قلبه بالفهم عنه والانبساط منه، فإن ركع وقف قلبه مع التعظيم للعظيم، فلا يكون في قلبه أعظم من الله تعالى وحده، فإن رفع شهد الحمد للمحمود فوقف مع الشكر للودود، فاستوجب منه المزيد، وسكن قلبه بالرضا لأنه حقيقة الحمد، وإن سجد سما قلبه في العلو فقرب منه الأعلي، لقوله تعالى: ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾.

وأهل المشاهدة في السجود على ثلاثة مقامات: منهم من إذا سجد كوشـــف بـــالجبروت الأعلي، فيعلو إلى القريب ويدنو من القريب، وهذا مقام المقربين من المحبوبين. ومنهم مـــن إذا سجد كوشف بملكوت العزة، فيسجد على الثري الأسفل عند وصف مـــن أوصـــاف القادر الأجل فيكسر قلبه، ويخبت تواضعا وذلا للعزيز الأعلي، وهذا مقام الخـــائفين مـــن

العابدين. ومنهم من إذا سجد جال قلبه في ملكوت السموات والأرض، فـآب بظرائـف الفوائد، وشهد غرائب الزوائد، وهذا مقام الصادقين من الطالبين .

وهناك قسم رابع لا يذكر بشيء ليس له وصف فيستحق المدح، وهم الذين يجول همهم في أعطية الملك وأنصبة المماليك، فهم محجوبون بالهمم الدنيئة عن الشهادة العلية، محجوبون بالهوي عن السياحة إلى الإعلام.

فإن دعا هذا المصلي نظر إلى المدعو فكان هو المرجو، فأخذ في التمجيد والثناء والحمد والآلاء، ونسي حاجته من الدنيا، واشتغل عن نفسه بالمولي، وعن مسألته بحسن الثناء.

وإن استغفر هذا الداعي تفكر في أوصاف التوبة وأحكام التائب، وتفكر ما سلفمن الذنوب فعمل في تصفية الاستغفار، وإخلاص الإنابة والاعتذار، وجد وعقد الاستقامة فيكون له بهذا الاستغفار من الله عز وجل تحية وكرامة.

ففي مثل صلاة هذا العبد وردت الأخبار أن العبد إذا قام إلى الصلاة، رفع الحجاب بينه وبين الله وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء فيصلون بصلاته، ويؤمنون على دعائه، وأن المصلي لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه مناد لو علم المناجي من يناجي ما خرج، وأن أبواب السماء تفتح للمصلين، وأن الله تعالى يباهي ملائكته بصفوف المصلين، وفي التوراة المكتوب: يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدي مصليا باكياً، فأنا الله تعالى الذي اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نوري .

قال: وكنا نري أن تلك الرقة والبكاء، وتلك الفتوح التي يجدها المصلي في قلبه من دنو الرب تبارك وتعالي من القلب .

وقال رجل للنبي ﴿ ﷺ وآله﴾: ادع الله تعالى أن يرزقني مرافقتك في الجنة، فقال: « أعني بكثرة السجود »، وروينا عن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾: « ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة، ولو كان شيء أحب إليه من الصلاة لتعبد به ملائكته، منهم

راكع وساجد وقائم وقاعد » أو كما قال بعض العلماء: الصلاة خدمة الله عــز وجــل في أرضه، وقال آخر: المصلون خدام الله عز وجل على بساطه. ويقال: إن المصلين من الملائكة يسمون في السموات خدام الرحمن، ويفخرون بذلك على سائر المرسلين من الملائكة .

ويقال: إن المؤمن إذا صلي ركعتين عجب منه عشر صفوف من الملائكة، كل صف منــهم عشرة آلاف، وباهي الله تعالى به مائة ألف ملك، وذلك أن العبد قد جمــع فيــه أركــان الصلاة الأربعة من القيام والقعود والركوع والجلوس وفرّق ذلك على أربعين ألف ملــك، والقائمون لا يركعون إلى يوم القيامة، والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامــة، وكــذلك الراكعون والقاعدون، ثم قد جمع الله له أركان الصلاة الستة، من التكبير والتلاوة والحمــد والاستغفــار والدعاء والصــلاة على النبى

﴿ﷺ وآله﴾، وفرق ذلك على ستين ألف ملك، لأن كل صف من الملائكة عبادته ذكر من الأذكار الستة، فإذا رأت الأملاك ما جمع فيه من الأركان الستة والأذكــار في ركعــتين، عجبت منه وباهاهم الله تعالى به، لأنه قد فرق تلك الأعمال والأركان على مائــة ألــف ملك، وبذلك فضل المؤمن على الملائكة، وكذلك فضل الموقن أيضاً في مقامات اليقين مــن أعمال القلوب على الأملاك، بالتنقيل في المقامات، بأن جمعت فيه ورفع منها .

والملائكة لا ينقلون، بل كل ملك موقوف في مقام معلوم، لا ينقل عنــه إلى غــيره، مثــل الشكر والخوف والرجاء والشوق والأنين والخشية والمحبة، بل كل ملك له مزيد وعلو من المقام الواحد على قدر قواه، وجمع ذلك كله في قلب الموقن، قال الله تعالى: وهو أصــدق القائلين في صفات أوليائه المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ المؤمنـون: ١ - ٣ فمدحهم بالصلاة كما ذكرهم بالإيمان، ثم مدح صلاقم بالخشوع، كما افتتح بالصلاة أوصــافهم، ثم قــال في آخرهــا: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ

﴿ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ المؤمنون: ٩ فختم بها نعوتهم، وقال في نعت عباده المصلين الذين استثناهم من الذين يجزعون من المصائب والفقر والمانعين للمال والخير: ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ المعارج: ٢٢ - ٢٣ ثم نسق النعوت وقال في آخرها: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ المعارج: ٣٤ فلولا أنها أحب الأعمال إليه، ما جعلها مفتاح صفات أحبائه وختامها، ولما وصفهم بالدوام والمحافظة عليها، ومدحهم بالخشوع فيها .

والخشوع هو انكسار القلب وإخباته، وتواضعه وذلته، ثم لين الجانب وكف الجوارح، وحسن صمت وإقبال، والمداومة والمواظبة عليها، وسكون القلب والجوارح فيها. والمحافظة هي حضور القلب وإصغاؤه، وصفاء الفهم وإفراده، من مراعاة الأوقات، وإكمال طهارة الأدوات .

ثم قال تعالى في عاقبة المصلين: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ المؤمنون: ١٠ - ١١ .فجعل أول عطائهم الفلاح، وهو الظفر والبقاء، وآخره الفردوس هو خير المستقر والمأوى، وقال في أضدادهم من أهل النار: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ المدثر: ٤٢ - ٤٣ .وقال موبخاً لآخر منهم: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ القيامة: ٣١ ونهى رسول الله «ﷺ وآله» عن طاعة من نهاه عن الصلاة، ثم أمره بها وأخبره أن فيها القرب والزلفى في قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ العلق: ٩ - ١٠ ثم قال: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ العلق: ١٩.

فالمصلون بقيته من خلقه، وورثة جنته من عباده، وأهل النجاة من دار غضبه وإبعاده، جعلنا الله منهم بعطفه ورحمته .

ذكر الحث على المحافظة على الصلاة وطريقة المصلين من الموقنين :

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ الفتح: ٢٩ الآية، فاختار لنفسه أصحابه صلوات الله عليه، ثم اختار لأصحابه الصلاة، فجعلها وصفهم في الإنجيل والتوراة، فهذا يدل أن الصلاة أفضل الأعمال، لأن أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أفضل العمال، وسئل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: أي الأعمال أفضل؟ قال: « الصلاة لمواقيتها » وعن عمر رضي الله تعالى عنه: إذا رأيت الرجل حافظاً لصلاته فظن به خيراً، وإذا رأيته مضيعاً لصلاته فهو لما سواها أضيع، وكان الحسن يقول: ابن آدم ماذا يعز عليك من دينك إذا هانت عليك صلاتك، فأنت على الله تعالى أهون. وعن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: « الصلاة عماد الدين، من تركها فقد كفر » وفي حديث آخر: « بين الكفر والإيمان ترك الصلاة » وفي الخبر: « من حافظ على الصلوات الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نورا وبرهانا يوم القيامة، ومن ضيعها حشره الله تعالى مع فرعون وهامان » وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ مريم: ٨٧ قال: الصلوات الخمس .

وعن ابن مسعود وسلمان: الصلاة مكيال فمن أوفى وفي له، ومن طفف فقد علمتم ما قاله الله تعالى في المطففين. وفي الخبر: أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته، فلا يتم ركوعها ولا سجودها. وفي الخبر: إذا صلى العبد في الملأ فأحسن، وأساء صلاته في الخلا، فتلك استهانة يستهين بها بربه عز وجل. وفي الخبر: إذا أحسن العبد صلاته في العلانية وأحسنها في السر، قال الله تعالى لملائكته: هذا عبدي حقا . وعن كعب وغيره: من قبلت صلاته قبلت أعماله كلها، ومن ردت عليه صلاته ردت عليه أعماله كلها. ويقال من تقبلت منه الصلوات الخمس، وكملت بدون أن تلفق، أو يرقع بعضها من بعض، أو ترقع بغيرها من النوافل، اطلع على علم الأبدال، وكتب صديقاً.

وعلامة قبول الصلوات أن تنهاه في تضاعيفها عن الفحشاء والمنكر، والفحشاء الكبائر، والمنكر ما أنكره العلماء، فمن انتهى رفعت صلاته إلى سدرة المنتهى، ومن تحرفته الأهواء فقد ردت صلاته لما غوى فهوى .

وقال مالك بن دينار وإبراهيم بن أدهم: إني لأرى الرجل يسيء صلاته فأرحم عياله. وقال الفضيل بن عياض: الفرائض رؤوس الأموال والنوافل الأرباح، ولا يصح ربح إلا بعد رأس المال. وكان ابن عيينه يقول: إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول، وقال علي بن الحسين: من اهتم بالصلوات الخمس في مواقيتها، وإكمال طهورها لم يكن له في الدنيا عيش .

وكان ﷺ إذا توضأ للصلاة تغير لونه واصفر ورعد، فقيل له في ذلك فقال: « تدرون بين يدي من أريد أن أقف، وعلى من أدخل، ولمن أخاطب » وقال بعض العارفين: للصلاة أربع فرائض: إجلال المقام، وإخلاص النية، ويقين المقال، وتسليم الأمر. وقال أبو الدرداء: خيار عباد الله الذين يراعون الشمس والقمر والأظلة لذكر الله تعالى. وكان وكيع يقول: من لم يأخذ أهبة الصلاة قبل وقتها لم يحافظ عليها، ومن تهاون بتكبيرة الإحرام، فاغسل يدك منه .

وروينا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ آل عمران: ١٣٣ قال: تكبيرة الإحرام. وفي حديث أبي كاهل عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: « من صلى أربعين يوما الصلوات في جماعة لا يفوته منها تكبيرة الإحرام، كتب له براءتان، براءة من النفاق، وبراءة من النار » .

وقال سعيد بن المسيب: منذ أربعين سنة ما فاتتني تكبيرة الإحرام في جماعة، وكان يسمى: حمامة المسجد. وقال عبد الرزاق: من عشرين سنة ما سمعت الآذان إلا في المسجد. ويقال: إنه إذا كان يوم القيامة أمر بطبقات المصلين إلى الجنة زمرا، قال: فتأتي أول زمرة كأن وجههم الكوكب الدري فتستقبلهم الملائكة، فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن المصلون من أمة محمد

﴿ ﷺ وآله﴾، فيقولون: ما كانت أعمالكم في الدنيا؟ فيقولون: كنا إذا سمعنا الأذان قمنا إلى الطهارة لا يشغلنا غيرها، فتقول الملائكة: يحق لكم ذلك، ثم تأتي الزمرة الثانية فوق أولئك في الحسن والجمال كأن وجوههم الأقمار، فتقول الملائكة: من أنتم؟ فيقولون: نحن المصلون، فيقولون: وما كانت صلاتكم؟ فيقولون: كنا نتوضأ للصلاة قبل دخول وقتها، فتقول الملائكة يحق لكم ذلك، ثم تأتي الزمرة الثالثة فوق هؤلاء في المترلة والجمال، كأن وجوههم الشمس الضاحية، فتقول الملائكة؟ أنتم أحسن وجوها وأعلى مقاما، فما أنتم؟ فيقولون نحن المصلون، فيقولون: وما كانت صلاتكم؟ فيقولون: كنا نسمع الآذان في المسجد فتقول الملائكة: يحق لكم ذلك .

وقال بعض العلماء رضي الله عنهم: سميت الصلاة صلاة، لأنها صلة بين العبد وبين الله عز وجل، ومواصلة من الله تعالى لعبده، ولا تكون المواصلة والنوال إلا لتقي، قال الله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ الحج: ٣٧ .ولا يكون التقي إلا خاشعا، فعندها لا يعظم عليه طول الوقوف، ولا يكثر عليه الانتهاء عن المنكر والائتمار بالمعروف كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ العنكبوت: ٤٥. والخاشعون من المؤمنون هم الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله، جزاؤهم البشرى كما قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: ٢٢٣. والخاشعون أيضاً الخائفون الذاكرون الصابرون، والمقيمون الصلاة، فإذا كملت هذه الأوصاف فيهم كانوا مخبتين، وقد قال سبحانه: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ الحج: ٣٤.

وكان ابن مسعود إذا نظر إلى الربيع بن خيثم يقول: وبشر المخبتين، أما والله لو رآك محمد ﴿ﷺ وآله﴾ لفرح بك، وفي لفظ آخر: لأحبك. يقال: إنه كان يختلف إلى مترل ابن مسعود عشرين سنة، لا تحسب جارية ابن مسعود إلا أنه أعمى، لشده غض بصره، وطول إطراقه

إلى الأرض بنظره، وكان إذا دق الباب عليه تخرج إليه الجارية، فإذا رأته قالت لعبد الله: صديقك ذاك الأعمى قد جاءك، فكان ابن مسعود يضحك ويقول: ويحك ذاك الربيع .

ومشى ذات يوم مع ابن مسعود في الحدادين، فلما نظر إلى الأكوار تنفخ، وإلى النيران تلتهب، صعق وسقط مغشيا عليه، وقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة فلم يفق، فحمله ابن مسعود على ظهره إلى منزله فلم يزل مغشيا عليه إلى الساعة التي صعق فيها، حتى فاتته خمس صلوات، وابن مسعود عند رأسه يقول: هذا والله الخوف، وكان هذا يقول: ما دخلت في صلاة قط فأهمني فيها إلا ما أقول وما يقال لي .

وقد كان عامر بن عبد الله من خاشعي المصلين، كان إذا صلى ضربت ابنته بالدف، وتحدث النساء بما يردن في البيت، لم يكن يعقل ذلك ولا يسمعه. وقيل له ذات يوم: هل تحدث نفسك في الصلاة بشيء؟ قال: نعم بوقوفي بين يدي الله عز وجل، ومنصرفي إلى إحدى الدارين، قيل: فهل تجد شيئا مما تجده من أمور الدنيا؟ فقال: لأن تختلف الأسنة في أحب إلى من أن أجد شيئا في الصلاة مما تجدون. وكان يقول: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا .

وقيل: كان مسلم بن يسار من الزاهدين العاملين، كان إذا دخل في الصلاة يقول لأهله : تحدثوا بما تريدون، وأفشوا سركم فإني لا أستمع إليكم، وكان يقول: وما يدريكم أين قلبي. وكان يصلي ذات يوم في مسجد البصرة، فوقعت خلفه اسطوانة معقود بناؤها على أربع طاقات، فتسامع بها أهل السوق، فدخلوا المسجد وهو يصلي كأنه وتد، وما انتقل من صلاته، فلما فرغ جاءه الناس يهنونه فقال: أي شيء تهنوني؟ قالوا وقعت هذه الأسطوانة العظيمة وراءك فسلمت منها، قال: متى وقعت؟ قيل: وأنت تصلي، قال: ما شعرت بها .

وقال بعض المصلين: الصلاة من الآخرة، فإذا دخلت في الصلاة خرجت من الدنيا. وسئل بعضهم: هل تذكر في صلاتك شيئاً؟ قال: وهل شيء أحب إلى من الصلاة فأذكره فيها؟ وكان أبو الدرداء يقول: من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله في الصلاة ليدخل في الصلاة وقلبه فارغ. وفي الخبر: أن عمار بن ياسر صلى صلاة فخففها، فقيل له: خففت يا

أبا اليقظان، فقال: هل رأيتموني نقصت من حدودها شيئاً؟ قالوا: لا، قال: لأني بادرت سهو الشيطان، إن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال: « إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له ثلثها ولا نصفها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها » وكان يقول: « إنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها » وقد ذكر هذا عبد الواحد بن زيد أنه إجماع، فروينا عنه أنه قال: أجمعت العلماء أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل .

وقال الحسن: كل صلاة لا يحضرها قلبك فهي إلى العقوبة أسرع منها إلى الثواب . ويقال: إن أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ – منهم الزبير وطلحة – كانوا أخف الناس صلاة، فسئلوا عن ذلك فقالوا: نبادر بها وسوسة العدو. وروينا أن عمر رضي الله عنه قال على المنبر: إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام، وما أكمل لله تعالى صلاة، قيل: وكيف ذاك؟ قال: لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله تعالى فيها. وقال الله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ النساء: ٨٧. ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ النساء: ٤٣، وقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: « من تشعبت به الهموم لم يبال الله تعالى في أي أوديتها هلك » .

وسئل أبو العالية عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ الماعون: ٥ قال: هو الذي يسهو في صلاته فلا يدري على كم ينصرف على شفع أم على وتر. وسئل الحسن عن ذلك فقال: هو الذي يسهو عن وقت الصلاة حتى يخرج وقتها، وكان يقول: أما والله لو تركوها لكفروا، ولكن سهوا عن الوقت. وقال بعض السلف فيها: هو الذي إن صلاها في أول الوقت أو الجماعة لم يفرح، وإن صلاها بعد الوقت لم يحزن، وقيل: هو الذي لا يرى تعجيلها برا، ولا تأخيرها إثما .

ويقال: إن الصلوات الخمس يلفق بعضها إلى بعض حتى يتم بها للعبد صلاة واحدة. وقيل: من الناس من يصلي خمسين صلاة، فيكمل له بها خمس صلوات، وإن الله تعالى ليستوفى من

العبد ما أمره، كما فرضه عليه، وإلا تممه من سائر أعماله النوافل، لأنه ما فرض على العبد إلا ما يطيقه بعونه، إذ لم يكلفه ما لا طاقة له به برحمته .

وروينا عن عيسى عليه السلام: يقول الله تعالى: بالفرائض نجا مني عبدي، وبالنوافل تقرب إلي عبدي. وقد جاء مثله عن نبينا ﴿ ﷺ وآله﴾، يقول الله تعالى: لا ينجو مني عبد إلا بأداء ما افترضته عليه. وفي الخبر المفسر: أول ما يحاسب به العبد الصلاة، فإن وجدت كاملة، وإلا يقول الله تعالى: انظروا هل لعبدي نوافل فتتم فرائضه من نوافله، ثم يعمل بسائر الفرائض كذلك، يوفى كل فرض من جنسه من النفل، فإذا كانت النوافل في السهو والتقصير كالفرائض، أو لم يوجد نوافل، فكيف يكون حاله في الحساب ؟ .

وكان ابن عباس يفسر قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ عبس: ٢٣. قال: يعني به الكافر، لأن عنده أن كل موضع في القرآن يذكر به الإنسان خاصة أنه يعني به الكافر .

وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة: ٢٨٦. يعني طاقتها، وقال سبحانه وتعالى مخبرا عن المؤمنين: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ البقرة: ٢٨٦ في التفسير: قد فعلت .

وفى هذه المسألة اختلاف وشبهة، والصواب من ذلك: أن الله عز وجل لا يكلف المؤمنين خاصة ما لا طاقة لهم به، فهم مخصوصون بذلك، فضلا من الله تعالى ونعمة آثرهم بها على الكافرين، إذ له أن يؤثر بعض عباده على بعض، لأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء، وهذا مفهوم من دليل الخطاب من قوله: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾. أن له تعالى أن يحمل الكافر ما لا طاقة له به عدلا منه وحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الأنعام: ١١٥. قيل: صدقا للمؤمنين، وعدلا على الكافرين، قال الله تعالى مخبرا عن أخوة يوسف: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ يوسف: ٩١، فهذا نص في الإيثار لبعض خلقه على البعض، ثم رأيت تصديق ما ذكرته عن ابن عباس، رواه إسماعيل

عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة: ٢٣٣ البقرة: ٢٣٣ يعني إلا طاقتها من العمل، لأن الله تعالى افترض على المؤمنين أعمالا يطيقونها، ولم يفترض عليهم ما لا يطيقون، هذا نقل لفظ ابن مسعود في تخصيص المؤمنين كما ذكرناه آنفا. ويقول أيضاً في تفصيل هذه المسألة للزائغين فيها تعلق ابتغاء التأويل: إن الله تعالى كلف العباد ما لا يطيقونه إلا به، لافتقارهم إليه وعدم استغنائهم عنه في كل حركة وسكون، إذ لا مشيئة لهم دون مشيئته، ولا استطاعة إلا بتوفيقه، ولا حول ولا قوة إلا به، ألم تسمع إلى قوله تعالى في وصف الكافرين: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ هود: ٢٠ وقال تعالى في مثله: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ الكهف: ١٠١ وقال فيمن استطاع به: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ هود: ٨٨ وروينا عن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾: « من صلى كما أمر غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وقد يروي في خبر يقول الله تعالى: ليس كل مصل أتقبل صلاته، إنما أتقبل صلاة من تواضع لعظمتي، وخشع قلبه لجلالي، وكف شهواته عن محارمي، وقطع ليله ونهاره بذكري، ولم يصر على معصيتي، ولم يتكبر على خلقي، ورحم الضعيف وواسى الفقير من أجلي، عليَّ أن أجعل الجهالة له حلما، والظلمة له نورا، يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره، أكلؤه بقوتي، وأباهي به ملائكتي، لو قسم نوره عندي على أهل الأرض لوسعهم، مثله كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ولا يتغير حالها » .

وفى الخبر: كم من قائم حظه في قيامه السهر والتعب. ومن صلى صلاة وراء الإمام فلم يدر ماذا قرأ فهو نهاية السهو، فإنه تارك الأمر بالاستماع، فيخاف عليه مجانبة الرحمة، لأن الله تعالى ضمن الرحمة بشرطين: الاستماع والإنصات، قال سبحانه في المعنيين: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأعراف: ٢٠٤ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ الأحقاف: ٢٩ وروينا في خبر: أن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ صلى صلاة، فترك في قراءته فلما انفتل قال: « ماذا قرأت؟ فسكت القوم، فسأل أبي بن كعب، فقال: قرأت

سورة كذا، ونزلت آية كذا، فما أدري أنسخت أم رفعت؟ فقال: أنت لها يا أُبي » ثم أقبل على الآخرين فقال: « ما بال أقوام يحضرون صلاتهم، ويتمون صفوفهم ونبيهم بين أيديهم، لا يدرون ما يتلو عليهم من كتاب ربهم، ألا إن بني إسرائيل كذلكم فعلوا فأوحى الله إلى نبيهم: أن قل لقومك تحضروني أبدانكم، وتعطوني ألسنتكم، وتغيبون عني قلوبكم باطلا ما تذهبون » .

وقال بعض علمائنا: إن العبد يسجد السجدة عنده أن يتقرب بها إلى الله عز وجل، ولو قسمت ذنوبه في سجدته على أهل مدينته لهلكوا، قيل: وكيف يكون ذلك يا أبا محمد؟ قال: يكون ساجدا عند الله وقلبه مصغ إلى هوى، ومشاهدا لباطل قد استولى عليه. وهذا كما قال، لأن فيه انتهاك حرمة القرب، وسقوط هيبة الرب تعالى. واعلم أن طول الصلاة عليك غفلة، وقصرها سهو، لأنها إذا طالت عليك دل على عدم الحلاوة، ووجود الثقل بها، وكبرها على جوارحك، وإذا قصرت عليك وخفت، دل على نقصان حدودها، ودخول الغفلة والسهو فيها، فالنسيان قصرها، والاستقامة في الصلاة أن لا تطول عليك، لوجود الحلاوة ولذة المناجاة، وحسن الفهم واجتماع الهم، ولا تقصر عليك لتيقظك فيها ورعايتك حدودها، وحسن قيامك بها، وهذه مراقبة المصلين ومشاهدة الخاشعين .

ذكر أحكام الخواطر في الصلاة :

قد شرحنا هذا الموضوع في كتاب: (أصول الوصول) عقب ذكر أحكام الصلاة، ومن أراده فليراجعه .

الركن الثالث : الزكاة

فضائل الصدقة وآداب العطاء :

تقدم الكلام على أحكامها، والأنواع التي تجب فيها، والمقادير الواجبة في كل نوع، وشروطها في كتاب: (أصول الوصول) فلا حاجة لذكره، وإنما نريد أن نبين هنا طريقة السلف في فضائل الصدقة وآداب العطاء .

روينا عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه قال: « ليس في المال حق سوى الزكاة » وأن جماعة من التابعين كانوا يذهبون إلى أن في المال حقوقا غير الزكاة، منهم إبراهيم النخعي قال: كانوا يرون أن في المال حقوقا غير الزكاة، ومنهم الشعبي سئل: أفي المال حق سوى الزكاة؟ قال: نعم، أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ البقرة: ١٧٧ الآية، ومنهم عطاء ومجاهد. وقد كان المسلمون يرون المساواة والفرض والقيام بمؤن العجزة من أنفسهم وأهلهم من المعروف والبر والإحسان، وإن ذلك واجب على المتقين وعلى المحسنين من أهل اليسار والمعروف. وكذلك مذهب جماعة من أهل التفسير أن قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ البقرة: ٣ وقوله: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ البقرة: ٢٥٤ مأمور به، وأن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة، وأنه داخل في حق المسلم على المسلمين، وواجب بحرمة الإسلام ووجود الحاجة .

فمن فضائل الزكاة: أن يخرجها في أول ما تجب عليه، وإن قدمها قبل وجوبها إذا رأى لها موضعاً يتنافس فيه ويغتنم خوف فوته من غازٍ في سبيل الله عز وجل، أو في دين مطالب، أو جهاد وغزو، أو إلى رجل فقير فاضل طرأ في وقته، أو ابن سبيل غريب، كان تقدمتها إلى هؤلاء وأمثالهم أفضل وأزكى، لأنه من المسارعة إلى الخير، ومن المعاونة على البر والتقوى، وداخل في التطوع بالخير وفعله الذي أمر به، ولا يأمن الحوادث، إذ في التأخير آفات، وللدنيا نوائب وعوائق، وللنفس بدوات، وللقلوب تقليب .

وإن جعل رأس الحول أحد الشهرين كان أفضل فإن في هذين خاصية من الفضائل ليست في غيرهما، فأما شهر رمضان فإن الله تعالى خصه بتنزيل القرآن، وجعل فيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وجعله زماناً لأداء فرضه الذي افترضه على عباده من الصيام، وشرفه بما أظهر فيه من عمارة بيوته بالقيام، وقد كان مجاهد يقول: لا تقولوا رمضان، فإنه اسم من أسماء الله تعالى، ولكن قولوا شهر رمضان، وقد رفعه إسماعيل بن أبي زياد، فجاء به مسنداً، وأما ذو الحجة فإنا لا نعلم شهراً جمع خمس فضائل غيره: هو شهر حرام، وشهر حج، وفيه يوم الحج الأكبر، وفيه الأيام المعلومات وهى العشرة، والأيام المعدودات وهي

أيام التشريق، التي أمر الله تعالى بذكره فيها، وأفضل أيام في شهر رمضان العشر الأواخر، وأفضل أيام في شهر الحجة العشر الأول .

وقد استحب بعض أهل الورع أن يقدم في كل سنة بشهر، لئلا يكون مـؤخرا عـن رأس الحول، لأنه إذا أخرج في شهر معلوم، ثم أخرج القابل في مثله، فإن ذلك الشـهر يكـون الثالث عشر، وهذا تأخير فقالوا: إنه إذا أخرج في رجب، ليخرج من القابـل في جمـادى الآخرة، ليكون سنته بلا زيادة، وإذا أخرج في رمضان، فليخرج من قابل في شعبان، علـى هذا لئلا يزيد على السنة شيئاً وهذا أحسن، وليتق أن يكون مخرجا للفرض في كل شهر .

ثم أن يخرجها طيبة بها نفسه، مسرورا بها قلبه، مخلصاً لربه، مبتغياً بها وجهه، لغير ريـاء ولا سمعة، ولا تزين ولا تصنع، لا يحب أن يطلع عليها غير الله عز وجل، ولا يرجو في إعطائها ولا يخاف في منعها سواه، وليكن ناظرا إلى الله تعالى، عارفاً بحسن توفيقه لـه، وأن يعتقـد فضل من يعطيه من الفقراء عليه، ولا ينتقصه بقلبه، ولا يزدريه، وليعلم أن الفقير خير منه، لأنه جعل طهرة وزكاة له، ورفعة ودرجة في دار المقام والحياة، وأنه هو قد جعـل سـخرة للفقير وعمارة لدنياه، كما حدثنا بعض العارفين قال: أريد مني ترك التكسب وكنـت ذا صنعة جليلة، فجال في نفسي من أين المعاش، فهتف بي هاتف لا أراه: تنقطع إلينا وتتهمنا؟ فلك علينا أن نخدمك وليا من أوليائنا، أو نسخر لك منافقا من أعدائنا .

وأن يسر ذلك إلى الفقير سرا ولا يذكر ذلك، فقد جاء في تفسير قوله تعـالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ البقرة: ٢٦٤ قال: المـن أن تـذكرها، والأذى أن تظهرهـا، وحدثت عن بشر بن الحارث قال: قال سفيان: من منَّ فسدت صدقته، قيل: كيف المن يا أبا نصر؟ قال: أن تذكره أو تحدث به، وبعضهم يقول: المن هو أن تسـتخدمه بالعطـاء، والأذى أن تعيره بالفقر، وقيل: المن أن يتكبر عليه لأجل أن يعطيه، والأذى أن تنـهره أو توبخه بالمسألة، وفي الحديث: « أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير في سر » وقـال بعـض

العلماء: ثلاثة من كنوز البر منها إخفاء الصدقة، وقد روينا مسنداً من طريق: وذلك أسلم لدينه وأقل لآفاته وأزكى لعمله .

وقد روينا في الخبر: لا يقبل الله من مسمع ولا مراء ولا منان. فجمع بين المنة والسمعة كما جمع بين السمعة والرياء، ورد بهن الأعمال، فالمسمع الذي يتحدث بما صنعه من الأعمال ليسمعه من لم يكن رآه، فيقوم ذلك مقام الرؤية، فسوى بينهما في إبطال العمل، لأنهما عن ضعف اليقين إذ لم يكتف المسمع بعلم مولاه، كما لم يقنع المرائي بنظره فأشرك فيه سواه، وألحق المنان بهما، لأن في المنة معناهما من أنه ذكره، فقد سمع غيره به، أو رأى نفسه في العطاء، ففخر به، وأداه سرا، فإن أظهره نقل من السر وكتب في العلانية، فإن تحدث به محي من السر والعلانية، فكتب رياء، فلو لم يكن في إظهار الصدقة مع الإخلاص بها إلا فوت ثواب السر لكان فيه نقص عظيم، فقد جاء في الأثر: تفضل صدقة السر على صدقة العلانية، سبعين ضعفاً، وفي الحديث المشهور: « سبعة في ظل عرش الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم رجل تصدق بصدقة فلم تعلم شماله ما أعطت يمينه » وفي لفظ آخر: « فأخفى عن شماله ما تصدقت به يمينه » وهذا من المبالغة في الوصف، وفيه مجاوزة الحد في الإخفاء أي: يخفى عن نفسه، فكيف غيره؟ وقد تستعمل العرب المبالغة في الشيء على ضرب المثل والتعجب، وإن كان فيها مجاوزة للحد، من ذلك أن الله عز وجل ذم قوما ووصفهم بالبخل، وبالغ في وصفهم، فقال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ النساء: ٥٣ والنقير لا يريده أحد، ولا يطلبه ولا يعطاه، لأنه هو النقطة التي تكون على ظهر النواة من منبت النخلة .

وفيه معنى أشد من هذا وأغمض منه لما قال: فأخفى عن شماله، كان لهذا القول حقيقة في الخفاء، فهو أن لا يحدث نفسه بذلك، ولا يخطر على قلبه، وليس يكون هذا إلا أن لا يرى نفسه في العطاء أصلا، ولا يجرى وهم ذلك على قلبه كما يقول في سر الملكوت: إن الله تعالى لا يطلع عليه إلا من لا يحدث نفسه به، بمعنى أنه لا يخطر على قلبه ولا يذكره، ولا يشهد نفسه فيه شغلا عنه بما اقتطع به، وبأنه لا يباليه، فعندها صلح أن يظهر على السر،

فإن لم يمكنك على الحقيقة أن تخفى صدقتك عن نفسك، فأخف نفسك فيها حتى لا يعلـــم المعطي أنك أنت المعطي، وهذا مقام في الإخلاص، فإن أظهرت يدك في الإعطاء فأخفها سرا إلى المعطي .

هذا حال الصادق، فقد كان بعض المخلصين يلقى الدرهم بين يدي الفقير أو في طريقـــه أو في موضع جلوسه، بحيث يراه وهو لا يعلم من صاحبه، وبعضهم كان يصر ذلك في ثوبـــه وهو نائم، فلا يعلم من جعله، وقد رأيت من يفعل ذلك، فأما من كان يوصل إلى الفقـــير على يد غيره، ويستكتمه شأنه، فلا يحصى ذلك من المسلمين، وفي الخبر « صدقة الســـر – وقيل: صدقة الليل – تطفئ غضب الرب تعالى » وقد أخبر الله تعالى أن الإخفاء أفضـــل، ومعه يكون تكفير السيئات فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ البقرة: ٢٧١.

فإن أظهر مسكين نفسه، وكشف نفسه للسؤال، وآثر التبذل على الصون والتعفف، فـــلا بأس أن تظهر معروفك إليه، فإن أظهرت زكاتك إرادة السنة والاقتداء بـــك والتحـــريض على مثل ذلك من غيرك لينافسك فيه أخوك، فيسرع إلى مثله أمثالك منهم فحسن، وذلك من التحاض على إطعام المسكين، وقد ندب الله تعالى إليه، وقد قيده في قولـــه تعـــالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ الرعد: ٢٢ قيل: سرا: التطوع، وعلانية: الصدقة المفروضة. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ المزمـل: ٢٠ القرض الحسن: هو التطوع، وقد قيل: الحلال، كما قال: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ هـود: ٨٨ أي: حـــلالا. وقد قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ البقرة: ٢٧١ فمدح المبدي بـــنعم، إلا أن ذلك لا يحسن إلا إلى من أبدى نفسه كأنه هذا السائل الذي يسأل بلسانه وكفه .

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ البقـرة: ٢٧١ الآية، كأنهـــا للمســـتخفى بالمسألة، وهى لخصوص الفقراء لا يظهرون نفوسهم بما يمنعهم من الحياء والتعفف، فمـــن

أظهر نفسه فأظهر إليه، ومن أخفاها فأخف له. ومن ذلك كشف عورة الفاسق، إنما حـــرم عليك أن تظهر عورة من يخفى عنك نفسه ويستتر، فإذا أظهر نفسه بها وأعلن، فلا بأس أن تظهر عليه، كما جاء في الخبر: من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له .

وينبغي أن يجعل صدقته مما يحبه من المال، ومن جيد ما يدخر ويقتني ويستأثر به النفـــوس، فيؤثر مولاه به كما أمره، وضرب المثل لـــه فقـــال: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ البقـرة: ٢٦٧ ثم قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ﴾ البقـرة: ٢٦٧، وقال في ضـــرب المثـــل بالعبيد: ﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ البقـرة: ٢٦٧ ، أي: لا تقصـــدوا الـــردي فتجعلوه لله تعالى، ولو أعطى أحدكم ذلك لم يأخذه إلا على إغماض أي: كراهية وحيـــاء ولا يجعل ما لله تعالى دون ما يستجيد لنفسه أو ما يكره أن يقتنيه لعاقبته، أو يأخـــذه مـــن غيره، أو ما لا يستحسن أن يهديه لنبيل من العبيد، فتكون قد آثرت نفسك أو عبدا مثلك على مولاك، فإن هذا من سوء الأدب. ولا يقوَّم بسوء أدب واحـــد في معاملـــة بجميـــع المعاملات وقد روي في معنـــى قوله تعـــالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ البقـرة: ٢٤٥ قال: طيبا فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا. وفي حديث إبان عن أنـــس: (طـــوبى لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية). وفي الخبر: (سبق درهم مائة ألف درهم) .

وقد هدد الله تعالى قوما جعلوا له ما يكرهون، ووصفت ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنـــى لا جرم، فأكذبهم في قوله تعـــالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ النحل: ٦٢ أي: حقا لهم النار، وفي الآيـــة وقـــف غريب لا يعلمها إلا الحذاق من أهل العربية، فقف على (لا) فيكون نفيا لوصفهم أن لهم الحسنى، ثم يستأنف بـــ (جرم) أن لهم النار، أي: كسب لهم – جعلهم الله ما يكرهون – النار، أي: بجرمهم واكتسابهم .

وإذا دعا لك مسكين عند الصدقة فاردد عليه مثل دعائه حتى يكون ذلك جــزاء بقولــه، وتخلص لك صدقتك، وإلا كان دعاؤه مكافأة على معروف، فقد كان العلماء يتحفظــون من ذلك وهو أقرب إلى التواضع، ولا ترى أنك مستحق لذلك منه لما وصلته بــه، لأنــك عامل في واجب عليك لمعبودك، أو توفى للمعطي رزقه، وما قسم له من تعبــدك بــذلك، وكانت عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما إذا أرسلتا معروفا إلى فقير قالتا للرسول احفظ ما يدعو به، ثم يردان عليه مثل قوله، ويقولان: حتى تخلص لنا صدقتنا. وفعل ذلك عمر بــن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله تعالى عنهما .

ولا ينبغي أن تقتضي من الفقير الدعاء لك، أو تطالبه بذلك، أو تحب منه الثناء والمدح على ذلك، فإنه ينقص من الصدقة، وإذا كثر منك وقوي أحبطها، وإن كان عليه أن يدعو لك ويثني به عليك، فإنما يعمل فيما تعبده مولاه به وأمره به، فلا يرى ذلك من حقك عليه .

وإذا وصلت إلى الفقير معروفا فبحسن أدب، ولين جانب، ولطف كلام، وتذلل وتواضع . وقد كان بعض الأدباء إذا أراد أن يدفع إلى فقير شيئا، بسط كفه بالعطاء، لتكون يد الفقير هي العليا، وبعضهم كان يضعها بين يديه على الأرض ويسأله قبولها منــه، ليكــون هــو السائل، ولا يناوله بيده إعظاماً له، وهذا يدل على معرفة العبد بربه، وحسن أدبه في عبادته .

ومن أَحَبَّ الثناء والذكر على معروفه كان ذلك حظه منه وبطل أجره، وربما كــان عليــه فضل من الوزر لمحبته الذكر والثناء، فيما لله تعالى أن يفعله، وفي رزق الله لعبده الذي أجراه على يده، فإن تخلص سواء بسواء، فما أحسن حاله .

واستحب للفقير أن يخص ذا المعروف إليه بدعوات شكرا لما أولاه وتأدبا وتخلقــا بفعــل مولاه، لأنه جعله سببا للخير وواسطة للبر، إذ الله سبحانه وتعالى يشهد نفسه بالعطــاء، ثم قد أثنــى على عبده وشكر له في الإعطاء، فليقل: « طهر الله قلبك في قلــوب الأبــرار، وزكى عملك في عمل الأخيار، وصلى علي روحك في أرواح الشهداء » فذلك هو شكر

الناس والدعاء لهم وحسن الثناء عليهم. ومن شكرهم أيضا أن لا يـــذمهم في المنـــع، ولا يعيبهم عند القبض، فذلك تأويل الخبر: (من لم يشكر الناس لم يشكر الله تعالى) فإن فيـــه إثبات حكم الأواسط، واستعمال حسن الأدب في إظهار النعم والتخلق بأخلاق المنعم، لأنه أنعم عليهم، ثم شكر لهم كرما منه. وكذلك في الخبر: العبد الموقن يشهد يــد مـــولاه في العطاء، فحمد ثم شكر للمتقين، إذ جعلهم مولاه سبب جده وظرفا لرزقه. وفي الخبر: « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه » فإن شكر الله تعالى على العطاء هو اعتقاد المعرفة أنه من الله تعالى لا شريك له فيها، والعمـــل بطاعته بها .

ومن فضل الصدقة أن يقصد بها الفقراء الصالحين الصادقين من أهل التصوف والدين، ممن يؤثرون التستر والإخفاء ولا يكثرون البث والشكوى، وممن فيه وصـــف مـــن أوصـــاف الكتاب: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ البقرة: ٢٧٣ أي: حبســـوا في طريق الآخرة، لعيلة أو ضيق معيشة أو إصلاح قلوب أو قصور يـــد ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ البقرة: ٢٧٣ لأنهم مقصوصوا الجناح، إذ المال للغنـــــى بمترلـــة الجناح للطائر فيتنقل بماله حيث شاء من البلاد وينبسط في شهواته كيف شاء من المـــراد، والفقير محصور عن ذلك، لا يستطيعه لقبض يده وقدر رزقه، ومن هذا قوله تعـــالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾ الأعراف: ٢٦ قيل: المـــال، وقيـــل: المعـــاش ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ البقـرة: ٢٧٣ فسمى الله تعالى من لا يعرفهم بالفقر ولا يشهد وصفهم بالتقلل لظهور تعففهم عن المسألة جاهلا بوصف المؤمنين، ثم أكد وصـــفهم وأظهر للخلق تعريفهم، بيانا منه وكشفا لحالهم إذ ســـتروها بالعفـــة، فقـــال: « تعـــرفهم بسيماهم » فالسيما هي العلامة اللازمة والخليقة الثابتة دون التحلي، واللبسة الطاهرة ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ البقـرة: ٢٧٣ أي: بهذه العلامة أيضاً تعرفهم إن أشـــكلوا عليك، فإنهم لا يسألون: عفة وقناعة، إلحافا: لا يلتحفون بالأغنياء، ولا يلاحفـــون أهـــل

الدنيا تملقا وضراعة، أي: هم منفردون بأحوالهم، أغنيـــاء بيقينـــهم، أعـــزة بصـــبرهم . والإلحاف: الذي مشتق من اللحاف الذي يلتحف به، فيلزم الجسم، فقال: ليسوا ممن يفعل ذلك لا يلتحفون الأغنياء كاللحاف، ولا يلتحفون المسألة إلزاما كالصنعة كمـــا يلتحـــف بالثوب .

فهذا هو طريق السلف الصالح في الزكاة، وما كانوا عليه في تأديتها، وأحوال الفقراء الذين هم أهل لها، وما مدحهم الله تعالى به، وهناك مشاهد أصفى وأعلى تجلي لمن عمـــل بتلـــك المبادىء، وتناول لما أخذ بها؛ وجاهد نفسه عليها في ذات الله تعالى، قـــال الله تعـــالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ العنكبوت: ٦٩ .

الركن الرابع : الصيام

سبق الكلام على شروطه وفرائضه وسننه وآدابه وما يتعلق به من الأحكـــام الشـــرعية في كتاب: (أصول الوصول) وأريد بعون الله تعالى وحسن توفيقه أن أبين فضائل الصـــوم، ووصف الصائمين وما كان عليه السلف الصالح والصحابة والتابعون رضوان الله علـــيهم أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

فضائل الصوم ووصف الصائمين:

صوم الخصوص حفظ الجوارح الست:

١- غض البصر عن الاتساع في النظر .

٢- صون السمع عن الإصغاء إلى محرم أو الوزر أو القعود مع أهل الباطل .

٣- حفظ اللسان عن الخوض فيما لا يعني جملة، مما إن كتب عنه كان عليه، وإن حفظ له لم يكن له .

٤- مراعاة القلب بعكوف الهم عليه، وقطع الخواطر والأفكار التي كف عن فعلها، وترك التمني الذي لا يجدي .

٥- كف اليد عن البطش إلى محرم من مكسب أو فاحشة .

٦- حبس الرِّجل عن السعي فيما لم يؤمر به، ولم يندب إليه من غير أعمال البر .

فمن صام تطوعا بهذه الجوارح الست، وأفطر بجارحتى الأكل والشرب والجماع، فهو عند الله تعالى من الصائمين في الفضل، لأنه من الموقنين الحافظين للحدود. ومن أفطر بهذه الست أو ببعضها، وصام بجارحتى البطن والفرج، فما ضيع أكثر مماحفظ، فهذا مفطر عند العلماء، صائم عند نفسه .

وقد قال أبو الدرداء: أيا حبذا نوم الأكياس، كيف يعيبون قيام الحمقى وصومهم، ولذرة من تقوى، أفضل من أمثال الجبال عبادة مع المغترين. ومثل من صام عن الأكل وأفطر بمخالفة الأمر، مثل من مسح كل عضو فصلاته مردودة عليه لجهله. ومثل من أفطر بالأكل والجماع، وصام بجوارحه عن المنهى، مثل من غسل كل عضو مرة واحدة وصلى، فهو تارك للفضل في العدد، إلا أنه مكمل للفرض بحسن العمل، فصلاته متقبلة لإحكامه للأصل، وهو مفطر للسعة صائم في الفضل. ومثل من صام عن الأكل والجماع، وصام بجوارحه الست عن الآثام، كمثل من غسل كل عضو ثلاثا فقد جمع الفرض والفضل، وأكمل الأمر والندب فهو من المحسنين، وعند العلماء من الصائمين، وهذا صوم الممدوحين في الكتاب، الموصوفين بالذكرى من أولي الألباب .

ومن فضائل الصوم أن يجتنب من حظوظ هذه الجوارح الشبهات من الأشياء، وفضول الحلال، ويرفض الشهوات الداعية إلى العادات، ولا يفطر إلا على حلال، مستقلا منه، فبذلك يزكو الصيام. ولا يقبل امرأته في صومه، ولا يباشرها بظاهر جسمه، فإن ذلك إن لم يبطل صومه فإنه ينقصه، وتركه أفضل إلا لقوي متمكن مالك لإربه. وليقل نومه بالنهار

ليعقل صومه بعمارة الأذكار، وليجد مس جوعه وعطشه، وقد كانوا يتسحرون بـــالتمرتين والثلاث، وبالحبات من الزبيب والجرعة من الماء، ومنهم من كان يقضم من شـــعير دابتـــه التماساً لبركة السحور. وليكثر ذكر الله تعالى، وليقلل ذكر الخلـــق بلســـانه، وليســـقط الاهتمام بهم عن قلبه، فذلك أزكى لصومه، ولا يجادل ولا يخاصم، وإن شتم أو ضــــرب لم يكافىء على ذلك لأجل حرمة الصوم، ولا يهتم لعشائه قبل محل وقته، يقال أن الصائم إذا اهتم بعشائه قبل محل وقته، أو من أول النهار، كتبت عليه خطيئة، وليرض باليسير مما قسم له أن يفطر عليه، ويشكر الله تعالى عز وجل كثيرا عليه .

ومن فضائل الصيام التقلل من الطعام والشراب، وتعجيل الفطر وتأخير السحور، وليفطـــر على رطب إن كان، وإلا على تمر إن وجد فإنه بركة، أو على شربة من ماء فإنه طهـــور، هكذا روي عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، يفطر على جرعة من ماء أو مذقة مـــن لـــبن أو تمرات قبل أن يصلي. وفي الخبر: كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، قيل: هـــو الذي يجوع بالنهار، ويفطر على حرام، وقيل: هو الذي يصوم عن الحلال مـــن الطعـــام، ويفطر بالغيبة من لحوم الناس، وقيل: هو الذي لا يغض بصره، ولا يحفظ لسانه عن الآثام .

ويقال: إن العبد إذا كذب أو اغتاب أو سعى في معصية في ساعة من صومه خرق صـــومه، وإن صوم يوم يلفق له في صيام أيام حتى يتم بها صوم يوم ساعة ســـاعة. وفي الحـــديث: « الصوم جنة ما لم يخرقها بكذب أو غيبة » وكانوا يقولون الغيبة تفطر الصائم. وقد كـــانوا يتوضأون من أذى المسلم. وروى عن جماعة في الوضوء مما مست النار: لأن أتوضـــأ مـــن كلمة خبيثة أحب إلي من أن أتوضأ من طعام طيب. وروي عن بشر بن الحرث عن سفيان: من اغتاب فسد صومه، وروينا عن ليث عن مجاهد: خصلتان يفســـدان الصـــوم: الغيبـــة والكذب. وروي عن جابر عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : « خمس يفطرن الصائم: الكذب، والغيبة، والنميمة، واليمين الكاذبة، والنظر بشهوة » ويقال: إن من الناس من يكمل لـــه صوم رمضان واحد في عشر رمضانات، وفي عشرين، مثل سائر الفـــرائض مـــن الصـــلاة والزكاة التي يحاسب عليها العبد، فإن وجدت كاملة، وإلا تممت من سائر تطوعه. ويقال:

إن العبد يصح له صوم في خمسة أيام، كما يصح له صلاة واحدة بخمس صلوات ترقع له الأوقات. وفي الخبر: من اغتاب خرق صومه، فليرقع صومه بالاستغفار، ويقال: إن الله تعالى لم يفترض شيئاً فرضى بدونه، وأنه يطالب بما فرضه، ويحاسب على ما أوجبه، وعفو الله سبحانه وتعالى يأتي على كثير من الذنوب .

والمراد من الصيام مجانبة الآثام لا الجوع والعطش، كما ذكرناه من أمر الصلاة، أن المراد بها الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، كما قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: « من لم يترك قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يترك طعامه وشرابه » .

الركن الخامس: الحج

قد تقدم ما يتعلق به من الأحكام والشروط، مفصلا فيه فرائضه وواجباته وسننه، بتفصيل يمكن للطالب أن يرجع إليه في كتاب: (أصول الوصول) [1] وأريد بعناية الله وحسن توفيقه أن أشرح جملا من فضائله وآدابه، وعمل السلف الصالح في الحج، رضوان الله عليهم أجمعين .

فضائل الحج وآدابه :

فضائل الحج وآدابه وهيئاته، وفضائل الحجاج، وطريق السلف السالكين للمنهاج، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ البقرة: ١٩٧ يعني من أوجبه على نفسه في هذه الأشهر فأحرم به، وهو شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ البقرة: ١٩٧. الرفث: اسم جامع لكل لغو وخنى وفجر من الكلام، ومغازلة النساء وملاعبتهن، والتحدث في شأن الجماع، والفسوق: جمع فسق، وهو اسم جامع لكل خروج من طاعة، ولكل تعدي حد من حدود الله تعالى، والجدال: وصف مبالغ للخصومة والمراء فيما يورث الضغائن، وفيما لا نفع فيه.

---

(١) راجع أيضاً كتاب: (هداية السالك إلى علم المناسك) للإمام المجدد .

فهذه ثلاثة أسماء جامعة مختصرة لهذه المعاني المثبتة أمر الله تعالى بتنزيه شعائره ومناسكه منها، لأنها مشتملة على الآثام، وهن أصول الخطايا والإجرام .

والحج في اللغة هو القصد إلى من يعظم، وكانت العرب تقول: نحج إلى النعمان، أي: نقصده تعظيما له وتعزيزاً، فينبغي أن يكون الحاج معظماً لمن قصده بالحج، ليتحقق بمعنى هذا الاسم، والحج أيضاً سلوك الطريق الواضح، الذي يخرج إلى البغية، ويوقف على المنفعة، واشتقاقه من المحجة بمنزلة النسك، وهو اسم للطريق مشتق من المنسك، وهو من أسماء الطريق، وإن كان أصله المذبح، ومنه سمي الناسك، لأنه سالك لطريق الآخرة .

فأول فضائل الحج حقيقة الإخلاص به لوجه الله تعالى، وأن تكون النفقة حلالا، واليد فارغة من تجارة تشغل القلب وتفرق الهم، ويكون الهم مجردا، والقلب ساكنا مطمئنا، مملوءا بالذكر فارغا من الهوى، ناظرا أمامه، غير ملتفت إلى ورائه، وصحة القصد بحسن الصدق، ثم طيب النفس بالبذل والإنفاق والتوسع في النفقة والزاد، وبذل ذلك لأن النفقة في الحج بمنزلة النفقة في سبيل الله تعالى، الدرهم بسبعمائة درهم، والحج من سبيل الله، روي ذلك عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وقال ابن عمر وغيره: من كرم الرجل طيب زاده في سفره، وكان يقول: أفضل الحجاج أخلصهم نية، وأزكاهم نفقة، وأحسنهم يقينا. وفي حديث ابن المنكدر، عن جابر عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) وقال: سئل رسول الله ﴿ﷺوآله﴾: ما بر الحج ؟ قال: « طيب الكلام وإطعام الطعام » . ويقال إنما سمي سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، وبعضهم يقول: يسفر عن صفات النفس وجوهرها، إذ ليس كل من حسنت صحبته في الحضر، حسنت صحبته في السفر، وقال رجل لآخر إنه يعرفه، فقال له: هل صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا، قال: ما أراك تعرفه. ولا يجادل ولا يخاصم ولا يكثر المراء ولا يرفث بلسانه، وروينا عن بشر ابن الحرث قال: قال سفيان: من رفث فسد حجه .

وليتعلم أحكام المناسك ومعالم الحج وهيئاته، وآداب المشاهد قبل الخروج، وليكن ذلك أهم شيء إليه، وليقدمه على جميع أسباب السفر، فإن هذا هو المقصود والبغية، وليعد له

رفيقا صالحا عالما محبا للخير معينا عليه، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن جبن شجعه، وإن عجز قواه، وإن أساء ظنه وضاق صدره وسع صدره وصبَّره، وحسَّن ظنه، ولا يخالف رفيقه، ولا يكثر الاعتراض عليه .

وليحسن خلقه مع جميع الناس، ويلين جانبه، ويخفض جناحه، ويكف أذاه عن الخلق، ويحتمل أذاهم، فبهذه المعاني يفضل الحج، وإن يحج على رحل أو زاملة، فإن ذلك حج المتقين، وطريق السلف، يقال: حج الأبرار على الرحال. وحدث سفيان الثوري عن أبيه قال: برزت من الكوفة إلى القادسية للحج، ووافيت الرفاق من البلدان، فرأيت الحاج كلهم على زوامل وجوالقات ورواحل، وما رأيت في جميعهم إلا محملين، وقال مجاهد لابن عمر وقد دخلت القوافل: ما أكثر الحجاج، فقال: ما أقلهم، ولكن قل ما أكثر الراكب، قال: وكان ابن عمر إذا نظر إلى ما أحدث الحاج من الزوامل والمحامل يقول: الحاج قليل والركب كثير، ثم نظر إلى رجل مسكين ، رث الهيئة خفيف المؤنة، متقللا من كل شيء، لا يحمل معه من الزاد إلا ما لابد له منه مما يحتاج إليه، ولا يسرف في المبالغة والتناهي فيه، ولا يقتر ولا يضيق على نفسه ورفيقه، بل يستعمل الاقتصاد في كل شيء والكفاية، ويجتنب من الزي الحمرة فإن ذلك مكروه. وروي عن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه كان في سفر فنزل أصحابه منزلا فسرحت الإبل، فنظر إلى أكسية حمر على الأقتاب فقال: « أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم » قال: فقمنا نتساعى حتى نزعناها عن ظهورها، حتى شرد بعض الإبل .

ثم ليتجنب من الزي الشهرة، وكل منظور إليه من الأثاث، ولا يتشبه بالمترفين، ولا بأهل الدنيا من أهل التفاخر والتكاثر، فيكتب من المتكبرين، ولا يكثر التنعم والرفاهة، فإن ذلك غير مستحب في سبيل الله تعالى، لأن المشقة والظمأ والمخمصة واللأواء كلما كثر في سبيل الله كان أفضل وأثوب. حج رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على راحلة، وكان تحته رحل رث، وقطيفة خلقة، قيمته أربعة دراهم، وطاف على الراحلة لينظر الناس إليه، ويهتدوا بشمائله، وقال عليه الصلاة والسلام: « خذوا عني مناسككم » وكان يقول: « لبيك اللهم لبيك، حجا لا رياء فيه ولا سمعة » وقال: « لبيك إن العيش عيش الآخرة » .

وأمر ﷺبالشعث والاختفاء، ونهى عن التنعم والرفاهة، في حديث فضالة بـــن عبيـــد. وفي الخبر: « إنما الحاج الشعث التفل يقول الله تعالى لملائكته: انظروا إلى زوار بيتي قد جـــاءوني شعثا غبرا من كل فج عميق » وقال الله عز وجل: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾ الحـج: ٢٩ التفث: الشعث والاغبرار، وقضاؤه حلق الرأس وقص الأظفار. وكتب عمر بن الخطـــاب إلى أمراء الأجناد: اخلولقوا واخشوشنوا، أي: ألبسوا الخلقان واستعملوا الخشـــونة مـــن الأشياء، وبعض أصحاب الحديث يصحف هذه الحروف يقول: احلولقوا من الحلـــق، ولا يجوز أن يأمرهم بإسقاط سنة، كيف وقد قال لصبيغ حين توسم فيـــه مـــذهب الخـــوارج: اكشف رأسك، فرآه ذات ضفيرتين، فقال: لو كنت محلوقا لضربت عنقك، ولينح مثـــال أهل اليمن في الزي والأثاث، فإن الاقتداء بهم والاتباع لشمائلهم في الحج طريقة السلف .

على ذلك الهدي والوصف كان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه، ومن عـــدا وصـــفهم وخالف هديهم فهو محدث ومبتدع، ولهذا المعنـــى قيل: زين الحجيج أهل اليمن لأنهم على منهاج الصحابة وطريقة السلف، وقيل في مدحهم بالتقلل والانفراد: لا يغلون ســـعرا ولا يضيقون طريقا. وقد كان العلماء قديما إذا نظروا إلى المترفين قد خرجوا إلى مكة يقولـــون: لا تقولوا خرج فلان حاجا، ولكن قولوا خرج مسافرا، ويقال أن هذه المحامـــل والقبـــاب أحدثها الحجاج بن يوسف، فركب الناس سنته، وقد كان العلمـــاء في وقتـــه ينكرونهـــا ويكرهون الركوب فيها .

وأخاف أن بعض ما يكون من تماوت الإبل يكون ذلك سببه لثقل ما يحمل، ولعلـــه عـــدل أربعة أنفس وزيادة مع طول الشقة وقلة الطعام. وينبغي أن يقلل من نومه على الدابة، فإنه يقال إن النائم يثقل على البعير، وقد كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا من قعود يغفون غفوة بعد غفوة، وكانوا أيضا لا يقفون عليها الوقوف الطويل لأن ذلك يشق عليها، وفي الحديث: « لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي » ولا يحمل على الدابة المكراة إلا مـــا قاض عليه الجمال أو ما أعلمه به، وقال رجل لابن المبارك: احمل لي هذا الكتـــاب معـــك، فقال: حتى أستأمر الجمال فإني اكتريت. ولينزل عن دابته غدوة وعشية، يروحها بـــذلك

ففيه سنة وآثار عن السلف، وقد كان بعض السلف يكتري لازما، ويشترط أن لا يترل، ثم أنه يترل للرواح، ليكون ما فارقه عن الدابة من حسناته محتسبا له في ميزانه .

وبعض علماء الظاهر يقول: إن الحج راكبا أفضل، لما فيه من الإنفاق والمؤنة، ولأنه أبعد لضجر النفس، وأقل لأذاه، وأقرب لسلامته وتمام حجه، فهذا عندي بمترلة الإفطار، يكون أفضل إذا أساء عليه خلقه، وضاق به ذرعه، وكثر عليه ضجره، لأن حسن الخلق وانشراح الصدر أفضل، وقد يكون كذلك لبعض الناس دون بعض، ممن يكون حاله الضجر ووصفه التسخط وقلة الصبر، أو لم يمكن المشي .

وسألت بعض فقهائنا بمكة – وكان ورعا – عن تلك العمر التي تعتمر من مكة إلى التنعيم، وهو الذي يقال له مسجد عائشة وهو ميقاتنا للعمرة في طول السنة، أي ذلك أفضل المشي في العمرة، أو يكتري حمارا بدرهم يعتمر عليه؟ فيقال: يختلف ذلك على قدر شدته على الناس، فإن كان إنفاق الدرهم أشد عليه من المشي، فالاكتراء أفضل لما فيه من إكراه النفس عليه وشدته عليها، ومن كان المشي عليه أشق، فالمشي أفضل لما فيه من المشقة، ثم قال: هذا يختلف لاختلاف أحوال الناس من أهل الرفاهية والنعمة، فيكون المشي عليهما أشد. وعندي أن الاعتمار ماشياً أفضل، وكذلك الحج ماشيا لمن أطاق الحج ولم يتضجر به وكان له همة وقلب .

وقد روينا في خبر من طريق أهل البيت: « إذا كان في آخر الزمان خرج الناس للحج أربعة أصناف: سلاطينهم للترهة، وأغنياؤهم للتجارة، وفقراؤهم للمسألة، وقراؤهم للسمعة » ويكره أخذ الأجرة على الحج، فيجعل نصيبه وعناه لغيره ملتمساً عرض الدنيا، وقد كره ذلك بعض العلماء، ولأنه من أعمال الآخرة، ويتقرب به إلى الله يجري مجرى الصلاة والأذان والجهاد، فلا يأخذ على ذلك أجراً إلا في الآخرة. وقد قال رسول الله ﷺ وآله﴾ لعثمان بن أبي العاص: « واتخذ مؤذنا لا يأخذ على الأذان أجراً » . وسئل عن رجل خرج مجاهداً فأخذ ثلاثة دنانير فقال: « ليس له من دنياه وآخرته إلا ما أخذ » فإن كان نية عبد الآخرة أو همته المجاورة واضطر إلى ذلك، فإن الله تعالى قد يعطي الدنيا على نية

الآخرة، ولا يعطي الآخرة على نية الدنيا، رجوت أن يسعه ذلك. وفي الخبر: يؤجر على الحجة الواحدة ثلاثة، ويدخلون الجنة: الموصي بها، والمنفذ للوصية، والحاج الذي يقيمها، لأنه ينوي خلاص أخيه المسلم، والقيام بفرضه. وقد جاء: مثل المجاهد الذي يأخذ أجرا على جهاده، مثل أم موسى يحل أجرها، وترضع ولدها، هذا إذا كانت نيته الجهاد، واحتاج إلى معونة عليه، كذلك من كانت نيته في حجه الآخرة، والتقرب إلى الله تعالى بالطواف والعمرة بعد قضاء ما عليه ولن يضره أخذ الأجرة على حجه إن شاء الله تعالى .

ومن فضائل الحج: أن لا يقوي أعداء الله الصادين عن المسجد الحرام بالمال، فإن المعونة والتقوية بالمال تضاهى المعونة بالنفس، والصد عن المسجد الحرام يكون بالمنع والإحصار، ويكون بطلب المال، فليحتل في التخلص من ذلك، فإن بعض علمائنا كان يقول: ترك التنفل بالحج والرجوع عنه، أفضل من تقوية الظالمين بالمال، لأن ذلك عنده دخيلة في الدين، ووليجة في طريق المؤمنين، وإقامة وإظهار لبدعة أحدثت من الآخذ والمعطي. وهذا كما قال لأنه جعل بدعة سنة، ودخولا في صغار وذلة ومعاونة على وزر أعظم في الحرم من تكلف حج نافلة قد سقط فرضه، كيف وفي ذلك إدخال ذلة وصغار على الإسلام والمسلمين مضاهاة للجزية .

وقد روينا عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: « كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام، فإن ترك المسلمون فاشدد، لئلا يؤتى الإسلام من قبلك » وفي الخبر المشهور: « المسلمون كرجل واحد، ومثل المسلم من المسلمين كمثل الرأس من الجسد، يألم الجسد لما يألم الرأس، ويألم الرأس لما يألم الجسد » .

وقد يترخص القائل في ذلك بتأويل أنه مضطر إليه، وليس كما يظن، لأنه لو رجع لما أخذ منه شيء، ولو خرج في زي المترفين مما أحدث من المحامل لما أخذ منه شيء، فقد زال الإضرار وحصل منه بالطوع والشهوة والاختيار، ولعل هذا الذنب عقوبة ما حملوا على الإبل فوق طاقتها من البيوت المسقفة التي علوها عليها. كان البعير يحمل الرجل ورحله، فجعلوه يحمل مقدار أربعة وزيادة، فأدى ذلك إلى تلفها، فهم مطالبون بقتلها، لأن من حمل

بعيرا فوق طوقه حوسب بذلك أو طولب، أو لعله ذنب ما خرجوا بـه مـن التجـارات وفضول الأسباب، وشبهات الأموال، أو لسوء النيات وفساد المقاصـد، وروينـا أن أبـا الدرداء قال لبعير له في الموت: يا أيها البعير، لا تخاصمني إلى ربك، فإني لم أكن أحملك فوق طاقتك. وقد يعاقب الله على الذنب بذنب مثله أو فوقه .

وينبغي أن يكون في المشاعر والمناسك أشعث أغبر فإنه سنة، ويكثر ذكـر الله في طريقـه وجميع مناسكه، ويذكر به الغافلين، ويقل ذكر الناس، ويلزم الصمت فيمـا لا يعنيـه، ولا يتكلف ما قد كفى، ولا يدخل فيما لم يكلف، وإن رأى موضعاً للمعروف أمر به، أو منكرا نهى عنه .

فهذه المعاني تضاعف أمر الحج، وتفضل الحجاج، واستحب أن يقرن بين حجة وعمرة مـن ميقاته، لأن فيه إيجاب هدي يقربه، وليكون جامعا بين نسكين من ميقات بلده ويكون قـد أتى بالعمرة، لأنها مقرونة بالحج في الكتاب، ولأن مذهب كثير من العلماء أنهـا فريضـة كالحج، وجماعة من السلف كانوا يستحسنون الابتداء بالعمرة، وتقديمها على الحج، منهم الحسن وعطاء وابن سيرين والنخعي. وقد روي أن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ جمع بينهما، وأهلَّ بهما معاً، في حديث أنس عن شقيق بن سلمة عن الضبي بن معبد قال: أردت الغزو فأشـار عليَّ رجل من أهل العلم أن أبدأ بالحج، فاستشرت رجلا من أهل الفقه، فأمرني أن أجمـع بين حج وعمرة جميعاً، فأنشأت ألبيِّ بهما حتى قدمنا على عمر فأخبرته بالذي فعلت، فقال: هديت لسنة نبيك .

وإن قدم العمرة فحج متمتعاً، ثم أفرد الحج بعدها من عامه فهو أفضل، وهذا اختيار جماعة من العلماء .

وإن حج مفردا، كما روي عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أنه أفرد الحج، فيما روينـا عـن عائشة وجابر، وإذا فرغ من حجه رجع إلى ميقات بلده فاعتمر من هناك فحسن، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ البقرة: ١٩٦ فإفرادهما من إتمامهما، وهذا قول عمر

وعثمان في الإتمام ولطيف لقرانه، ويسع طوافين وسعيين، ليخرج بذلك من اختلاف العلماء جميعهم .

وليكثر العبد من التلبية في حال إحرامه، فهي من أفضل الأذكار فيه، وليرفع بها صوته، وإن قال في تلبيته: لبيك يا ذا المعارج لبيك حجا حقا تعبدا ورقاً والرغباء إليك والعمل. فقد روي هذا عن الصحابة، وإن اقتصر على تلبية رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فحسن، وفيها كفاية وبلاغ .

وأحب أن يذبح وإن لم يجب عليه، ويجتنب الأكل من ذبح ما كان واجباً عليه، مثل نسك قران أو متعة أو كفارة. واستحب أن يأكل مما لم يكن عليه واجباً، وليتجنب المعايب الثمانية في ذبيحته التي وردت بها الآثار، وكذلك في الأضحية، فقد نهى أن يضحى بالجدعاء والعضباء والجرباء، ونهى عن الشرقاء والخرقاء والمقابلة والمدابرة والعجفاء التي لا تنقى يعني المهزولة. وهذا جميع ما جاء به في عيوب الأضاحي بأخبار متفرقة، فالجدع في الأنف والأذن والقطع فيهما، والعضب الكسر في القرن وفي نقصان القوائم، والجرباء من الجرب، والشرقاء من المشقوقة الأذن من فوق، والخرقاء المشقوقة من أسفل، والمقابلة المخروقة الأذن من قدام، والمدابرة المخروقة من خلف، والتى لا تنقي المهزولة التي لا نقى لها والنقي هو المخ. وقد روينا في تفسير قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ الحج: ٣٢ قيل: تسمين الهدي وتحسينه. وأفضل الهدي بدنة ثم بقرة ثم كبش أقرن أبيض، ثم الثني من المعز، وإن ساق هديه من الميقات فهو أفضل، من حيث لا يجهده ولا يكده. وقد كانوا يغالون بثلاث، ويكرهون المكاس فيهن الهدي والأضحية والرقبة، فإن أفضل ذلك أغلاه ثمنا، وأنفسه عند أهله، وفي حديث عمر أن عمر أهدى نجيبة فطلبت منه بثلاثمائة دينار، فسأل النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يبيعها ويشتري بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك، وقال: « بل أهدها » فهذه سنة في تخير الهدي، وحسن الأدب في المعاملة، وترك الاستبدال بها طلباً للكثرة، لأن القليل الجيد خير من الكثير الدون، وإن في ثلاثمائة دينار قيمة ثلاثين، فكان الخالص الحسن كافياً من الكثير المتقارب .

وفى حديث ابن المنكدر عن جابر: سئل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: ما بر الحج؟ قال: « العج والثج » فالعج: هو رفع الصوت بالتلبية، والثج: هو نحر البدن. وفي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها، عن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾: « ما عمل آدمي يوم النحر عملا أحب إلى الله عز وجل من إهراق دم، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها، فإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع بالأرض، فطيبوا بها نفساً » وفي الخبر: لكم بكل صوفة من شعرها، وبكل قطرة من دمها حسنة، وإنها لتوضع في الميزان فأبشروا. ولا يضحى بجذع إلا من الضأن فقط، وهو ما كان في آخر حوله، وبالثني من المعز والبقر والإبل، فالثني من المعز ما دخل في السنة الثانية، والثني من البقر ما دخل في الثالثة، والثني من الإبل ما دخل في السنة الخامسة .

وإن أحرم من بلده فقد قيل إنه من إتمام الحج والعمرة، ومن عزائم الأعمال، روينا عن عمر وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ البقرة: ١٩٦ قالوا: إتمامها أن تحرم بهما من دويرة أهلك. ولتكن حاضر القلب في مشاهد القرب عند المواطن المرجو فيها الإجابة، وفي المشاهد المبتغي منها المنفعة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم ﴾ الحج: ٢٨.

ويستحب له أن يمشي في المشاعر من حين يخرج من مكة إلى أن يقف بعرفة، وإلى أن يرجع من طواف الزيارة إلى مني، ومن استحب للحاج الركوب، فإنه يستحب له المشي إلى مكة في المناسك إلى انقضاء حجه، ولأن عبد الله بن عباس أوصى إلى بنيه عند موته فقال: يا بني حجوا مشاة، فإن للحاج الماشي بكل قدم يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم، قيل: وما حسنات الحرم؟ قال: الحسنة بمائة ألف، وأوكدها ما مشي فيه من المناسك وأفضله من مسجد إبراهيم ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى الموقف، ومن الموقف إلى المزدلفة في الإفاضة، ومن المشعر الحرام غداة النحر إلى منى، وفي أيام رميه الجمار .

وصومه يوم عرفة فيه فضل، إن قوي معه على الدعاء والتلبية، ولم يقطعه الصوم عن ذلك، فإن أضعفه فالفطر أفضل، ولم يصمه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعرفة، ولا أبو بكر ولا عمر، وصامه عثمان رضي الله عنه وعنهم .

وليعتبر في طريقه وسيره بالآيات، وما يرى من الحكمة والقدرة من تصريف الخلق، وما يحدث الله تبارك وتعالى في كل وقت، فيكون له في كل شيء عبرة ومن كل شيء موعظة، فإنه على مثال طريق الآخرة، وليكن له بكل شيء تذكرة، وفي كل شيء فطنة وتبصرة، ترده إلى الله تعالى وتدله عليه، وتذكره به ويشهده منها، فيتفكر في أمره، ويستدل به على حكمته، ويشهد منه قدرته .

وسئل الحسن: ما علامة الحج المبرور، فقال: أن يرجع العبد زاهدا في الدنيا، راغبا في الآخرة، وقيل في وصف الحج المبرور: هو كف الأذى، واحتمال الأذى، وحسن الصحبة، وبذل الزاد ويقال: إن علامة قبول الحج ترك ما كان عليه العبد من المعاصي، والاستبدال بإخوانه البطالين إخوانا صالحين، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة، فمن وفق للعمل بما ذكرناه فهو علامة قبول حجه، ودليل نظر الله إليه في قصده .

ومن أصيب بمصيبة في نفسه وماله، فهو من دلائل قبول حجه، فإن المصيبة في طريق الحج تعدل النفقة في سبيل الله تعالى، الدرهم بسبعمائة درهم، وبمثابة الشدائد في طريق الجهاد .

ويستكثر من الطواف بالبيت، لأنه يستوعب بطواف أسبوع مائة وعشرين رحمة، يكون بكل رحمة ما شاء الله لأنه سبحانه: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ البقرة: ١٠٥ وأقل ماله بكل رحمة عشر حسنات، لأن في حديث عطاء ابن عباس عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: « ينزل الله على هذا البيت في كل يوم مائة وعشرين رحمة، ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين» وفي الحديث: « استكثروا من الطواف بالبيت، فإنه من أثقل شيء تجدونه في صحفكم يوم القيامة، وأغبط عمل تجدونه » .

ولا تتحدث في طوافك، وعليك بكثرة ذكر الله سبحانه وتعالى مــن التســبيح والتــهليل والحمد وتلاوة القرآن، وامش بسكينة ووقار وخشوع وانكسار، ولا تزاحمن أحداً، واقرب من البيت ما أمكن، واستلم الركنين اليمانيين مع تقبيل الحجر في كل وتر من طوافــك إن أمكن، وقد روينا في الخبر: من طاف بالبيت حافيا حاسراً كان له كعتق رقبة، ومن طــاف أسبوعا في المطر غفر له ما سلف من ذنوبه، روى ذلك عن الحسن ابن علي قاله لأصــحابه ورفعـــــــــــــــــــه إلى رســـــــــــــــــــــول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

واتق الهمة الرديئة والأفكار الدنيئة، فيقال: إن العبد يؤاخذ بالهمة في ذلك البلد، وعن ابن مسعود: ما من بلد يؤاخذ العبد فيه بالإرادة قبل العمل إلا بمكة، وقال أيضاً: لو هم العبد أن يعمل سوءا بمكة عاقبه الله تعالى ثم تــلا: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الحج: ٢٥ يعني أنه علق العذاب بالإرادة دون الفعل، ويقال إن السيئات تضــاعف بمكة كما تضاعف الحسنات، وأن السيئات التي تكتسب هنالك لا تكفر إلا هنالك، وكان ابن عباس يقول: الاحتكار بمكة من الإلحاد في الحرم، وقيل: الكذب فيه من الإلحاد .

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لأن أذنب سبعين ذنبا بركية أحب إلي مــن أن أذنب ذنبا واحدا بمكة، وركية مترلة بين مكة والطائف. وقد كان الورعون مــن الســلف منهم عبد الله بن عمر، وعمر بن عبد العزيز وغيرهما، يضرب أحدهم فسطاطا في الحــرم، وفسطاطا في الحل، فإذا أراد أن يصلي أو يعمل شيئا من الطاعات، دخل فسطاط الحــرم، ليدرك فضل المسجد الحرام لأن المسجد الحرام عندهم في جميع ما يذكر إنما هو الحرم كله، وإذا أراد أن يأكل أو يكلم أهله أو يتغوط، خرج إلى فسطاط الحل. ويقال: إن الحجاج في سالف الدهر كانوا إذا قدموا مكة خلعوا نعالهم بذي طوى تعظيما للحرم، وكان بعضهم لا يتغوط ولا يبول حتى يخرج إلى الحل تعظيما لشعائر الله تعالى وتتريها لحرمه وأمنه .

وأعمال البر كلها تضاعف بمكة، والحسنة بمائة ألف حسنة، على مثال الصلاة في المسجد الحرام، روى معنى ذلك عن ابن عباس وأنس، وعن الحسن البصري: أن صوم يوم بمائة ألف، وصدقة درهم بمائة ألف درهم. ويقال: إن طواف سبعة أسابيع تعدل عمرة، وإن ثلاث عمر تعدل حجة، وإن العمرة هي الحجة الصغرى. وهذا في دليل الخطاب من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ التوبة: ٣ فدل أن الحج الأصغر هو العمرة. ومن العرب من يسمي العمرة حجاً، وفي الخبر: عمرة في رمضان تعدل حجة، فمن وفق للعمل بما ذكرناه فهو علامة قبول حجة، ودليل نظر الله إليه في قصده .

فضائل الحج والحاجين لوجه الله تعالى :

روينا عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أنه قال: « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » وفي حديث آخر: « من خرج من بيته حاجا أو معتمراً فمات، أجري له أجر الحاج والمعتمر إلى يوم القيامة، ومن مات في أحد الحرمين لم يعرض ولم يحاسب، وقيل له ادخل الجنة » وروي في الخبر: « حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها، وحجة مبرورة ليس لها جزاء إلا الجنة » وفي الحديث: « الحجاج والعمار وفد الله تعالى وزواره إن سألوه أعطاهم، وإن استغفروا غفر لهم، وإن دعوه استجاب لهم، وإن شفعوا شفعوا » .

وذكر بعضهم أن إبليس ظهر له في صورة شخص يعرفه فإذا هو ناحل الجسم، مصفر اللون، باكي العين، مقصوم الظهر فقال له: ما الذي أبكى عينيك؟ فقال: خروج الحاج إليه بلا تجارة، أقول قصدوه أخاف أن يجيبهم فيحزنني ذلك، قال: فما الذي أنحل جسمك؟ قال: صهيل الخيل في سبيل الله تعالى، ولو كانت في سبيلي كان أحب إليَّ. قال: فما الذي غيَّر لونك؟ قال: تعاون الجماعة على الطاعة، ولو تعاونوا على المعصية كان أحب إلي، قال: فما الذي قصم ظهرك؟ قال: قول العبد أسألك حسن الخاتمة، أقول: يا ويلتي متى يعجب هذا بعمله، أخاف أن يكون قد قبله .

ولقي رجل ابن المبارك وقد أفاض من عرفة إلى مزدلفة فقال: من أعظم الناس جرماً يا أبا عبد الرحمن في هذا الوقت؟ فقال: من قال إن الله عز وجل لم يغفر لهؤلاء. وقد روينا حديثاً مسنداً من طريق أهل البيت: « أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظن أن الله عز وجل لم يغفر له » ويقال: من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة، وقد رفعه جعفر بن محمد فأسنده، ويقال: إن الله عز وجل إذا غفر لعبد ذنبا في الموقف غفره لكل من أصابه في ذلك الموقف .

وزعم بعض السلف: إذا وافق يوم عرفة يوم جمعة، غفر لكل أهل الموقف، وهو أفضل يوم في الدنيا، وفيه حج رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حجة الوداع، ولم يحج بعد نزول فرض الحج غيرها، وعليه نزلت هذه الآية وهو واقف بعرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ المائدة: ٣ وقال علماء أهل الكتاب: لو أنزلت علينا هذه الآية لجعلنا يومها عيداً، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أشهد لقد أنزلت في يوم عيدين اثنين، يوم عرفة، ويوم جمعة، على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو واقف بعرفة .

وقد روينا في تفسير قوله تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ الحج: ٢٨ عن جماعة من السلف قال: غفر لهم ورب الكعبة. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ الأعراف: ١٦ قال: طريق مكة يصدهم عنهم. وقال بعضهم إن الحجاج إذا قدموا مكة تلقتهم الملائكة، فسلموا على ركبان الإبل، وصافحوا ركبان الحمير، واعتنقوا المشاة اعتناقاً. وقال الحسن: من مات بعقب شهر رمضان، أو بعقب غزو، أو بعقب حج، مات شهيداً. وقال عمر رضي الله تعالى عنه: الحاج مغفور له ولمن استغفر له شهر ذي الحجة والمحرم وصفر وعشرين من ربيع الأول، وقد كان من سنة السلف أن يشيعوا الغزاة، وأن يستقبلوا الحاج، ويقبلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء لهم، وفي الخبر: اللهم أغفر للحاج، ولمن استغفر له الحاج .

وحدثونا عن علي بن الموفق قال: حججت سنة، فلما كان ليلة عرفة بت بمنى في مسجد الخيف، فرأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء، عليهما ثياب خضر فنادى أحدهم صاحبه: يا عبيد الله، فقال الآخر: لبيك يا عبد الله، قال: تدري كم حج بيت ربنا في هذه السنة؟ قال: لا أدري، قال: حج بيت ربنا ستمائة ألف، فتدري كم قبل منهم؟ قال: لا، قال: قبل منهم ست أنفس، قال: ثم ارتفعا في الهواء فغابا عني، فانتبهت فزعا، فاغتممت غما شديدا، وأهمني أمري، فقلت: إذا قبل حج ست أنفس فأين أكون أنا من ست أنفس؟ فلما أفضنا من عرفة وبت عند المشعر الحرام، جعلت أفكر في كثرة الخلق، وفي قلة من قبل منهم فحملني النوم فإذا الشخصان قد نزلا من السماء على هيئتهما، فنادى أحدهما يا عبد الله، قال: لبيك يا عبد الله، قال: تدري كم حج بيت ربنا؟ قال: نعم ستمائة ألف، قال: فتدري كم قبل منهم؟ قال: نعم ست أنفس، قال: فتدري ماذا حكم ربنا في هذه الليلة؟ قال: لا، قال: فإنه وهب لكل واحد من الستة مائة ألف، قال: فانتبهت وبي من السرور ما يجل عن الوصف .

ذكر في هذه القصة ستة، ولم يذكر السابع، وهؤلاء هم الأبدال السبعة، أوتاد الأرض المنظور إليهم كفاحا، ثم ينظر إلى قلوب الأولياء من وراء قلوبهم، فأنوار هؤلاء عن نور الجلال، وأنوار الأولياء من أنوارهم، وأنصبتهم وعلومهم من أنصبة هؤلاء وعلومهم. فلم يذكر السابع وهو قطب الأرض، والأبدال كلهم في ميزانه، ويقال:إنه هو الذي يضاهي الخضر من هذه الأمة في الحال، ويجاريه في العلم، وأنهما يتفاوضان العلم، ويجد أحدهم المزيد من الآخر، فإنما لم يذكر والله أعلم، لأنه يوهب له من مات ولم يحج من هذه الأمة، لأنه أوسع جاها من جميعهم، وأنفذ قولا في الشفاعة من الجملة .

وقد روينا عن ابن الموفق قال: حججت سنة فلما قضيت مناسكي، تفكرت فيمن لا يتقبل حجه، فقلت: اللهم إنني قد وهبت حجتي هذه، وجعلت ثوابها لمن لا يتقبل حجه، قال: فرأيت رب العزة في النوم قال لي: يا علي تتسخى عليَّ وأنا خلقت السخاء، وخلقت الأسخياء وأنا أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأحق بالجود والكرم من العالمين، وقد

وهبت كل من لم يقبل حجه لمن قبلته. وكان ابن الموفق هذا قد حج عن رسـول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حججا، وقال: فرأيت النبي ﴿ﷺ وآله﴾ فقال: « يا ابن الموفق حججـت عـني؟ قلت: نعم يا رسول الله، ولبيت عني؟ قلت: نعم، قال: فهذا يد لك عندي، أكافئك بها يوم القيامة، آخذ بيدك في الموقف، فأدخلك الجنة والخلائق في كرب الحساب » .

الفصل الثالث

الركيزة الثالثة: المعاملة

هي إما معاملة الله تعالى، أو معاملة خلقه. أما معاملة الخلق فإن الله سبحانه خلق الخلق محتاجا بعضهم إلى بعض، لا يمكن لواحد منهم أن يقوم بضروورياته، فضلا عن كمالياته، إلا بمساعدة كثير من بني جنسه، ليقوم كل واحد منهم بعمل للآخر. فكان من الحكمة وجود المبادلة، والمبادلة تؤدي إلى المفاوضة، وقد تؤدي المفاوضة إلى المعارضة، ولا تطمئن القلوب إلا بحكم الحكم العدل. فأنزل الله تعالى أحكام المعاملات في كتابه العزيز، وبيَّن لنا رسول الله ﴿ﷺوآله﴾ ذلك، فمن أراد أحكام البيع والشراء، والكفالة والحوالة، والرهن والشركة والإجارة، وغير ذلك، فليراجع ذلك في كتاب: (أصول الوصول) ولكني في هذا المختصر أحببت أن أبين فضائل المعاملة، ومعاملة السلف الصالح، ولما كانت معاملة الله سبحانه وتعالى قاصرة على علم القلوب، قد بينت ذلك في علوم اليقين، من كتاب: (أصول الوصول) فما بقي إلا أن أشرح فضائل المعاملة، فأقول وبالله التوفيق:

المعاملات وفضائل المعاملين :

المعاملة هي المقام العلي، الذي يتفاضل فيه المسلمون، ويتسابق فيه أهل النفوس العالية، لأنه نتيجة اليقين الكامل بالتوحيد الخالص من شوائب الشكوك، وأدران الحظوظ، ورين التقليد والعصبية، حتى أن الإنسان ليكون أقرب من الملائكة عند الله تعالى، وأحب إلى النفس عند العقلاء من إخوانه بحسن معاملته، وجميل أخلاقه، حتى يبلغ درجة من السعادة في الدنيا والآخرة لا يبلغها الشهداء .

وقد حصر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الدين في المعاملة حصرا حقيقيا، لأن الدين هو معاملة دائرة بين حقوق عليك لله تعالى، ولرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، ولوالديك وأهلك وأرحامك، وخاصة المسلمين وعامتهم، وجميع بني آدم، وجميع الحيوانات الحية. فما من رتبة في الوجود

إلا وأنت تطالبها بحق، وتطالبك بحق، فإذا حسنت معاملتك مع كل رتبة، كنت مسلما كامل الإسلام .

إذن فالدين المعاملة لا شك، وبها السعادة في الدنيا والآخرة. والمعاملة نتائج العقيدة، فإن العقيدة تحقق صاحبها بأن له إلها متصفا بجميع الجمالات والجلالات والكمالات، منفردا بالإرادة والمشيئة في إيجاد كل موجود، وإمداده بما به بقاؤه، وهو المقدر لكل شيء، وإليه يرجع كل شيء. فإذا تحقق في هذا راقبه في خلقه، وعامله في عباده، فلا يتحرك حركة، ولا يتنفس نفسا، إلا وهو ملاحظ عظمة هذا الرب الجبار المقدر المنفرد بالتقدير، فيجعل كل حركاته وسكناته فيما يرضيه، وبما به يفوز لديه بنعيم جزائه، فتحسن معاملته لكل كائن حي، ومراقبته للخالق .

نموذج من حسن المعاملة :

وإليك نموذج من حسن المعاملة: إذا تحققت أنك تساء إذا اغتابك آخر، أو سعى في مضرتك مالا أو جاها أو منزلة، أو استهان بك في حضورك أو غيبتك، وأنك بهذا تميل إلى الانتقام منه بحولك وقوتك بأكثر مما بلغك عنه، وتتلذذ بمضرته، وينشرح صدرك لذلك وتستحسنه، ولا تقبل نصيحة من ناصح فيه، فأحرى بك أن تمتنع عن أن تعمل في أخيك ما به يحصل له ما كان حاصلا لك. فإذا وقعت في مثل هذا فاعتقد أن أخاك له العذر، وبادر إليه معتذرا لتزيل ما به من نار الغيظ، واسع في معاملة الناس بما تحب أن يعاملوك به من المحافظة على النصيحة لهم بطريقتها الشرعية المألوفة للعقل والمروءة، واضعا نفسك موضع من تنصحه، وأنه هو الناصح لك، فتستعمل الدواء الذي تحب أن تستعمله لنفسك عند انحراف مزاجك. ولا تنس مراقبة الحق، والإخلاص لذاته سبحانه وتعالى في كل ذلك، حتى تفوز برضاء الله تعالى، ورضاء إخوانك، ورضاء الفضيلة .

وليس كل من صام وصلى وزكى وحج يكون كامل الإسلام حتى تكمل أخلاقه، وتطهر صفاته، وتزكو نفسه، فإن تلك الأعمال تنهى عن الفحشاء والمنكر لمن قام بها، عاملا بحقائقها، مراقبا في عملها مكانته من العبودية، ومكانة من قام بها لذاته العلية من الألوهية

والعظمة، والقدرة والعزة والقوة، منزهاً جنابه العلي عن العلة والغرض والشريك والمعاون، حتى يتحقق بمقام الخوف والخشية والرهبة من جلاله وكبريائه. وبذلك تتزكى نفسه، وتتهذب أخلاقه، وتحسن معاملته لجميع إخوانه والناس أجمعين. وإذا كانت المقدمات لا تنتج فهي على غير وجهها الذي وضعت له، وإذن لا تنتج في الآخرة .

وإن كثيرا من المسلمين في هذا الزمان، يتساهل في القيام بأركان الدين، مادام في عافية من الأمراض والفقر والخوف، بل تأخذه العزة بالإثم فيعتقد عقيدة قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ القصص: ٧٨ فيتكبر ويستهين بأعمال البر، ومكارم الأخلاق، ومعاملة ربه، ويزدري بالقربات، وبأهل التمسك بالدين، ويفتخر بأعمال الفجار، والمتهتكين وغيرهم، حتى إذا نزلت به نازلة المصائب، وفاجأته فاجئة البلايا: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ﴾ الزمر: ٨، وندم على ما فرط، وسعى لأهل الصلاح تائبا مبتهلا، وأقبل على الله سبحانه، ولكن قل أن ينفعه إقباله، لأنه مخادع كاذب في دعواه، وما رجع به إلى الله سبحانه إلا سوط النقمة، وبادرة البلية. فالعاقل من تقرب إلى الله في الرخاء، حتى يتقرب الله تعالى إليه في الشدائد. هذا وإن لم تبادره المصائب في حياته، واستدرجه الله سبحانه حتى غادرته منيته، وفاجأته المنون: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ الروم: ٥٧.

وكثير منهم من يكثر الصلاة والصيام وغيرهما، مع قيامه بمضرة إخوانه المسلمين، وانتقادهم وإساءتهم وإظهار عيوبهم بغير أسلوب النصيحة، ويبيت الليل والنهار بين غيبة ونميمة، وتنقيص المسلمين، وسعى في مضرة أفرادهم، ويحسب أنه يحسن عملا، مع أنه – والعياذ بالله – أشبه إبليس في علمه وعمله. وبحقك متى يكون المشابه لإبليس مسلما حقيقة ؟!.

فيا أيها المسلم: تحقق أن المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه، أتحسب أن الإسلام طهارة بالماء؟ الماء لا يطهر الخبائث النفسانية، ولا يزكي النفوس الشيطانية، ولا يكون المسلم مسلما إلا إذا أحب لأخيه ما يحب لنفسه، وبذلك يحسب مسلما حقا عدلا عند الله وعند عباده :

معـــالِمُ الســـير بعـــد يقـــين إيمـــان　　منها خفـــى ومـــا قـــد تشـــهد العينـــان

أمـــا الجلـــى فأعمـــال الجـــوارح قـــد　　وضـــحت معالُمهـــا بـــدليل تبيـــان

هـــي الصـــلاةُ صـــيامٌ والزكـــاةُ كـــذا　　والحـــجُّ والنطـــقُ بالتـــهليل بلســـان

ورحمـــةٌ لجميـــع الخلـــق عـــن عمـــل　　بـــالقول والفعـــل في عجـــز وإمكـــان

بـــرُّ الأقـــاربِ والأرحـــامِ وصـــلتهم　　بالمـــال والبشـــر أو بعلـــوم عرفـــان

ودُّ البعيـــد وإكـــرام الضـــيوف بـــه　　نيـــلُ القبـــول وإحســـان لجـــيران

وغضٌّ بصر عـــن الســـوآت حفـــظُ يـــدٍ　　عـــن الـــدنِىء وعـــن زور وبـــهتان

حفظُ اللسانِ عن القـــولِ القبـــيح وعـــن　　كشفِ الســـتائر عـــن قـــاصٍ وعـــن دان

لا تـــأكلَنَّ طعامـــاً تـــدر شـــبهتَه　　وازهـــد ففـــى تركـــه للمـــرء حصـــنان

والفـــرجَ فاحفظـــه لا تهتـــك محارمَـــه　　ففى الـــزنى مـــن نعـــيم كـــلُّ حرمـــان

واســـتحي مـــن عـــالمٍ يـــرآك مرتكبـــا　　تلـــك الفظـــائعَ وَاخْـــشَ حـــرَّ نـــيران

إيـــاك والقتـــل للـــنفس البريئـــة إذ　　فيـــه الخلـــود وفيـــه كـــل خســـران

ولا تَمُـــدَّنْ يـــدا للمـــال تأخـــذه　　إلا بحـــقٍّ بـــدا في نـــص فرقـــان

والأهلَ والصـــحبَ والإخـــوانَ تكـــرمهم　　بكـــل لطـــف ولا تظهـــر كشـــيطان

ومن تـــولاك مـــن خـــدم ومـــن حشـــم　　فـــراع جانـــبَ قهـــارٍ وســـلطان

واعلـــم بأنـــك عبـــدُ واجتنـــبْ ســـفهاً　　ودع حماقـــةَ مغـــرورٍ وغفـــلان

واحفظ مواهـــبَ مـــولاك الـــتي وُهبـــت　　بالفضـــلِ تحظـــى بإحســـانٍ ورضـــوان

واســـترع مـــا أنـــت ترعـــاه برحمـــةٍ　　فكـــلُّ حـــيٍّ لـــه حـــقٌ ببرهـــان

الحقوق ثلاثة

حق فيك، وحق عليك، وحق لك

١- الحق الذي فيك :

ولا يتسنى للإنسان أن يفى بما عليه وما له، إلا بعلم ما فيه، لأنهما لا زمان له، وناتجان عنه، وعلمه محظور على من ليس له قلب، لأنه علم بأسرار عالية، ومعان غيبية، وأنوار بالحس والحظ والشهوة والهوى محجوبة .

علم به التحقق بما أودع في العالم من الخواص والفوائد والفطر، وما امتاز به الإنسان من الفضل والإكرام، حتى سخر له كل كائن من عوالم الإمكان .

علم تنكشف به حقيقة النفس، وتصغر به خفيات الحكمة القدسية، وأسرار المعاني العلية، حتى يعرف الإنسان ما فيه من الحكم الربانية، وما أبدعته يد القدرة الإلهية، وجملته به من الصفات، وحلته به من الكمالات، حتى أفرغ في أجمل الصور، وظهر في أكمل هيئة، سميعاً مبصراً مفكراً عالماً قادراً مريداً عاقلاً قاهراً لما دونه، مسخراً كل شيء لإرادته، باحثا في كل شيء، مخترعا مبدعا يدرك ما غاب بما شهد، ويعلم ما احتجب بما ظهر .

علم: هو العلم، من جهله فهو دون مرتبة الحيوان الأعجم – وإن ملك الأرض وما فيها – لأنه بجهله لنفسه لم يملكها، ومن لا يملك نفسه كيف يملك غيره؟! وإنما مثاله كمرض قام بجسد قوي أرقده، فهو يعالج خلاصه منه، مع خضوعه له وإذلاله لحكمه، حتى إذا قوي وزال مرضه فارقه وهو عدو له في الحالين .

أما من علم هذا العلم، فإنه يملك نفسه، ومتى ملك نفسه، صار كل كائن خاضعاً له، مقتديا به منقادا لأوامره .

وهذا الحق الذي هو في الإنسان: سر الإيجاد والإمداد المفاض من الله سبحانه، لأن الإنسان إما عدم أو طين أو ماء مهين، فهذه المراتب لا يخرج عنها في الحقيقة، وما زاد عليها بفيض من المنعم المتفضل المبديء المعيد، بديع السموات والأرض، فلو كوشف بتلك الأسرار، وتحقق بما ظهر له فيه، كملت معانيه، وتيسرت أمانيه، وصار عبداً لخالقه وبارئه، ملكا حراً لا عبودة فيه لغير مولاه، الذي بمحض الفضل من العدم أنشأه ووالاه، وهذا الخفى الجلي، والنور الكامن المضيء، لا يظهر لطالبه الصادق، ولا يشهد لمريده المخلص، إلا ببيان المرشد الكامل بعد العلم والعمل والرياضة، وترك الحظ والأمل، لأنه حق مبين، ولكنه عليٌّ عن عقول العالمين .

٢- الحق الذي عليك :

إذا تحققت بما فيك، انكشف لك نور الحكمة في كل شيء، وعلمت مراتب الوجود، ونسبة كل مرتبة إلى موجد الوجود، فقمت عاملا لله سبحانه، قائما بتوفيقه في عمله سبحانه الذي أوجبه عليك، بعد العلم اليقيني بمعرفته سبحانه، وأنك عبد مكلف بتأدية ما أوجب .

عندها تتحقق أنك مطالب بالشكر للمنعم على نعم أسبغها، وبركات أولاها، ثم بالشكر لمن أوصل لك النعمة على يديه من غير مبادلة، بل بالقصد والتخصيص لك كوالديك، ومعلمي الخير، وأئمة المسلمين .

والشكر للمنعم سبحانه، بأن تخصه سبحانه بالعبادة دون غيره، وتراقب جنابه العلي في كل أحوالك، بالقيام بعمل ما كلفك به، وترك ما نهاك عنه، مخلصاً لذاته، صادقا في معاملاته .

وشكر غيره ممن أجرى النعمة لك على يدهم بالقصد منهم بدون مبادلة، هو الإحسان إليهم بما يمكنك من المكافأة أو الدعاء، والاتباع لنصائحهم، والتباعد عن مخالفتهم وأذيتهم، معاملة لمولاك، وصدقاً في عبادته، خصوصا بر والديك، وصلة أرحامك وأقاربك، والعناية بأهلك وأولادك، وإكرام جيرانك، والوفاء بالعهود، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام،

وحسن الأداء، وأداء الأمانة، والعطف على أهل البلايا، والرحمة بالمساكين، والشفقة على الفقراء، وغض البصر عن مساوئ الخلق، وترك غيبة من تستر عنك بذنوبه وسيئاته، والسعي بالصلح بين الناس، وأن يأمن جارك بوائقك، ودفع السيئة بالحسنة، والتواضع لجميع الخلق لله تعالى، وإلانة الجانب لهم، والإحسان إلى الجليس والمعاشر وإن أساءا، وأن لا يسمع منك جليسك إلا خيراً، وأن تصمت وتظهر الغضب إذا قال شرا في غيرك في مجلسك، حتى يعلم أنك تكره الشر من القول والعمل .

ولا تصعر خدك للناس، ولا تمش في الأرض مرحا، ولا تفتح على نفسك باب شر، فيشغلك عن عمل الخير، وإذا بليت بشرير: فإما أن تجتهد في أن تجمل أخلاقه إن كان قابلا وأهلا، أو تجتهد أن تحفظ نفسك منه إن كان مفطورا على الشر، باشتغالك عنه بعمل نافع من صلاة وذكر وقراءة قرآن، في أوقات فراغك، أو عمل نافع في أوقات عملك حتى يفارقك إذا لم يرك مشابهاً له في خلقه .

يجب عليك أن تعمر كل أوقاتك بما يناسبها من ذكر، أو شكر، أو عمل نافع، أو راحة لبدنك، وربما كان النوم أفضل من بعض النوافل مع الحمقى، هذا بعض ما يجب عليك، وهى كليات يمكنك أن تفهم بقية الجزئيات منها .

٣- الحق الذي لك :

الواجب لك على أخيك، هو عين ما يجب عليك له، فإن قام أخوك بالواجب عليه لك من نفسه، وقمت له بذلك من نفسك كنتما رفيقين في الجنة. وإن لم يقم لك بالواجب عليه، فقد نقصت فضيلته، وضاعت مروءته، وحرم ثواب الله تعالى، فقم أنت له بالواجب عليك له، ولا ترض لنفسك بتلك الرذائل والنقائص، ليكون لك الذكر الجميل في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة، وهذا نهج الصديقين، وطريق المقربين، وعمل المتقين، والله سبحانه وتعالى يوفقنا لما يرضيه، ويحفظنا مما يغضبه، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم آمين .

الفصل الرابع

الركيزة الرابعة : الأخلاق

أعلم – يا أخي – أن حسن الخلق والسيرة العادلة هما من أخلاق الملائكة، ولكن بعضها من جهة النفوس مركوزة فيها، وبعضها عادة جارية معتادة. وهكذا حكم خلق السوء والسيرة الجائرة، هما من أخلاق الشياطين، بعضها جبلة مركوزة في النفس، وبعضها عادة جارية، هي التي نشأ عليها الصبيان من الصغر ويتربون من الصغر عليها، ويأخذها الناس ممن تصحبه وتتربى معه من الآباء والأمهات والأخوة والإخوان والجيران والمعلمين .

واعلم أنه ربما لا يتفق للإنسان هذه الأمور المحمودة من الصغر على حسب ما ينبغي، ولكن يجب على العاقل أن يتفقد أحواله وأخلاقه وسيرته وعاداته واعتقاداته، ويتبصر فيترك ما كان منها فاسداً رديئاً، ويجتهد وينظر ويميز ويبحث فإن الله تعالى ما بعث الرسل والأنبياء إلا لإصلاح الأمور الفاسدة الثابتة مع الطباع الرديئة، والعادة الجارية. وقد ذكر العلماء والحكماء في كتب الأخلاق أنه ينبغي لكل إنسان أولاً أن يبتدىء بإصلاح أخلاق نفسه وعاداته، فإذا عدلها واستوت، فعند ذلك له أن يصلح غيره، وقال عليه الصلاة والسلام: « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾ المائدة: ١٠٥ .

ثم اعلم أن أكثر الناس قد تركوا وصية ربهم ونصيحة نبيهم، فيما أمرهم به من إصلاح ذات بينهم، وما فيه نجاة نفوسهم من العذاب الأليم، بما رسمه لهم من التعاون والتعاضد والتناصر والتحابب والتودد والألفة فيما بينهم. فاشتغلوا بعمل ما نهوا عنه من ذكر عيوب بعضهم بعضا، والشنعة من بعضهم على بعض، وصاروا فرقا ومذاهب وشيعاً، وتوقدت بينهم نيران العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وذلك أنهم يعيب بعضهم بعضا بحرقة قلوبهم، وألم نفوسهم، وهم في العذاب مشتركون، أولهم مع آخرهم، كما ذكر الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ الأعراف: ٣٨ التي خالفتها وقالوا: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴾

ص: ٥٩ وقالوا: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ الأعراف: ٣٨ يعني من كان موافقا لهم، وقيل لهم: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ الأعراف: ٣٩ لما تركتم وصية ربكم ونصيحة نبيكم، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ النحل: ١١٨ فكانوا هم الظالمين بتركهم الوصية .

هذه الكلمة المجملة في الأخلاق، تفصيلها ميسور لكل من تدبر .

الخُلق وأقسامه :

الخلق حال داعية للنفس إلى أفعالها، من غير فكر ولا روية، وهي قسمان: منها ما هو من أصل المزاج وتركيب الأبدان، ومنها ما هو مستفاد بالعادة والتدريب وتزكية النفس :

١- فالأول كسرعة الغضب من أقل شيء، والخوف والجبن من أيسر شيء، والتهور والضحك بغير موجب حقيقي، وهذا من أصل الفطرة والمزاج، ومن الصعب علاجه .

٢- أما المستفاد فقد يكون مبدؤه الروية والفكر والمجاهدة، ثم يصير حالا للنفس لازمة .

وقد اختلف علماء الأخلاق في الخُلق، فقال بعضهم: من كان له خُلق فطري لا ينتقل عنه، وقال آخرون: ليس شيء من الأخلاق طبيعيا للإنسان، ولا غير طبيعي، واستدلوا بأن الناس مطبوعون على قبول الخلق، ويؤثر فيهم التأديب والمواعظ، إما بسرعة وإما ببطء. وهذا الرأي اختاره لأنه مشاهد عياناً، ولأن المذهب الأول يؤدي إلى إبطال قوة التمييز والعقل، ورفض التعاليم والتزكية، وترك الناس همجا، وترك العناية بالصبيان، وهذا ظاهر الفساد والشناعة .

واختلافات القدماء في الخلق لا لزوم لتفصيلها في هذا المختصر، وقد ورد في كتاب الله تعالى ما يدل على أن الإنسان يتغير خلقه، قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ

فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ الزمر: ١٧ - ١٨ وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ الزمر: ٢٣ وقال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذاريات: ٥٥. وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ فصلت: ٣٤ وقال تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ الشمس: ٨ - ٩ وكثير من الآيات ورد في هذا المعنى .

وقد ورد في السنة ما يدل على ذلك، ومن طالع سير الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، يظهر له صحة ذلك .

ولما كان ولابد لكل مؤمن أن يحيط علما بأخلاق سيدنا ومولانا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ليجاهد نفسه على حسن الاقتداء والتشبه بحضرته المحمدية عليه الصلاة والسلام، كان ولابد من ذكر قطرة من محيط أخلاقه الطاهرة النبوية، التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، ونذرا يسيرا من شمائله ﴿ ﷺ وآله﴾، ليحسن للمريد حسن الاتباع في القول والعمل اللّذين بيناهما فيما سبق من الكتب، ويحصل له جمال الاقتداء به ﴿ ﷺ وآله﴾، في جمال أخلاقه الطاهرة الزكية، فيكون في معيته بالتشبه به صلوات الله وسلامه عليه .

أخلاقه ﴿ ﷺ وآله﴾

نذكر من أخلاقه ما يمكن للعقل والحس أن يدركها، لأن أخلاقه الطاهرة التي ذكرها الله تعالى بقوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم: ٤ لا تكشف إلا للروح القدسية، فأقول: كان ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول: « اللهم كما أحسنت خَلقي، فحسن خُلقي »، وعند مسلم في حديث دعاء الافتتاح: « واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت » ولما اجتمع فيه ﴿ﷺوآله﴾ من خصال الكمال، ما لا يحيط به حد،

ولا يحصره عد، أثنـــى الله سبحانه وتعالى عليه في كتابه الكريم فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وإنما كان خلقه ﴿ ﷺ وآله﴾ عظيما، لاجتماع مكارم الأخلاق فيه، قال عليه الصلاة والسلام: « إن الله تعالى بعثني بتمام مكارم الأخلاق، وكمال محاسن الأفعال » وفي رواية مالك رضي الله عنه في الموطإ: « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »، وقالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه ﴿ ﷺ وآله﴾ القرآن. فكما أن معاني القرآن لا تتناهى، كذلك أوصافه الجميلة الدالة على خلقه العظيم لا تتناهى، إذ في كل حالة من أحواله ﴿ ﷺ وآله﴾ يتجدد له مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وما يفيضه الله تعالى من معارفه وعلومه ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وقد كان ﴿ ﷺ وآله﴾ مجبولا على الأخلاق الكريمة في أصل خلقته الزكية النقية، لم يحصل له ذلك برياضة نفس، بل بجود إلهي .

وأصل هذه الخصال الحميدة كمال العقل لأنه به تقتبس الفضائل، وتجتنب الرذائل، وهــو أمر روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية. وقد كان ﴿ ﷺ وآله﴾ من كمــال العقل في الغاية القصوى التي لم يبلغها بشر سواه، قال وهب بن منبه: قــرأت في واحــد وسبعين كتاباً فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس، من بدء الدنيا إلى انقضائها في العقل من جنب عقله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلا كحبة رمل من جميع رمال الدنيا، وأن محمــداً ﴿ ﷺ وآله﴾ أرجح الناس عقلا، وأفضلهم رأيا .

ومن تأمل حسن تدبيره للعرب الذين هم كالوحش الشارد مع الطبع المتنــافر المتباعــد، وكيف ساسهم، واحتمل جفاهم، وصبر على أذاهم، إلى أن انقادوا إليه واجتمعوا عليــه، وقاتلوا دونه أهليهم وآباءهم وأبناءهم، واختاروه على أنفسهم، وهجروا في رضاه أوطانهم وأحباءهم، من غير ممارسة سبقت له، ولا مطالعة كتب يتعلم منها سير الماضين، تحقق أنــه أعقل العالمين ﴿ﷺوآله﴾ .

ولما كان عقله ﴿ﷺ وآله﴾ أوسع العقول، لا جرم، اتسعت أخلاق نفسه الكريمة اتساعاً لا يضيق عن شيء، فمن ذلك اتساع خلقه العظيم ﴿ﷺ وآله﴾ في الحلم والعفو مع القدرة، وصبره عليه الصلاة والسلام على ما يكره. وحسبك صبره وعفوه عليه الصلاة والسلام عن الكافرين المقاتلين له، المحاربين له في أشد ما ناله منهم من الجراح والجهد، بحيث كسرت رباعيته، وشج وجهه يوم أحد، حتى صار الدم يسيل على وجهه الشريف، حتى شق ذلك على أصحابه، وقالوا: لو دعوت عليهم: فقال: « إني لم أبعث لعانا، ولكن بعثت داعيا ورحمة، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » وفي رواية: « اهد قومي » وقد وقع له ﴿ﷺ وآله﴾ أنه غضب لأسباب مختلفة، مرجعها إلى أن ذلك كان في أمر الله سبحانه وتعالى، وعفوه إنما كان فيما يتعلق بنفسه الشريفة .

وقد روي الحاكم وغيره عن زيد بن سعنة – وهو أجل أحبار اليهود الذين أسلموا – أنه قال: لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه محمد ﴿ﷺ وآله﴾ حين نظرت إليه، إلا اثنين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فكنت أتلطف له لأن أخالطه، فأعرف حلمه وجهله، فابتعت منه تمرا إلى أجل فأعطيته الثمن، فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ ثم قلت: ألا تقضيني يا محمد حقي، فوالله إنكم يا بني عبد المطلب مطل، فقال عمر: أي عدو الله، تقول لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ما أسمع، فوالله لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفى رأسك، ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة، وتبسم ثم قال: « أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التقاضي، اذهب يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعا مكان مارعته » ففعل. فقلت: يا عمر كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه محمد ﴿ﷺ وآله﴾ حين نظرت إليه، أشهدك أني قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﴿ﷺ وآله﴾ نبيا .

عن أنس رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع النبي ﴿ﷺ وآله﴾ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي، فجبذ بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتقه وقد أثرت فيه

حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء .

وعن عائشة رضي الله عنها: لم يكن النبي ﴿ﷺ وآله﴾ فاحشا ولا متفحشا، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح. وقال ﴿ﷺ وآله﴾: « إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، من تركه الناس اتقاء شره » وما ضرب بيده ﴿ﷺ وآله﴾ شيئاً قط، إلا أن يضرب في سبيل الله، ولا سئل شيئا قط فمنعه إلا أن يسأل مأثما، وما انتقم لنفسه من شيء إلا أن تنتهك حرمات الله فيكون لله ينتقم، وكان عليه الصلاة والسلام كلما أذن له في التشديد على المنافقين فتح لهم بابا من الرحمة .

ومن اتساع خلقه عليه الصلاة والسلام تواضعه، وحسن عشرته مع أهله وخدمه وأصحابه، وحسبك من تواضعه عليه الصلاة والسلام أن خيرَّه ربه تعالى بين أن يكون نبيا ملكا، أو نبيا عبداً، فاختار أن يكون نبيا عبدا، فأعطاه الله بتواضعه أن جعله أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع وأول مشفع. قال أنس رضي الله عنه: خدمت النبي ﴿ﷺ وآله﴾ عشر سنين فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء صنعتُه: لم صنعته؟ ولا لشيء تركتُه: لم تركتَه ؟

وفى رواية مسلم: ما رأيت أحدا أرحم بالعيال من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾. وسئلت عائشة رضي الله عنها: كيف كان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إذا خلا في بيته؟ قالت: ألين الناس، بساما ضحاكاً، لم ير قط مادا رجليه بين أصحابه، وما دعاه أحد من الأصحاب إلا قال: « لبيك » .

وذكر الطبري في مختصر السيرة النبوية أنه ﴿ﷺ وآله﴾ ركب حماراً عريا إلى قباء، وأبو هريرة معه، قال: « يا أبا هريرة أأحملك؟ فقال: ما شئت يا رسول الله، قال: اركب، فوثب أبو هريرة ليركب، فلم يقدر، فاستمسك برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فوقعا معاً، ثم ركب رسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾، ثم قال: يا أبو هريرة أأحملك؟ قال: ما شئت يا رسول الله، فقال: اركب، فلم يقدر أبو هريرة على ذلك، فتعلق برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فوقعا جميعاً، ثم قال: يا أبا هريرة أأحملك؟ فقال: لا، والذي بعثك بالحق لا رميتك ثالثاً » .

وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ في سفر، وأمر أصحابه بإصلاح شاة، فقال رجل: يا رسول الله عليَّ ذبحها، وقال آخر: يا رسول الله عليَّ سلخها، وقال آخر: يا رسول الله عليَّ طبخها: فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: « وعليَّ جمع الحطب » فقالوا: يا رسول الله نكفيك العمل، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾: « قد علمتُ أنكم تكفوني، ولكن أكره أن أتميزَ عليكم، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه » .

وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ لا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين، فيقضي له الحاجة. وفي رواية البخاري: إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فتنطلق به حيث شاءت. ودخل الحسن وهو ﴿ ﷺ وآله﴾ يصلي وقد سجد، فركب على ظهره، فأبطأ في سجوده حتى نزل الحسن، فلما فرغ قال له بعض أصحابه: يا رسول الله لقد أطلت سجودك، قال: « إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله » .

وبالجملة فمن تأمل سيرته عليه الصلاة والسلام مع أهله وأصحابه، وغيرهم من الفقراء والأيتام والأرامل، والأضياف والمساكين، علم أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ قد بلغ من رقة القلب ولينه، الغاية التي لا مدى وراءها لمخلوق، وأنه كان يشدد في حدود الله وحقوقه ودينه حتى قطع يد السارق، إلى غير ذلك .

وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ يمزح ولا يقول إلا حقا، فكان عليه الصلاة والسلام يمازح أصحابه ويخالطهم، ويحادثهم ويؤنسهم، ويأخذ معهم في تدبير أمورهم، ويداعب صبيانهم، ويجلسهم في حجره، ولقد جاء إليه ﴿ ﷺ وآله﴾ رجل فقام بين يديه، فأخذته رعدة شديدة ومهابة فقال له: « هون عليك، فإني لستُ بِملك ولا جبار، إنما أنا ابن امرأةٍ من قريش تأكل القديد بمكة » فنطق الرجل بحاجته. فقام ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال: « يا أيها الناس، إني أوحي

إليَّ أن تواضعوا، ألا فتواضعوا حتى لا يبغى أحدٌ على أحدٍ، ولا يفجر أحد على أحدٍ، وكونوا عبادَ الله إخواناً » .

وقد كانت مجالسه ﴿ ﷺ وآله﴾ مع أصحابه رضي الله عنهم مجالس تذكير بالله سبحانه وتعالى، وترغيب وترهيب، إما بتلاوة القرآن، أو بما آتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة، وتعليم ما ينفع في الدين، كما أمره الله أن يذكر ويعظ ويقص، وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، فلذلك كانت تلك المجالس توجب لأصحابه رقة القلوب، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة. عن أبي هريرة قال: قلنا: يا رسول الله ما لنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا في الدنيا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عندك عافشنا – أي: عالجنا – أهلنا، وشممنا أولادنا، وأنكرنا أنفسنا، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾: « لو أنكم إذا خرجتم من عندي كنتم على حالكم ذلك لزارتكم الملائكة في بيوتكم » ومن تواضعه ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه ما عاب ذواقا قط، ولا عاب طعاماً قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه .

وأما حياؤه ﴿ ﷺ وآله﴾ فحسبك ما في البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان من حيائه ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه لا يثبت بصره في وجه، والحياء كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾: « لا يأتي إلا بخير، وهو من الإيمان » .

أما خوفه ﴿ ﷺ وآله﴾ من ربه عز وجل، فقد قال ﴿ ﷺ وآله﴾: « أنا أتقاكم لله، وأشدكم له خشية » وقال عليه الصلاة والسلام: « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » .

وأما ما روي عن شجاعته وقوته ونجدته ﴿ ﷺ وآله﴾، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ راجعاً قد سبقهم إلى الصوت،

واستهدأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري والسيف معلق في عنقه وهو يقول: « لن تراعوا » وقال ابن عمر: ما رأيت أشجع ولا أنجد من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

وذكر ابن إسحاق في كتابه وغيره أنه كان بمكة رجل شديد القوة، يحسن الصراع، وكان الناس يأتونه من البلاد للمصارعة فيصرعهم، فبينما هو ذات يوم في شعب من شعاب مكة إذ لقيه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال له: « يا ركانة ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه؟ فقال له ركانة: يا محمد هل من شاهد يدل على صدقك؟ قال: أرأيت أن صرعتُك أتؤمن بالله ورسوله؟ قال: نعم يا محمد، فقال له: تهيأ للمصارعة، قال: تهيأت، فدنا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، فأخذه ثم صرعه، فتعجب ركانة من ذلك، ثم سأله الإقالة والعود، ففعل به ثانياً وثالثاً، فوقف ركانة متعجباً، قال: إن شأنك لعجيب » .

وفى البخاري من حديث البراء: وسأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يوم حنين، فقال: لكن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لم يفر، كان هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على المغانم، فاستقبلنا بالسهام، وفرت الأعراب ومن تعلم من الناس، ولقد رأيت النبي ﴿ﷺ وآله﴾ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بزمامها والنبي يقول:

أنا النبيُّ لا كذب أنا ابنُ عبدِ المطلب

وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، لأنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع هذا على بغلة ليست بسريعة الجري، ولا تصلح لكر ولا فر ولا هرب، وهو مع ذلك يركضها إلى وجوههم، وينوه باسمه ليعرفه من ليس يعرفه صلوات الله وسلامه عليه. وفي حديث: « كنا إذا أحمر البأس اتقينا برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾.

وأما سخاؤه وجوده ﴿ﷺ وآله﴾، فقد كان ﴿ﷺ وآله﴾ وسلم أحسن الناس، وأشجع الناس، وأجود الناس، وما سئل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ شيئاً إلا أعطاه، فجاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا

يخاف الفقر. وقال صفوان بن أمية: لقد أعطاني رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما أعطاني، وإنه لمن أبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى أنه لأحب الناس إلي. قال ابن شهاب: أعطاه يـوم حنين مائة من الغنم، ثم مائة، ثم مائة، وإنما أعطاه ذلك لأنه عليه الصلاة والسلام علـم أن داءه لا يزول إلا بهذا الدواء، وهو الإحسان، فعالجه به حتى برأ من داء الكفر وأسلم .

وقد حمل إليه ﴿ ﷺ وآله﴾ تسعون ألف درهم، فوضعت على حصير، ثم قام إليها يقسمها، فما رد سائلا حتى فرغ منها. وقد أتى ﴿ ﷺ وآله﴾ بمال من البحرين فقال: « أنثـروه » بمعنـى صبوه في المسجد، وكان أكثر مال أتى به ﴿ ﷺ وآله﴾، فخـرج إلى المسـجد ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطـاه إذ جـاءه العباس فقال: أعطني فأعطاه ما استطاع حمله، فما قام عليه الصلاة والسلام وثم منها درهم .

وقد كان جوده عليه الصلاة والسلام كله لله وفي ابتغاء مرضاته تعالى، فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج، وتارة ينفقه في سبيل الله تعالى، وتارة يتألف به على إسلام من يقـوى الإسلام بإسلامه .

وكان يؤثر على نفسه وأولاده، فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك – مثل كسرى وقيصـر – ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نارا، وربما ربط الحجر على بطنه الشريفة من الجوع .

وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ قد أتاه سبي فشكت إليه فاطمة ما تلقي من خدمة البيت، وطلبت منه خادماً يكفيها مؤنة بيتها، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميـد، وقـال: « لا أعطيك، وأدع أهل الصفة تطوى بطوهم من الجوع » وأتته ﴿ ﷺ وآله﴾ امـرأة بـبردة فقالت: أيا رسول الله أكسوك هذه، فأخذها ﴿ ﷺ وآله﴾ محتاجاً إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه فأكسنيها، فقال ﴿ ﷺ وآلـه﴾: «

نعم » فلما قام عليه الصلاة والسلام، لامه أصحابه وقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﴿ﷺ وآله﴾ أخذها محتاجاً إليها، ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئاً فيمنعه .

وبالجملة فهو ﴿ﷺ وآله﴾ في سائر صفات الكمال، أفضل الخلق على الإطلاق، وأكملهم في جميع أنواع مكارم الأخلاق، ﴿ﷺ وآله﴾ .

الأخلاق الصادقة الإسلامية :

الإنسان من حيث فطرته الإنسانية مستأنس ألوف بما أودع فيه من الجمالات الحقيقية، التي ميزته عن جميع الكائنات الأرضية، وإنما المعاشرة سبب من أسباب المزاحمة الإبليسية، وقد يظهر للمتأمل أن الإنسان قد اكتسب من الحيوانات البهيمية خلالا خاصة بها، كالسلب والنهب وسفك الدماء، والتحايل على اكتساب العيش بأي وجه من الوجوه، وهو الأمر الذي لا يفعله إلا من لا عقل له، ولا علم يكتسب به من وجه حل موافق للائتلاف والعمران، فإن الحق سبحانه وتعالى ربط العمران بعضه ببعض، فجعل هذا مميزا بصفة خاصة به ينتفع بها بنو جنسه، وينتفع منهم بها آونة أخرى، وهكذا. وأما الحيوانات فجعل لكل نوع منها وقاية تقي ظاهره، ويجلب بها ما يحتاج إليه، وألهمها كيف تشغل تلك القوى .

ثم أفاض على الإنسان – فضلا منه – قوى إلهية من قواه الربانية، قهرت تلك القوى الحيوانية، ودبرتها على حسب ما به يكون العمران، فاستأنست النافع من الحيوانات بهذا العلم المفاض من الحق، وقهرت الحيوانات الأخرى التي لا تنفع. كل هذا بالحكمة السماوية، فكل إنسان لم يعتن بهذه الحكم السماوية، واللطيفة النورانية، واستعملها في غير ما وضعت له، انحطت رتبته، واستعمل الحيل الحيوانية في جلب ضرورياته. كل هذا اكتسبه الإنسان من معاشرته للحيوانات، ولذلك نرى أن الذين يعيشون في البلاد الكثيرة الحيوانات المفترسة ويشهدونها، يتخلقون بأخلاقها، ويستعملون أعمالها .

وقد تفضل الله سبحانه وتعالى فأرسل الرسل بالأخلاق الطاهرة الزكية، والصفات البـــارة الربانية، وجملهم بأكمل الأوصاف وأعظم الخلال، وأمرهم أن يدعوا الخلق للخالق، وأيدهم سبحانه بالدلائل المعجزة للخلق، التي هي في قوة صدق عبدي فاتبعوه. فانقاد الناس لاتباع هذا النور، وخصوصا من وفقهم الله بهدايته للدخول في دينه، فأتوا بـــالنواميس الربانيـــة، وبينوا ما يحتاج إليه الإنسان في دينه ودنياه وآخرته، وطلب ربه سبحانه وتعالى، بـــأقوالهم وأعمالهم وإشاراتهم، كل شيء بما يليق به من تصريح أو تلويح، فسلم المسلمون وأسلموا، وخالف المخالفون وتخلفوا .

فالأخلاق المرضية محصورة في كتاب الله تعالى، وما بينه سيدنا رســـول الله ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ بقوله وعمله. فكل من علم تلك الأخلاق وعمل بها ظاهرا وباطنا، فهو الإنسان الكامل في الإنسانية

ولما كانت النواميس الربانية موجبة وجوباً عينيا القصاص والتعزير، وإظهارهـــا بـــالحبس والسيف على حسب ما يناسب الحال والشأن، ظهر جليا أن الرادع الشـــرعي للإنســـان أمران: القرآن والسلطان، والإنسان الذي طهرت أخلاقه وصفاته لا يحتاج لـــوازع غـــير القرآن، لأن القرآن الشريف وضح وبيّن وأظهر ما به سعادة المـــؤمن، وهـــذا الإنســـان المشاهد بنور بصيرته حقيقة الواجب الشرعي، قام بالواجب الذي إذا قصر عنه لا يكون له حظ في الدين. ومن حافظ على الواجب فهو مسلم من عامة المسلمين. وبقدر صـــدقه في تأدية الواجب ينال الجزاء .

وإنما ينال مرضاة الله تعالى من لم يقف به العزم على حد الواجب، بل يسارع في القربـــات، ويبادر إلى النوافل بكل أنواعها، فيتقرب إلى ربه ببذل كل عظيم من مال وزمان وشـــرف وشهرة وعلو في الأرض وعافية وقوة وغير ذلك، بسرور وانشراح ومداومة، وتجدد ومزيد غير واقف عندما يزول، بل بغيته رضوان الله وفضله، صغرت في عينه كل قربـــة وعمـــل ومال، فكان في كل نفس يزداد إقبالا ومسارعة، ويزداد على عمل العناء والتعب ســـرورا ونشاطاً، طارحا كل جزاء وشرف ورفعة في الدنيا، وملك ونعمة في الآخرة وراء ظهـــره.

وبهذا ينال العبد رضاء ربه، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ الحديد: ٢٧. فالواجب واجب لشكر المنعم، والإقرار بالعبودية، وإنما نوال الرضا لا يكون إلا بأن يرخص في عينه كل نفيس في جانب بذله للقربة، ونوال الرضا من الله تعالى .

الأخلاق :

هي الأخلاقُ أسرارُ المعالي ... تُفاض على أولي الهممِ العوالي
ترى الإنسانا إنسانا عيانا ... وتشهده بها نورَ المثال
يلوح عليه نورُ الوصف يُجلي ... كما يجلي على المَلَك الموالي
بأخلاق المهيمن قد تحلي ... فحل مقامَ أعلى بالجمال
فذلٌّ للعلي به فخاري ... وفقرٌ للغَنِيِّ به نوالي
بأضداد الصفات أنال قربى ... وأحظى من إلهي بالوصال
بأخلاق المراد وقد أضاءت ... بأفق القلب شمسُ الاتصال
على الخلق العظيم به رقي ... لأفقِ شروقِ أنوارِ الجمالي
به أنا عبدُ ذاتِ الله شغفي ... بتحقيقي بمنزلتي وحالي
بذل وافتقار واضطرار ... ورغب ثم رهبٍ من جلال
وحالي بين شكر للأيادى ... من الإحسان أو بين ابتهال
وبين العجز عن حصر الأيادي ... وعن حصر العطايا بالمقال
وبين تضرعٍ لزوال بؤسٍ ... وطمعٍ في إجابته سؤالي
وأنسٍ بالتجلي حال صفوي ... وطمعٍ في السعادة في المآل
عُبَيْدُ وصفُ سيدِه تجلي ... وفى كل المظاهر قد بدالي
فلم تُشهد لي الآثارُ إلا ... ليرآى نورَ مبدعِها خيالي
وما شهدت عيونُ الرأسِ أثراً ... فحجبني عن المعنى المثال

ولكني بعين القلب أرأى   جمالا ماحقا صورَ الظلال
به سمعي وبصري بل ونطقي   وبطشي لا بمزجٍ وانفصال
وكلٌّ معالمي نورٌ تسامى   يلوح بها بلا قيد اعتقال
فتشهدُه به فيها تعالي   فنزه عن حلول وانتقال
مقامُ العبد فوق العقل قدرا   يكاد به يكون من المحال
فقربٌ بالقريبِ إلي قريبٍ   وبعدٌ عن بعيدٍ بالعقال
ونورُ الله سرُّ الحب يعطى   بفضلِ الله لا بالانفعال
وما أخفى لعبد الذات غيب   عن النفس التي ذاقت مقالي
بقدر المنعمِ الوهابِ يُعطى   فَفِرَّ عن التشكك والجدال
ففضل الله مولانا عظيمٌ   يُنال بفضله محض النوال
وعبدُ الذاتِ فردٌ قد تحلي   بأخلاق المهيمن والجمال
عزيزٌ بالعزيزِ عظيمُ قدرٍ   بمولاه سما رتبَ المعالي
سقاه المصطفى راحا طهوراً   وجَمَّله بحلل الاتصال
وقرَّبَهُ إليه به فصحت   معارجُه علي نهج الرجال
هي الأخلاقُ نسبٌ واتصالٌ   إلي أوجِ التنزل والمجالي
هي النسبُ القريبُ إلي قريبٍ   وحصنُ الحفظِ من كل الوبال
وهديُ المصطفى معراجُ قربٍ   إلي نيلِ السعادةِ والوصال
علي ذاتِ الحبيبِ صلاةُ ربي   وأصحابٍ وأحبابٍ وآل

السماع والعيان :

إذا أشرقت على القلب أنوار اليقين من فضل الله تعالى، تلقى خبر الصادق من حيث التصديق به، والعمل بأمره، كتصديق وعمل المعاين المشاهد، وهو الإيمان حقيقة الذي مدحه الله تعالى، وأثنى على أهله. وذلك لأن الأرواح في عالم الذر، شهدت الجمال الإلهى، وسمعت الخطاب الرباني، فهي في شوق إلى ما شهدت وسمعت، فإذا أخبرها الصادق

اطمأنت وسكنت إلى الحق لما ذاقته من معاني خبره، الذي صادف ما تشتاق إليـــه، فوقـــع موقع الشهود العيني .

ولذلك ترى كثيراً ممن لا يتصورون المعاني الإلهية، ولا الحقائق العلمية، إذا أخبر بحقيقة مـــا حن إلى تلك الحقيقة، وإذا أمر بأمر قام به بشوق، مسارعا مداوما عليه، مشاهدا فيه مـــا لم يشهده غيره ممن علم. بينما نرى أن كثيراً ممن علموا يتهاونون بالأوامر، وربمـــا وقعـــوا في المنهيات، فيستنتج من هذا أن خبر الصادق عند الممنوح، كرفع الحجاب عند أهل اليقين. والوسعة في العلم لا تقتضي الشوق والحب، ولذلك فالله تعالى أثنـــى على الذين يؤمنـــون بالغيب ثناء حقيقيا، وأخبر أنهم هم المفلحون، وأخبر أنهم يوقنون بالآخرة .

فالإيمان مواهب إلهية، به النور والنجاة، فإذا منَّ الله بالعلم لعبده، كان ذلك من الفضـــل العظيم، وبهذا أرى أن العلم غير الإيمان، وأن الإيمان لابد منه قبـــل العلـــم . والصـــحابة رضوان الله عليهم كانوا يتعلمون الإيمان قبل القرآن، فيزدادون إيمانا بالقرآن على إيمانهم .

ومن هذا ترى أن أهل الله يحبون أهل التسليم والانقياد، لأنهم أول أتباع الرســـل علـــيهم الصلاة والسلام، الذي يقع منهم خبر الصادق موقع عين اليقين لصفاء قلوبهم. وهم الذين يعملون جميع الأركان والنوافل بشوق لشدة مشاهدتهم، وكمـــال تصـــديقهم، إلا أنهـــم يحتاجون إلى المرشد الكامل، والحكيم العارف، الذي يخبرهم بما يناسب نفوسهم من العلـــم والعمل، حتى يكون لهم رقي مناسب لقواهم، لينهجوا على المنهج الوسط، لتكون أحوالهم متوازنة بين الروح والجسد، ويدوم مزيدهم حتى يبلغوا من العلم أعـــلاه، ومـــن المعرفـــة أكملها .

وبذلك يكون الإنسان مؤمنا حقيقة، عاملا من عمال الله تعالى، مسارعا إلى مرضـــاته مـــن جهاد وإنفاق وعبادة ومعاملة، علما وكشفا. وهذا الإيمان هو المطلوب من كـــل إنســـان، بالنسبة للداعي إلى الله سبحانه على بينة، ثم بعد التصديق والإقرار يتلقى منه العلم، عاملا بأوامره منتهيا عن نواهيه.

أما أهل الجدل والغرة بالله تعالى – ممن أبعدهم الله عن نور التسليم – أو الهمج الرعاع – الذين ينقادون ويتبعون كل ناعق من غير تبصرة ولا علم – فإن الداعي إلى الله تعالى يدعو إلى التوحيد الذي هو صبغة النفوس الزكية، وإلى الفضيلة من العمل والخلق، وصلة الرحم، وإكرام الجار، وتقبيح الطمع والحرص وكل قبيح لدى العقول السليمة – أما أهل الجدل والهمج، فإن الله سبحانه قطع المجادلين لغرورهم بعقولهم المكسوفة، وعلومهم التي هي جهل، وآرائهم الفاسدة. وأما الهمج فإن الله سبحانه أبعدهم لحرمانهم من نور العقل، الذي به التمييز بين المحق والمبطل، ولعكوفهم على الحرص على النفع العاجل، وصرف هممهم عن الخير الآجل، لأنهم لم يمنحوا نور التسليم للحق، ولا نفسا زكية تتصور معاني الحق .

وهذان النوعان في الناس كثيرون، وهم أعداء ما جهلوا. فالداعي إلى الله تعالى عليه أن يتحفظ على أهل التسليم من أهل الجدل، ويتحفظ على نفسه من الجهلاء الهمج. فإنهم لا يلبثون معه إلا ريثما يسمعون ناعقا بباطل فيميلون إليه ويقصدونه. أو يسمعون سرا من المرشد من أسرار الحكمة، وغرائب العلوم، ولطائف المعرفة، فينشرونها أمام أهل الغرة والجدل. أو يزيدون عليها من الثناء على المرشد، وذكر أوصاف يكرهها وتنكرها النفوس، فيفتحون على أنفسهم أبواب الإنكار، وغوغاء أهل الفساد، مع عجزهم عن رد أباطيل المفسدين، ومداراة المغرورين .

فالمرشد مكلف شرعا أن لا يصطفي لأسراره إلا الذين يسمعون منه الحكمة والمعرفة، ليكملوا أنفسهم ويعملوا ليزداد إيمانهم، لا الذين يستمعون القول فيجادلوا به، ويطلبوا به العاجل الفاني فيكونون أبوابا مفتحة للفساد، أو سرجا تضيء لتحترق .

والصالحون المصلحون قليلون، وواحد منهم كأمة، فليجتهد العارف بالله تعالى، ويجاهد ليفوز بمن يفقه علومه به، ويتجمل بأحواله وأخلاقه، ويكون رحمة للناس ونورا لهم، يدعو إلى الله تعالى على بينة من أمره، ومنهج الأئمة الهادين، والله ولي التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المواجهة :

هى صفاء القلب، واستراحة النفس الملكية من شواغل النفوس، ومن لوازم الجسم اللازمة له بحسن يقين ونور علم، وأمن على النفس والمال والولد، وتوكل حسن وادكار .

فإذا حصلت تلك المواهب للطالب الصادق، تجلى للقلب نور المعية، وللنفس أسرار معاني الأسماء، فتجمل الطالب بجمال الأخلاق، وأنس بالحضور، وغاب عن دواعي النفوس ولوازم الجسد غيبة سرور بما فاز به من الجمالات، وما انكشف له من الكمالات، وما تكشف له من دناءة الدنيا وما فيها من زهرها، ودام له هذا الأنس حتى صار لازما له، بمزيد في كل نفس حتى يكون مقاما له لا حالا .

وفى هذه الحالة يكون مؤهلا للمواجهة، وهى أن يمنح نفثة الروح القدسية، فينظر بعين القدس، وينطق ويبطش، ويكون مواجها بجميل الوجه وجماله، حاضرا في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهى منزلة الأفراد المحبوبين، المطلوبين للجانب العلي، وللفوز بمشاهدة الولي، والله ذو الفضل العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وورثته وسلم .

خير الأمور الوسط :

معلوم أن التغالى بطلان، والتهاون عن الوسط خسران، ذلك في الأمر كله، والوسط هو الخير الحقيقى .

والفضيلة الكاملة مختلف فيها، فقيل: ما يحكم به العقل السليم، وقيل: ما دلت التجربة على حقيقة نفعه وصحة خيره، وأجمع أهل التجربة على فائدته. وذلك وسط، ولكنه ليس هو الوسط الذي يطمئن به القلب، وتحصل به السعادة في الدنيا والآخرة، وينتج الإقبال والقبول، وتوارد الواردات الحقة، والأنوار الربانية .

والوسط الذي هو الفضيلة والخير البحت، والسعادة القصوى التي وعدها الله تعالى عباده الصالحين، هي الأوامر التي أمر الله بها، ورغب في عملها، وندب إليها من فرض ونفل.

وأدنـــى تلك الفضائل أن يتحصن بالحد الفاصل بين الحق والباطل. وأكملها أن يتجمـــل بالعزائم والمسارعة إلى العمل الشاق من أعمال البر وتحمل مرارة جميل الأخلاق، من العفو والسماح والتواضع، والإحسان إلى المسيء، وصلة القاطع، وود البغيض. وما أشبهها مما لا يقوم به إلا من أعانهم الله سبحانه بعنايته. هذا هو الوسط .

والوسط في الاعتقاد أن يعقد قلبه على العقيدة الحقة، التي قررها القرآن وسكن إليها، ولا يبالغ في ذلك ولا يعادي أهل الإيمان، ولو أنهم لم يبلغوا مبلغه في العلم، ولا يرفع الخلق إلى درجة تجعله ربما وقع في الشرك. وليضع كل إنسان موضعه، وكل مخلوق قدره الذي يجب له شرعا.

هذا وإن كثيراً من أهل الإيمان يظنون بالناس جميعاً خيراً، فيوقعونهم في مضار كثيرة، وأنـــا استحسن أن تظن بالناس خيراً، ولكن تحتاط في معاملتهم حيطة تحفظ لك مودتهم، وتبقـــي لك عشرتهم، وليكن الاحتياط بطرق تخفى على الناس، حتى لا يشعروا منك أنك تحطـــاط منهم، فيسيئوا بك الظن، وتقع في مضرة عملهم .

واجعل حسن ظنك بالله سبحانه وحده، وثقتك به سبحانه وتعالى. واحترس من الناس جميعا احتراساً لا يجعلك تقطعهم، ولا تتهاون لهم تهاونا يفسدهم. ولكن كن يقظـــا، لا ينســـيك حسن عملهم، وخضوعهم وإقبالهم، وسوسة الشيطان لهم، وإفساده لقلـــوبهم، وإبعـــادهم وتغيير حالهم .

فكن معهم إن أحسنوا، متوسطاً لهم، حتى إذا أساءوا لم تنزعج، لأنك متيقظ لهذا، متحقـــق أنهم محل الإحسان والإساءة، فتحذر السوء منهم في أكمل أحوال إحسانهم، فإن الحاجـــة والضرورة والخوف، ورغبة الخير، ظواهر تضطر الإنســـان أن يظهـــر بـــالبر والإحســـان والخشوع والخضوع. كما ترى الملتصقين بالسلاطين، كيف يخضـــعون ويتـــذللون لهـــم، ويمدحونهم ويقبلون منهم القبيح بأحسن القبول، بسرور من قبولهم الحسن من غيرهم، حتى إذا نكبتهم نكبات القضاء، تنكروا عليهم .

وكذلك المريدون، فإنهم – مع حسن إقبالهم، وجمال أعمالهم، وكمال تصديقهم – لا يؤمن عليهم من لمة الشيطان، وحظوظ النفس والهوى، فربما انقلبوا أعداء للحق .

فالعارف اليقظ في كل نفس، ينتظر ذلك، ويعمل بكل حيطة، لحفظ إخوانه من الفتـــور أو التهاون، أو الغفلة أو القطيعة. فإذا حصل شيء من ذلك، لم يترعج لعلمه بالنفوس، وسرعة تغيرها، وينتظر فيئة الأخ إن كانت مما يعتاده المريد من الأحوال التي تحصل من المـــؤمنين، كالتساهل بالزيارة أو البحث عن حقيقة، أو العمل بأكثر مما أمر به. أما إن كانت ناتجة عن خبث في النفس، وسوء في العقيدة، وظلمة في القلب، وسابقة السوءى – والعياذ بالله تعالى – فالأولى للعارف أن يداريه مداراة تجعله بدلا من أن يشغله بإساءته، يستريح من شـــره، ويحفظ إخوانه من كيده، والله هو الحفيظ .

والوسط في العبادة اقتداء بالسيد ﴿ ﷺ وآله﴾، حتى لا يدخل على نفسه الغرور بـــالغلو، ولا نسيان للخير بالتهاون، فالوسط خير الأمور والله تعالى هو الموفق لا إله سواه .

الباب الخامس

العارف

العلوم الإلهية أسرار غامضة، تدرك لقوى خاصة بالإنسان، تلك القوى التي هي نور العقل الكامل، الذي لم يقهره عامل الأخلاق الإنسانية، ولا باعث الطبع الحيواني، ولا داعي الحظ الإبليسي، بل تجرد عن لوازم الانفعالات الحيوانية، وداعيات المنافسات العمرانية، وإن اشتغل لضروريات الحياة، فإنها لابد منها من وجوهها الفاضلة، بل المراد عدم الاشتغال بالكمالات التي تميل النفس إلى الانفراد بها دون غيرها من بين نوعها، الناتجة عن حب الذات، والأمل في البقاء .

فإذا تخلى الإنسان عن تلك المقدمات المنتجة للمفاسد الخلقية، وتحقق أنه عضو لمجموع الوجود الحي، متمم له، وأنه به يحي حياة طيبة، فخدم الكل لصالح نفسه، متحققا بأن الكل هو عينه، وذاق لذة أنه نافع نفعا عاما، أنس بكل شيء، واستأنس به أنساً يدفعه إلى التنعم بمزاياه وخواصه، وتجردت نفسه من دواعي المضار، وبواعث الفساد، فتزكى وتتطهر من نية السوء، وقصد المضار، وانشرح صدره بكل بني نوعه، وبذلك يحفظ من الشر منهم، ويحفظون من شره، فيستريح قلبه ويشتغل بما يقربه إلى ربه، لأن أعضاءه مطهرة من النجس، وفكره صاف من شواغل الخلق، فيميل بكليته إلى الله تعالى مخلصا صادقا، حتى يمنحه الله تعالى واردات الإحسان .

وهذا يترقى إلى مقام القرب، ويذوق حلاوة الحب، فتنكشف له غوامض العلوم، التي لا يسلمها إلا مطلوب، وتلوح عليه أنوار الربوبية فيعلم الحق، وينكشف له الحق، وعندها يتحقق بأنه عارف بالحق، ويترقى إلى مراتب المعرفة، حتى ينتهي إلى مقام العجز عن إدراك الحقيقة .

فالعارف من عرف الحق كشفا وعلما، وعجز عن الحقيقة كشفا وعلما، وهى الرتبة التي بعدها يعد العارف عبدا كاملا لله تعالى، متحققا بمقام العبودية، والله ولي المؤمنين :

العارفون لهم ظهرت حقيقتُهم فجملتهم بعلم الحق خشيتُهم
بعلمهم نفسهم علموا مقامَ علا فأوقفتهم على الآداب رهبتُهم
عرفوا نفوسَهمُ ذلا ومسكنةً وقد حباهم فدامت فيه رغبتُهم
عكفوا عليه بإخلاص فواجههم بالوجهِ فانبلجت من ذاك نشوقم
سكروا فطابوا به أنِسوا فأنزلهم منازلَ القرب فاتضحت محبتهم
فروا إليه به والوجه مقصدهم والعلو والسفل لا تحويه فكرقم
الله معبودهُم وهو المراد لهم وقد رأت نورهَ علناً بصيرقم
وجنةُ الخلدِ لو ظهرت بطلعتها لفارقت حُسْنَها بالزهد همتهم
لا كفؤ لله يحجبهم فيبعدهم أحد تتره تعلمه سريرقم
هو الوليُّ تولاهم فحصنهم عن العوالمِ قد رُفعت مكانتهم
العرشُ والفرشُ والكرسيُّ خلفهم وجنةُ الخلدِ والفردوس حيطتهم
لا يخطرُ الملكُ والملكوتُ في نَفَس على قلوبهم والخوفُ شيمتهم
حصنُ الجلالِ وسرُّ الكبرياء بدا فحُصِّنُوا فيه واتضحت هدايتهم
قد قربوا لجناب القدسِ منزلةً رُفعت بها بين أهلِ القربِ نسبتهم
في غيب غيبٍ عن الأكوان قد رفعوا عن الشئونِ وقد وافتك حالتهم
الذلُّ عزهم والجهلُ علمُهم وخشيةُ الله بهجتُهم ولذقم
رضوا عن الله في الدنيا فجملهم منهم بحق يقين فيه نعمتهم
أنسوا بما استوحش الجهالُ منه وقد صحت بدايتُهم طابت نهايتهم
لم تستفزهم الدنيا وبهجتُها والوجهُ مشهدهم والكونُ آيتهم
تدرعوا باليقين الحق واتشحوا بالصدق حتى به دامت معيتهم
ما حيطةُ الملكِ والملكوتِ عندهم إلا منازل سفر آن أوبتهم
ومرجعُ الكلِّ لله العليِّ على حق اليقين وقد وضحت طريقتهم
لم يلتفت أحدٌ منهم لعاجلة والكل لله قد خلصت سريرقم
شربوا من الراحِ راحِ الذكرِ خمرتَهم وهدىُ طه على التحقيق سيرقم
يارب صلِّ على طه وعترتِه وآلهِ الغرِّ من رفعت مكانتُهم

أنس العارف بالله وحده :

الأنس بهجة النفس لمطلوب متمنى، مع الأمن من الزوال والعقوبة، والعارف مقبل على الله بكله سبحانه بعين يقين، عن رسوخ في علم يقين، وجاذب عناية إلهية، فلا يصرفه عن الإقبال على جناب القدس الأعلى شيء من حظ أو هوى أو ملكوت، لأن في ذلك وحشة له، وألم فراق يعتريه، يجعله حزين القلب، منقبض الصدر نافرا فارا. ولذلك ترى العارف يفر من كل من لم يشهد فيه مشهدا إلهياً يأنس به، ولذلك قال سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء: ٧٧ وقال: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ﴾ إبراهيم: ٣٦ وقد يفر العارف من نفسه إذا شغلته بمجاهدتها في حظ، فإنه يفر إلى قمم الجبال، حتى لا ترى نفسه ما تتمناه إذا اطمأن إلى الله، فإذا سمِعْتَ أن عارفا ترك العمل أو ترك الطعام، وفر إلى القفار، فلا تنكر، فإنه يتلذذ من كل مؤلم إذا استأنست في عمل المؤلم بالله سبحانه وتعالى :

الأنسُ بعد سكون القلبِ بالله | هو الرضا لأخي وجد وأواه
وهو السعادة في الدنيا وآجلةٍ | والأنسُ بالدونِ للمبعودِ واللاهي
أنسٌ به القربُ للقدسِ العليِّ على | براقِ وُدٍّ من الإقبالِ والجاه
يحيى سعيدا به في حصن خالقه | منعما بمعاني وصفه الباهي
الأنسُ بالله أغناه وأسعده | والحظ بالدونِ للمحجوبِ والساهي
دامت معيته بالحقِّ واتصلت | بالقدس همته بغير تناهي

* * *

أنِسَ العارفون بالأنوار | إذ أضاءت في تلكم الآثارِ
كلُّ شأنٍ يبدو به سر غيبٍ | يتراءى لهم كشمس النهار
لم يغيبوا عن وجهِ مولى تعالى | عن قيودِ العقولِ والأنظار
شاهدوه في كل شيء فغابوا | بجمالٍ سما عن الأقمار

كلُّ شأنٍ يرون فيه جمالا   بعيونِ القلوبِ والأبصار
فعيونُ القلوبِ في أفقِ أعلى   وعيونُ الأبصارِ في التذكار
بين أنسٍ وبهجةٍ وسرورٍ   بتوالي البشرى ورفعِ الستار
يا مرائى الشهودِ أنت كنوزٌ   طُلسِمت عن محجب بالديار
من له تفتح الكنوز يهنى   بشرابِ الطهورِ بالمدرار
فيك حسن محجب عن عقول   شغلتها محبةُ الدينار
أنِسَتْ بالدنىء بعدت وغابت   عن جمالٍ في باطنِ الآثار
زهرةُ الكونِ حجبتهم فهاموا   وهواهم هَوَوْا به في النار
ضيعوا عمرهم بقيل وقال   بين ظلمٍ ولذةٍ بالعقار
وأولُوا القربِ في صفاءٍ وبسطٍ   وشهودٍ لمنعم غفار
شاهدوا الكون أفقَ حقٍّ مبين   فدعاهم ما فيه للستار
سمعوه يدعو بحالٍ وقالٍ   حالِ آيٍ والقول للمختار
فاستجابوا لله والحولُ منه   فصفاهم بمشهد الأنوار
صار كلُّ الوجودِ علوا وسفلا   روضَ قدسٍ مجملٍ ببهار
تتوالى البشرى عليهم دواما   فاقرأنها في الذكر بالاعتبار
فرحوا بالعطاء من فضل مولى   وهو خيرٌ من جوهر ودرارى
يبتغون الرضوان والفضلَ منه   رُكعاً سُجَّداً لدى الأسحار
حجبَ الكونَ وجهُه فتهنوا   بشهودِ الجمالِ والأسرار
كلُّ فانٍ فني وما هو باق   عاينوه بالكشف لا الأخبار
جسمُ هذا الكيان حجب عنهم   وتراءى ما فيه للأبصار
شاهدوه مرآة أسماء قدس   قد تجلت به بسر اقتدار
عشقوها فهيموا وتَخَلَّوْا   عن دواعي الهوى وداعي العار
عشقته أرواحُهم وهو حُسن   سجد العَقلُ دونه باعتذار
وخيالي كم صور الحسنَ قبلا   حال عشقي بصورة الأذكار
بعد كشفي سجدَ الخيالُ صغارا   لمقامٍ عالٍ عن الإكبار

يـــا خيـــالي حــقُّ الـــيقين شـــهودي لا تمثـــل فـــذاك شـــأن الســـاري
ذا مقـــــامُ مـــــــترةُ متعـــــال عـــــن بيـــــانِ الأرواحِ والأفكـــــار
كـــن كمـــا كنـــتَ طينـــةً أو منيـــا أو طفـــــــــــــيلا في أول الأدوار
وتلـــقَّ عنـــه بـــه ســـرَّ مجلـــي وتجمَّـــــل بحلـــــةِ الافتقـــــار
وتحقَّـــقْ برتبـــةِ العبـــدِ واعلَـــمْ أن نيـــل الوصـــولِ بالمختـــار
فـــردِ ذاتِ العلـــيِّ شمـــسِ هـــداه كعبــةِ الــرُّوح مقصــدي وفخــاري

ادع نفسك فإن أطاعتك فادع غيرك :

الداعي إلى الله سبحانه، إنما يدعو إلى الإقرار والتصديق، والعمل والخلق والمعاملة التي جاء بها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من عند الله سبحانه وتعالى، وبيَّنها بعمله وقوله وحاله، صلوات الله وسلامه عليه، واقتدى به في ذلك كله خلفاؤه الراشدون، وأصحابه المخلصون، رضوان الله عليهم أجمعين .

فمن المكلف بالإقرار به والتصديق: الإيمان بالله تعالى، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى. وأن الله واحد أحد، فرد صمد، خالق رازق، حي عليم، قادر مريد، قريب مجيب، سميع بصير، يبصر عبده، وهو سبحانه مع عبده حيث كان، مطلع على السرائر وأخفى منها. وأنه سبحانه رغب في الآخرة، وجعلها هي دار النعيم، ودار الشهود والخلود والبقاء واللذة، وزهد في الدنيا وذمها، وشنع على أهلها، وقبح عملهم، ورد عليهم فعلهم، وجعل لهم في الآخرة عذابا أليما، وسخطا وغضبا دائمين. ثم جعل لكل عامل أجرا، إذا صدق في عمله، لا توازيه الدنيا، ولا ما فيها بأجمعها. وجعل لأهل الإخلاص في العقيدة والقول والعمل والحال جزاء عاجلا هو نور اليقين، ومشاهدة الآيات، ومكاشفة الملكوت، حتى يبلغ درجة اليقين الحق، والطمأنينة الحقيقية، التي متى بلغها السالك صارت الجنة مرأى عينه، والجحيم مشهودة لبصيرته .

ثم يترقى إلى أن يكاشف بما هو أكمل وأجمل من ذلك، جمال الوجه العلي، وهذه المشاهدات تجعله يرى الدنيا جيفة قذرة، تشمئز منها نفسه، فيفر من نتنها وقبح ما يراه فيها، من سوء القطيعة عن النعيم المقيم، ودنس الأعمال الشيطانية التي يعملها أهــل الــدنيا، ورجــس الأعمال البهيمية التي يتلذذ بها أهل الشهوات والحظوظ البدنية، وينزه نفسه عــن تلــك الدنايا ويعلو بها عن هذا الحضيض الأسفل الذي هو سجين البعد وهاوية المقت .

فإذا طالب نفسه أن تطيعه على تحمل المجاهدات والرياضات، في سبيل البعد عن الوقوع في مشتهياتها وحظوظها، والفرار عن الميل إلى تلك الدار الفانية، الغادرة الضــارة، والــبغض لزينتها، والتجافي عن ملاذها ومسراتها، وأجابته مسرورة بما لا يلائمها من الزهد والجــد، والخشوع والذل والانكسار، والفقر والسهر، امتحنها بالدنيا، واختبرها بالميل إليها، فــإن نفرت عنه، وفرت عنه إلى الحق، والفقر والمسكنة، ورضيت بالابتذال، كان منها بعد ذلك على حذر، وراقبها أشد مراقبة، لتدوم على هذا الصفاء، وقام مسروراً أن ينجي غيره مــن هذا الهلاك، ويرفع إخوانه من حضيض الأرذلين، وعمل الضالين، لين الجانب معهم، زاهداً فيما في أيديهم، باذلاً ما في يده، يخصهم بملاذ الدنيا، ويرضى لنفســه الخشــن والجــوع، وتحمل مرارة المجاهدة، حتى يتعلموا بعمله جميل الأخلاق، مجداً في عمــل النوافــل بعــد الفرائض، حتى يلين أبدانهم على أكمل الأعمال وأجملها وأدومها، غامضــاً بصــره عــن عيوبهم، حافظاً لسانه عن الوقوع فيهم، ليتعلموا منه حسن المعاملة، ويتخلقــوا بــأخلاق رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

ثم يجدد أحوالهم بالحكمة، على قدر عقولهم، والموعظة على قدر أحوالهم ومعلوماتهم. يبغض أمامهم الفواحش والطمع، وسفه الغيبة، وسوء الخلق. ويبغضهم في كل عمل سئ، وحــال قبيح، وخلق رديء، ليكون نوراً لأبدانهم، وطهوراً لأرواحهم، وكعبة لأنفسهم، يــزدادون علماً بمجالسته، وقرباً من الله تعالى بمقاربته، وتزكية لنفوسهم بمعاشرته، ورغبة في الملكوت الأعلى بالرغبة فيه، وكشفاً لأسرار القرآن بعبارته، وتمكيناً في التوحيد بإشــاراته، وتخلقــاً بأخلاق الله تعالى وأخلاق رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ بمحبته ومعرفته .

فيفيض الله سبحانه عليهم من سوابغ فضله، حلل المقربين، وشراب المحبوبين، فيكون من ورثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، القائمين على الحق، والداعين إلى الله تعالى، والمجددين لسنة الله تعالى وسنن رسوله ﴿ﷺ وآله﴾، والمعلين لكلمة الله تعالى، والجامعين الخلق على الله تعالى. أولئك هم صفوة الله من خلقه، وأحباؤه من عباده، وخلفاؤه الراسخون في علم الله تعالى ومعرفته سبحانه.

من أنس من نفسه بهذا، فهو الداعي إلى الله تعالى، النائب عن الوارث لرسول الله تعالى. ومن لم يجد نفسه تطيعه، فليكن مع المريدين الذين هم في مراتب المجاهدات والإرشاد، ولا يتعرض للدعوة، فإنه يكون داعياً لغير الحق، ضالا مضلا أو كالشمعة يضيء لغيره ويحرق نفسه. أو داعيا من دعاة جهنم، نعوذ بالله من غضبه ومقته، وأسأله سبحانه نورا وهداية وتوفيقا لي، ولأولادي، وأهلي، وإخواني جميعا، آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وورثته آمين .

ما اشتياقي يا نفسُ ما تحنانى   وحبيبي مشاهدٌ لجَنَانى
أنِسَ السرُّ بالحبيبِ ونفسى   فى هيامٍ ولهفةٍ للمعانى
كلما لاح للخيالِ مثالٌ   من جمالِ الغيوبِ والتبيان
جدد الشوقَ والتألهَ حتى   كادت النفسُ تَزْهَقَنْ للتدانى
أنتِ يا نفسُ في هيامٍ ولهفٍ   واشتغالِ عن بهجةٍ في الجنان
فبمن أنت قد تألهت نفسى   بجميلٍ منزهٍ عن ثان
بعليٍّ في عزةٍ وجلالٍ   وعظيمٍ ومنعمٍ رحمن

الصفا بالوفا :

إن العقل الكامل لا تنكشف له برؤيته واستنباطه من معلوماته الكونية؛ إلا ما يكون به في تلك الدار الدنيا ناهجا منهج الحسن من القول والعمل النافعين للدنيا. ولا يمكنه أن يدرك ما يقربه إلى الله تعالى، ويجعله من اللذين يفوزون بالسعادة في الدارين، وينالون رضاء الله

تعالى، لأن هذه أنوار قدسية لا ينالها الإنسان إلا على لسان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وعمله ﴿ﷺ وآله﴾، لأن عمله وقوله وحاله بأمر الله تعالى، وبالنور الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ .

فلزم الوقوف بالأدب عندما أمر به سبحانه وتعالى ،وما عمله ﴿ﷺ وآله﴾ بالمحافظة على ذلك بعزم صحيح واحتياط ،حتى يتحقق العامل أنه متابع متابعة حقيقية مع الاستطاعة والمحافظة على ذلك في كل فروع الشريعة من أعمال القلوب وأعمال الأبدان.

فأعمال القلوب كالإيمان والخشوع و الرغبة والرهبة والخشية والخوف والإخلاص ،والحب في الله والبغض في الله ،والرجاء والطمع ،والإنابة والتوبة ،ومكارم الأخلاق من التواضع والعفو، والرحمة والشفقة ،والصلة والبر والإحسان .

وعمل الأبدان كالصلاة والصيام والزكاة والحج ،وذكر اللسان ومعاونة المسلمين ،والعبادة ، وإكرام الضيف والجار، والسعي لطلب العلم و طلب الرزق، والإصلاح بين الناس .

وأحواله التي تشمل أعمال للقلوب والأبدان من الزهد والورع ،وطول الفكرة ،ودوام العبرة ،والوجد والوله والتأليف وحسن المعاملة وما أشبهها مما يعلمه ويعمل به أهل الله الصالحون كل هذه معارج للقرب ،ومشاهد للحب ،وبقدر الوفا يكون الصفا .

إنما يعشق من عرف :

الإنسان يشهد بحسه ما به نفعه وتلذذه ودفع ألمه ونوال خيره فتراه يألف ويشتاق إلى تلك الأشياء التي يحس بخيره فيها أو منها أوبها ،وهذا الشعور ضروري ليس في الإنسان فقط ،بل في كل كائن – حتى في الحيوانات والنباتات – فإنك ترى أغصان الشجر تميل إلى الجهات الموجودة فيها الشمس ،وتمتد جذوره فيها إلى الجهات الخصبة من الأرض ،الممزوجة بالماء، ويترك الأماكن الصلبة ، أو التي ليست خصبة ، وقد تكون شجرة في حجرة فيها نافذة

،فتمتد أغصانها حتى تخرج من النافذة ، ما ذاك الا للشعور بالنافع ، إذا كـــان ذلـــك في النفس النباتية والحيوانية ، فهي في الانسان أعظم ميلا ، وأكثر شعورا

ولما كان الانسان صورة الرحمن المجملة بالنفس الملكية ، وقد يرقـــي إلى أن يمـــنح الـــنفس القدسية ، كان له جمال خاص به ،وخير يناله بتلك النفس الملكيـــة أو القدســـية ، وهـــذا الجمال ليس كالجمال الكوني الذي هو خير للجسم بل هو خير خاص بـــالنفس ،ولـــذة حقيقية للروح ، تحن إليه وتشتاقه إذا لم تشغلها الحواس والحظوظ والأهـــواء في ظلمتـــها الكثيفة التي تحجب الروح عن حقيقة ملاذها

فإذا زكت النفس ، وتطهرت أدواتها الجسمانية من شغلها ، أنست بالجمـــال المنطـــوي في الكائنات ،وتشوقت الي حضرة الملكوت ، حتى تشاهدها ، فإذا شهدت جمـــال الملكـــوت حنت إليه ، وجذبت الجسم معها إلي نوال الفوز بالوصـــول إلي هـــذا النعـــيم المقـــيم ، والسعادة الأبدية في دار الفردوس ،ومقعد صدق عند مليك مقتدر

ولديها تلوح أنور الأسماء ،ومعاني الصفات ، وتشرق شمس التجلي مشرقة علي أفق القلب ، ينور علي وسر جلي، ويتوجه القلب إلي العزة بوله شديد ، حتى تضمحل ظلال الأوهام ، ويعجز الخيال عن التمثيل ، ويشتد الوله حتى يتأله المراد إلي حضرة الجبروت ، فينكسر قلبه من أجل العظيم ، المتكبر الجبار ، فينال فضل القرب و الحب ، ويكون الله تعالى عنـــد العبد الكامل المنكسر قلبه من أجله ، بعد أن كان العبد عند ربه ، وهو مقـــام محبـــوب ، ومواهب الله لمطلوب .

ثم تتجلي أنوار مجلي الذات ، لا علي صور وهيئات ، ولا علي آيات وصفات ،ولكنه نور علي نور ، والعين تنجلي بلا أين ، وتشهد بلا بين ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشـــاء ، والله ذو الفضل العظيم ، وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي أله وصحبه وسلم .

الخاتمة

الحمد لله

بسم الله الرحمن الرحيم ،اللهم لك الحمد ولك الشكر ،ولك الثناء الحسن الجميل ،على ما تفضلت به وأنعمت ،ومننت به على عبدك وأحسنت ،لا أحصي ثناء عليك ،أنت كما أثنيت على نفسك ،بيدك الخير ،وأنت على كل شي قدير ،وأصلي وأسلم على سيدنا ومولانا محمد وآله ،الذي أنقذتنا به من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ،الوسيلة العظمى لنوال رضوانك الأكبر ،والشفيع المشفع يوم الهول والفزع ،وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد ،فقد منَّ الله تعالى على عبده المسكين ، بأن فتح له أبواب الخير ،وهو الفتاح العليم ، فوفقني وأعانني – وهو الموفق المعين – لوضع هذا الكتاب [1] الذي أسأل الله أن ينفعني به ،وينفع إخواني المسلمين ،وأن يجعله عملا خالصا لذاته المترهة ،مقبولاً عنده سبحانه ،وأن يعيذني وأهلي وإخواني من الذنوب التي توجب النقم ،ومن الذنوب التي تغير النعم ،ومن الذنوب التي تهتك الحرم ،ومن الذنوب التي تحبس غيث السماء ،ومن الذنوب التي تديل الأعداء وأن يهب لي ولأهلي وأولادي وإخواني مواهب المنعم المتفضل ،الولي العطوف الرءوف الباسط الودود ،الفتاح العليم ، التواب الغفور ،العفو الكريم ،الحنان المنان ،الرحمن الرحيم ،ذي الفضل العظيم ،وأن يحفظني وأهلي من شر الأشرار ،وكيد الحساد ويختم لي ولهم بالسعادة ،إنه مجيب الدعاء ،وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تم بحمد الله وتوفيقه

---

(١) أملى الإمام المجدد أبو العزائم ﷺ هذا الكتاب في شهر رمضان ١٣٣٠ هـ الموافق أغسطس ١٩١٢ م .

تطلب مؤلفات الإمام المجدد

السيد محمد ماضى أبو العزائم عليه السلام

من مكتبة دار الكتاب الصوفى

تليفون 002 022 3901030

١١٤ش مجلس الشعب

فى جانب تفسير القرآن :

١- هذا السفر الجليل " أسرار القرآن ".

٢ تفسير سورة القدر.

فى جانب العقيدة :

١- كتاب عقيدة النجاة .

٢- كتاب الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها.

فى جانب العلوم الفقهية:

١- كتاب أصول الوصول لمعية الرسول ﴿ صلى الله عليه وسلم وآله﴾.

٢- صيام أهل المدينة المنورة.

٣- هداية السالك إلى علم المناسك .

فى جانب السيرة النبوية والرد على المستشرقين:

١- سيرة النبى ﴿ﷺ وآله﴾

٢- وسائل إظهار الحق .

فى جانب ما يجب أن يعرفه المسلم :

١- النشأة الثانية.

٢- الوسيلة وما إختلف فيه من السنة والبدعة.

٣- الشفاء من مرض التفرقة.

٤- الجفر.

٥- تحذير الدين من بيع أراضى فلسطين.

٦- النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين.

٧- الرد على نظرية دارون.

فى جانب الأخوة الإسلامية :

١- الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾.

٢- الإسلام وطن والمسلمون جميعا أهله.

فى جانب المناسبات الدينية :

١- السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج

٢- بشائر الأخيار فى مولد المختار

٣- مشارق البيان فى فضائل شعبان

٤- لبيك اللهم لبيك.

فى جانب المسرحيات الدينية :

١- محكمة الصلح الكبرى.

٢- العالم والتاجر والفلاح.

٣- المقتصد والمسرف والفاسد.

٤- السياسى والحكيم والغشيم.

٥- الصالح واللص والسكرى.

فى جانب الصلوات والأدعية :

١- نيل الخيرات بملازمة الصلوات.

٢- الفتوحات الربانية والمنح النبوية فى الصلاة على خير البرية.

٣- الأدعية والاستغاثات الكبرى.

فى جانب التصوف :

١- شراب الأرواح من فضل الفتاح.

٢- تذكرة المرشدين والمسترشدين.

٣- معارج المقربين.

٤- الطهور المدار على قلوب الأبرار.

٥- من جوامع الكلم.

٦- الطريق إلى الله تعالى.

٧- الفرقة الناجية.

٨- دستور السالكين طريق رب العالمين.

٩- دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك.

١٠- مصطلحات الصوفية

١١- آداب أل العزائم

١٢- دروس تزكية النفوس

١٣- موارد أهل الصفا

١٤- قبس من المضنون

١٥- الصوفية والتصوف

فى جانب المواجيد:

١- مواجيد شهر محرم، صفر، ربيع أول، ربيع آخر، جماد أول، جماد آخر، رجب، شعبان، رمضان.

٢- المواجيد العزمية فى مواجهة الروضة الحسينية.

٣- ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب.

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
فاتحة الكتاب	٣

التماس الطبعة الأولى	٥
مقدمة	٧
الباب الأول: الاعتصام بالكتاب والسنة	١٣
الباب الثاني: العلم والإيمان	٢٠
الفصل الأول: العلم	٢٠
تعريف العلم	٢٠
الوصول	٢٤
الحكمة	٢٥
عين اليقين وحق اليقين	٢٧
الفكر في آلاء الله لا في ذات الله	٢٧
قاعدة لمعرفة الكائنات المحيطة بنا	٣١
الفصل الثاني: الإيمان	٣٨
الفرق بين العلم والإيمان	٣٨
نتائج الإيمان	٤٠
شروط الإيمان وخصال المؤمنين	٤٤
أولاً ... التوكل على الله	٤٧
ثانيا ... الإخلاص في العمل والدعاء	٤٨
ثالثا ... الصبر	٥٠
رابعا ... الرضا بالقضاء والقدر	٥١
علامة المؤمنين المتحققين	٥١
الموضوع	**الصفحة**
ما يخاف عاقبته الإنسان وما يرجو عاقبته	٥٣
بغية المؤمن العالم العامل	٥٤
المؤمن مطيع لله في الشدة والرخاء	٥٥
الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة	٥٥

استفت قلبك ولو أفتاك وافتوك المفتون	٥٨
واتقوا الله ويعلمكم الله	٦٠
حكمة بعثة الرسل	٦٢
حكمة احكام الشريعة	٦٣
تذكرة	٦٥
الباب الثالث: الطريق إلى الله تعالى	٦٧
تعريف الطريق إلى الله	٦٧
المقدمات والضوابط	٦٨
الفصل الأول: الأصل الأول للوصول إلى الله صفاء جوهر النفس	٧١
تعريف النفس	٧٢
النفس واحدة وقواها ثلاث	٧٥
فضائل النفس ورذائلها	٧٧
لذة النفوس الطاهرة	٨٢
أقسام تزكية النفوس	٨٨
الفصل الثاني: الأصل الثاني للوصول إلى الله استقامة الطريق	٩٤
خصال الطريق المستقيمة	١٠٠
متى يكون المريد على الطريق المستقيم	١٠٠
نواب المرشد	١٠١

الموضوع	**الصفحة**

فقه القلوب	١٠٧
معاملة المرشد للمسترشد	١٠٩
الأخ في الله تعالى	١١٢
الإخوان ومعاشرتهم	١١٣

اختيار الإخوان	١١٤
دعاة الجهالة	١١٧
الحرص على من ظفرت به من الإخوان	١١٩
لا تثق إلا بالله وذر الإخوان	١١٩
معاملة الصديقين	١٢١
شر الناس	١٢١
متى تحصل السعادة الحقيقية للإخوان	١١٦
المحسن هو من سبقت له الحسنى	١١٧
المعاني التي تصح بها إرادة المريد	١١٩
مجاهدة النفس	١٢٠
حجب السالكين	١٢٣
المراقبة	١٢٤
السماع	١٢٧
الذكر مراقبة للمذكور ومجاهدة للنفس والهوى	١٢٩
أنواع الذكر	١٣١
الباب الرابع: ركائز الإيمان	١٣٣
الإسلام والإيمان	١٣٣
أركان الإسلام	١٣٤
أركان الإيمان	١٣٥
الفصل الأول ... الركيزة الأولى العقيدة	١٣٨
الموضوع	**الموضوع**
طريقة المتكلمين في العقيدة	١٣٨
طريقة السلف في العقيدة	١٤١
خصال عقيدة السلف	١٤١
أولاً: الخصال التي هي في الدنيا	١٤١

ثانياً: الخصال التي هي في الآخرة ١٤٧
لا تجتمع أمتي على ضلالة ١٤٩
الجماعة خير من الفرقة ١٥٠
طريقة الحكماء في معرفة الله تعالى ١٥٢
الفصل الثاني ... الركيزة الثانية العبادة ١٦٢
أركان الإسلام ١٦٢
الركن الأول: الشهادتان ١٦٢
الركن الثاني: الصلاة ١٦٥
الركن الثالث: الزكاة ١٨٠
الركن الرابع: الصيام ١٨٨
الركن الخامس: الحج ١٩١
الفصل الثالث ... الركيزة الثالثة المعاملة ٢٠٦
المعاملات وفضائل المعاملين ٢٠٦
نموذج من حسن المعاملة ٢٠٧
الحقوق ثلاثة .. حق فيك، وحق عليك، وحق لك ٢١٠
الفصل الرابع ... الركيزة الرابعة الأخلاق ٢١٣
الخلق وأقسامه ٢١٤
أخلاقه ﴿ﷺ وآله﴾ ٢١٦
الأخلاق الصادقة الإسلامية ٢٢٣
الباب الخامس ... العارف ٢٣٣